IN GOD... WE TRUST

الملجأ

رواية

وائل رداد

الرواق للنشر والتوزيع



«فضائلنا وعيوبنا لا ينفصلان.. مثل القوة والضعف، إذا انفصلا لا يصبح الإنسان إنساناً..»

نيكولا تيسلا

العميل الصامت:

أصعب أنواع العملاء، نادرًا ما يتحدث، ولا تظهر عليه أية انطباعات يمكن التكهن بها، ومن الصعب معرفة ما يدور في ذهنه..

الفصل الأول

المكتبة

(٠)

الآنسة اللطيفة كانت تعقص شعرها الأصهب على هيئة قبة بحجم قبضة اليد ببكلة وردية، وقد ارتدت نظارة طبية أنيقة ذات إطار فضي مزخرف الجانبين..

بدت وقورة باحتشامها، مثقفة بلا تكلف، بالكتاب الذي ضمته إلى صدرها، وهي تدلف بثقة للمكتبة العامة التي تحقق أحلام القراء النَّهِمِين على شاكلتها..

«سميلجان» بدت قرية مملة، مملة للغاية ورتيبة، شبانها وفتياتها يتسلّون ببعضهم البعض، حيث يتواعدون من وراء ذويهم..

الفتيات يعتبرن الهواتف النقالة هبات سماوية أو أهم الاختراعات البشرية قاطبة، فهي تسمح لهن بمحادثة الشبان وضرب مواعيد حالمة لهم.. ورغم تلك التكنولوجيا التي يتباهين بها كن لا يزلن يرحبن بالغجريات الكرواتيات في منازلهن، أو حتى يقصدن مخيمات تجمع

الغجر كي يقرأن لهن الطالع عبر أوراق التاروت العتيقة لمعرفة مَنْ يحب مَنْ حق المعرفة!

كن يعتبرن حياة الغجر أكثر رومانسية، ويحلمن بتتبع تقاليدهم بصدد الزواج، فهم يتزوجون في سن باكرة، والخِطبة متمثلة بأن يعطي الغجري الفتاة التي يختارها لفافة عنقه المتعرقة، فإذا ما ارتدت تلك اللفافة فذلك يعني أنها قد قبلت الزواج به.. وفي العرس يتصافح الزوجان كالأصدقاء، ثم تكسر قطعة من رغيف الخبز وتسكب عليها قطرات الدم من إبهاميهما، ويأكل كل منهما الكسرة التي فيها دم الآخر، ثم يُكسر ويُنثر ما تبقى من قطعة الرغيف على رأسيهما.. بعدها، يغادران مكان الاحتفال الصاخب، ولا يحضران إلا في اليوم التالي للمشاركة في المزيد من الغناء المرح والرقص الصاخب!

وحتى الأمهات أبدين إعجابًا بمتانة الزيجات الغجرية ودوامها حتى الممات، فالطلاق نادر الحدوث جدًا في مجتمعهم العجيب..

بالطبع، الشبان الكروات يسخرون من ذلك كله ويعدونه مهزلة تقع في سيرك مليء بالمهرجين.. يعتبرون أنفسهم أكثر عملية..

الشبان على أهبة الاستعداد دومًا بسياراتهم المستعملة بلا أسقف في محاكاة عمياء للأمريكان، تداعب مخيلاتهم أحلام عابثة، فإذا كان الميعاد مؤكدًا ـ أو حتى شبه مؤكد ـ باتت أحلامهم جامحة لحد المجون!

وهي، هي لا تريد سوى القراءة والقراءة فحسب!

لا يهمها نوع سيارة الشاب، ولا الشاب نفسه، خصوصًا أنها ترعرعت وسط بيئة أدركت من خلالها نوعية السيد الذكوري الذي سيحاول

التودد إليها، فلها بضع صديقات مجربات لحسن الحظ، إحداهن حملت عرضًا لسوء حظها!

على الرغم من التحفظ الذي اصطنعته لنفسها، لربما كن صديقاتها من النوع الذي يحاول صنع شيء بصدد فتاة محافظة، رهان مثلا على تحويل الفتاة المثقفة ـ والباردة ـ إلى ملكة جمال أزياء البحر الفاضحة أو شيء من ذلك القبيل، كي يسيل لمرآها لعاب الشبان بنَهَم..

قد يصنعن الصديقات ذلك بحسن نية على طريقة الدب الذي قتل صاحبه كي يحميه، وقد يصنعن ذلك لنية سيئة يشوبها الحسد المكبوت والضغينة الحالكة!

لكنها لا تريد سوى أن تقرأ.. بعيدًا عن الركام البشري!

* * *

بملل أطلعتها (زرينكا) على خبر العمر.. ثمة مكتبة عامة في بلدتنا!

كانت قد انتقلت للسكنى لدى خالتها في «سميلجان»..

في العاصمة «زغرب» كانت تجد نوعًا من الشبع الهانئ في كميات الكتب المُباعة، أو التي بإمكانها استعارتها من مكتبة كرواتيا الوطنية الجامعية، لكن الانتقال إلى بقعة منعزلة كسميلجان معناه أن تودع شيئًا عزيزًا عليها يدعى «مكتبة»!

الخالة (بوغوميلا) كسرت ساقها، كانت تنظف زجاج نافذة منزلها من الخارج، عندما ركض الكلب الشقي (تومو) كالزوبعة خلف هرة ضالة، فمر ـ بالأحرى ارتطم ـ بالسلم الخشبي المتهالك، الذي وقفت

علىٰ قمته الخالة (بوغوميلا) محاولة أن تتوازن كالبهلوان في السيرك، لكنها فقدت توازنها للأسف وتهاوت كالقذيفة..

الخبر الجيد أنها لم تكسر حوضها، أما السيئ فهو حاجتها المُلحة لابنة أختها، فلا معين لها سواها في الوقت الراهن!

إذن، وداعًا للمكتبة! لا مناص من إعداد حقيبة السفر، ولا حل سوىٰ بأخذ أكبر حمولة ممكنة من الكتب معها..

ثم ظهرت صديقة الطفولة (زرينكا).. قبلات! قبلات! قبلات! وكالمرشدة السياحية ظلت تثرثر عن الحياة الرتيبة في «سميلجان»، تلك القرية الواقعة في البقعة الجبلية لمنطقة «ليكا»..

الشيء الوحيد المثير هنا أن «سميلجان» هي مسقط رأس المخترع العبقري الغامض (نيكولا تيسلا).. فقد ولد فيها عندما كانت المنطقة خاضعة للإمبراطورية النمساوية الهنغارية، وحكاية ولادته تبدت كأسطورة خلابة بالنسبة لها، إذ يقال بأنها حدثت في منتصف الليل خلال عاصفة رعدية عنيفة!

تلك المعلومات لم تصدر عن (زرينكا) طبعًا، بل عنها هي.. ثرثرت بها بحماسة وهي تلتقط من جيبها عملة معدنية صربية من فئة الـ٢٠ دينار صكت عام ٢٠٠٦ وعليها صورة جانبية لوجه (تيسلا)!

كانت متحمسة لزيارة منزل (تيسلا) الذي ولد به وتحول لاحقًا لمتحف، لمعرفة ـ أو لتبين ـ لمحاتٍ من بنات أفكاره العبقرية المبهمة، يوجد لديهم في العاصمة «زغرب» تمثال نصفي لـ (تيسلا)، نحته الفنان (إيفان مشتروفيتش) سنة ١٩٥٢، لكنها راغبة بالتقاط عدد من الصور

للتمثال بالحجم الطبيعي الذي صنعوه له هنا، مما أثار ذلك التثاؤب في نفس صديقتها!

ما يثير (زرينكا) هو الشبان.. هنا الشبان وسيمون.. كي يصطحبكِ أحدهم عليكِ أن تكوني بارعة بالتزين وإظهار مفاتنك!

امتلكت (زرينكا) عددًا لا يحصىٰ من الأسباب ـ اللامنطقية ـ لكراهيتها صورتها المنعكسة في المرآة، فهي علىٰ سبيل المثال تكره التساؤل حول طبيعة تقاسيمها، أأنفها كبير أم لا؟ أعيناها واسعتان أم ضيقتان؟ أشفتاها مكتنزتان أم متيبستان؟ أيتوجب عليها عقص شعرها أم تركه يسترسل علىٰ كتفيها؟

أشعرها ناعم معتنىٰ به أم متقصف؟

ومن ثم تتلفت لقدها، فتتحسر علىٰ صدرها غير الكاعب، ثم تحاول الاقتناع بما لديها من الخلف!

كل هذا لأجل الشبان! شبان.. شبان.. شبان!

أما عنها فلم تشعر يومًا بتلك الأحاسيس المسماة «دغدغة أنثوية»، كانت تتشنج بشيء من غثيان لدىٰ سماع عبارات الإطراء القاصدة محاسنها، لكنها ترحب بها إذا ما كانت مديحًا لحسن صنائعها في العمل..

* * *

من حقها ألا تصدق عندما أخبرتها (زرينكا) عن تلك المكتبة القديمة..

كان تساؤلًا عارضًا صدر عنها بضجر يائس، وهي تضع سماعاتها

للإنصات إلى عقيرة (فيلي فالو)، وأوتار غيتار (ميكو لندسترم) من فرقة «هِم» الفنلندية:

- «طبعا لا توجد مكتبة عامة هنا، أليس كذلك؟»

- «بل توجد يا عزيزتي، لكن، لِمَ تسألين؟»

رباه!

شكرا يا (زرينكا) على الثرثرة العملية أخيرًا، وأهلا بعوالم الكتب السحرية!

بابٌ زجاجي ينقر جرسًا لطيفًا ما إن يُفتح للداخل، فيرتطم به، صليل سحري.. ومن ثم يأتِ ما هو أكثر سحرًا.. الكتب!

كانت كأي مصاب نفسي بهوس الكتب؛ تعشق أشكالها وروائحها وحتى أصوات تقليب صفحاتها، لذا لم يكن تواجدها في جنة الكتب تلك حدثًا بسيطًا يمكن الاستهانة به!

عشرات..لا بل مئات.. ربما آلاف الكتب المرصوصة بعناية، لا عشوائية، مُصنفة ومُحددة بأجمل الوسائل.. حتى مكتبة العاصمة لا ترتب كتبها بتلك الطريقة الخلابة!

أغلفة براقة، عناوين متباينة.. كلما سارت قليلًا جحظ بصرها حين تجد كتابًا كانت تبحث عنه مذ زمن بعيد، تتوقف لاهثة، تتمالك نفسها ملتقطة هذا الكتاب.. ذاك، رباه! لو تقدر أن تعيش هنا!

باعتقادها الخاص أن السيد (حمزاتوف كازيمير) أمين مكتبة «سميلجان» ومالكها قد صار صديقها منذ اليوم الأول الذي التقته فيه.. رجل مثقف، لطيف المعشر، وادع النظرات، تنزلق نظاراته الطبية الضئيلة على أنفه بطريقة

عفوية، ملامحه تذكرها بتلك الصورة الطريفة للعالم (آينشتاين) التي يخرج فيها لسانه!

هو مسلم، وهي مسيحية.. لا مشكلة هنالك، في الأساس هي بعيدة كل البعد عن دروب الرب، لا تعلم ما يدور بالضبط بين أروقة الكنائس، وإنجيلها الخاص خلاصته مشتقة من الكتب.. قصص، أشعار، روايات، الأنبياء في مخيلتها هم: (تشيخوف) و(ديستويفسكي) و(فيكتور هوغو)، ولربما أحبت الأخير أكثر من السيد (يسوع) المسيح وتعاليمه، إن «البؤساء» عبارة عن تلخيص لسيرة ابن الإنسان، وفي رأيها فإن عذابات (جان فالجان) تضاهي عذاب الصلب ذاته! (هوغو) نفسه هو من قال - كنبيّ مبشِّر برسالته -: *«إن قراءتنا الجيدة للكون تعني قراءتنا الجيدة للحياة..»*.

انعقدت الصداقة بمجرد مناقشة السيد (حمزاتوف) معها عن «ألف ليلة وليلة»، كانت أحلام الأنوثة الوحيدة تدغدغها عندما تتخيل نفسها (شهرزاد) الأريبة، تسرد حكايات ساحرة لشهريار الطاغية الجبار كي تنقذ رأسها ورؤوس سائر بنات حواء من سيف مسروره، لا بأس كذلك من بعض الشتائم على أم رأس السلطان شبه الغافي، الذي تناول فمه المفغور قليلًا حباتٍ من العنب الأسود الطازج!

(حمزاتوف) عرَّفها على (نادين غورديمير)، أعطاها ترجمة لروايتها الأشهر: «ابنة بيرغر».. بوركت يا (حمزاتوف) من مثقف ذي ذائقة! ماذا لديك أيضًا؟ أسحرني! أرشدني في السبيل البراق المتوج بلآلئ الأدب!

«يوم من حياة إيفان دينيسوفيتش» لـ (ألكسندر سولجنيتسين)؟ أعرفه

طبعًا.. «يوم من العمر» لـ (مانليو أرغويتا)؟ لا أعرفه! على ضمانتك؟ آخذه طبعًا، شكرا للنصيحة الثمينة!

ماذا لديك لـ(راندي تاغوتشي)؟ ماذا عن (تسيفويين بافلوفيتش)؟ أشهد أنك قديس يا (حمزاتوف)! إليّ بالمزيد!

في مرة سرد بيتًا آسرًا من الشعر، سألته لمن؟ يا صديقي لمن؟ فذكر شيئًا عن شاعر عربي قديم أعمى يسمونه المعرّي!

كان اسمًا استصعبت نطقه.. لكن البيت علق بمخيلتها طويلًا طويلًا:

ـ *«وتزعم أنك جرمٌ صغير.. وفيك انطوىٰ العالَمُ الأكبرُ!»*

طوبىٰ للعباقرة حين تدرك أقلامهم أعمق الكلمات!

* * *

بابٌ زجاجي ينقر جرسًا لطيفًا ما إن يُفتح للداخل، حتىٰ يرتطم به..

رنرنة سحرية.. ومن ثم يأتِ ما هو أكثر سحرًا..

هتفت باندفاع وهي تلوح بالكتاب الذي كانت تحضنه قبل أن تلج:

ـ «هذا الكتاب رائع يا..».

تصمت عندما تلاحظ وجود غريب.. ماذا يصنع هنا؟ في مملكتها؟!

(حمزاتوف) كان متواجدًا لحسن الحظ، ما إن رآها حتىٰ هش وجهه وبش، وبحرارة معتادة رحب بها، فدنت من مكتبه شاعرة بعدم راحة..

قد اعتادت الدخول بأنانية إلىٰ مملكتها للحديث بحرية، وحارس المملكة الوحيد كان (حمزاتوف) طبعًا، لا أحد سواهما، يثرثران لساعات

من الكتب دون أن ينغص سكينتها أحد، فمن أين أتىٰ هذا المزعج الآن؟!

لم يكن يقرأ كتابًا، كان يتصفح جريدة مرتشفًا بين الفينة والفينة من فنجان قهوة أمامه! في مملكة الكتب العظيمة الأحمق وحده من يمسك جريدة ملأىٰ بالتُّرَّهات، خصوصًا حين تكون عناوينها الرئيسية جوفاء من طينة: *«مخاوف من أضرار اقتصادية لإضراب السكك الحديدية في ألمانيا»*.. أو *«تراجع لمبيعات التجزئة البريطانية وتضخم في منطقة اليورو»*.. أو *«أذربيجان تستغل النفط لأهداف خيّرة فقط»!*

لكن لحظة، إنه ليس ـ مع الأسف ـ مجرد غريب واحد، بل ثمة آخر يقف صوب أحد أركان المكتبة، عند رف القسم الأدبي تحديدًا، قسمها المفضل! ويكتفي بالتحديق في العناوين ممررًا إبهامه بضجر عليها!

زاد انزعاجها لهذا الازدحام، وبعسر كتمته وهي تهمس لحارسها المسن:

ـ «أرىٰ أن لديك زبائن اليوم علىٰ غير العادة»!

قهقه الرجل الطيب قائلًا بلا حرج من وجودهما:

ـ «يبدو أنكِ فأل خير يا فتاة! كيف كان الكتاب؟».

ناولته إياه، وبشيء من تجهم لوجود «آخرين» تمتمت:

ـ «جيد!».

ـ «فقط؟ حسبتُ أنه سينفخ عقلكِ بما يحوي من طرائف!».

بركن عينها تتأمل قارئ الجريدة.. كان ممتلئًا عريض البنية إلى حدٍّ ما، شعره أسود وكثيف لكنه ممشط غير ثائر، وتوجد بمنتصفه فَرْقة موحية بصلع خفيف، لحيته «السكسوكة» مرسومة بعناية على ذقنه..

ارتدى مع قميصه الأبيض وربطة عنقه الأرجوانية القصيرة سروالًا من الذي تحمله الأكتاف بحمالات، وقد وضع بدلته الكستنائية ذات الرقع البنية الجلدية عند الكوعين على المقعد الذي بجواره..

بدا كعالِم مخبول، خصوصًا بالنظارات الطبية الصغيرة التي يضعها للمطالعة بوضوح، لكنها لم تستطع أن ترتاح لنظراته، شيء ما في عينيه أرهبها..

ـ «ماذا عن كتاب لتطوير الذات؟»

ـ «أنت تمازحني يا (حمزاتوف).. أليس كذلك؟»

الرجل يضحك لدعابته معها، فهو يدرك كم تكره تلك النوعية من الكتب..

تستغل الفرصة لتصوب بصرها تجاه الشخص الآخر.. وسيم كنجوم السينما! شعره فاحم طويل يغطي أذنيه وعينه اليسرى، معطفه كحلي داكن يكاد يلمس الأرض، يلوك قشة بين أسنانه كرعاة البقر!

تبديا لمخيلتها الخصبة كفردي عصابة حضرا لنهب المكان، لولا مشكلة هينة.. المكان عبارة عن مكتبة لا مصرف!

نظرت إلى (حمزاتوف) نظرة متوجسة مفعمة بالتساؤلات، وفي ذهنها احتشدت كل المواقف والعبارات التي ارتكبت وقيلت في الروايات البوليسية، باحثة في ملامح الرجل عن أية إشارة تدل على أنه يطلب النجدة!

رن رن رن!

جميعهم يلتفتون ناحية الباب، فيبصرون شابًا يدلف حاملًا كتابًا..

كان ذا ذقن نامية، تقاسيمه شاحبة، ثيابه عبارة عن فانلة بيضاء قطنية، ارتدى فوقها سترة جلدية سوداء فضفاضة ذات غطاء أرخاه فوق رأسه..

شعرت بدهشة من مظهره الذي لا يدل على القراءة كذلك.. ربما كان الأقرب إلى هذا المكان هو متصفح الجريدة!

ـ «إذن يا صغيرتي الغالية.. هل ستختارين شيئًا اليوم؟»

ـ «على ذوقك (حمزاتوف).. على ذوقك!»

الوافد الجديد يحدجها بنظرة حيادية للغاية، صامتة أقرب لنظرة تمثال متجهم..

ابتلعت ريقها بقلق عندما..

ـ «هذه رواية جيدة.. أنصحكِ بمطالعتها!»

كتمت جزعها لما باغتها الوسيم صاحب المعطف الكحلي ملوحًا بكتاب في يده، وقد كانت رواية «مدام بوفاري» لـ(غوستاف فلوبير)!

تلاعب ثغر الوسيم بتلك القشة وهو يسترسل بالحديث كأنما يُحاضر:

ـ «هل تعلمين أن الحكومة ـ في ذلك الوقت ـ قمعت هذه الرواية وألقت القبض على مؤلفها مع اثنين من ناشريه؟ لقد اتهمه النقاد بالبذاءة، وبأن الرواية إهانة شنيعة للمرأة الفرنسية!»

شعرت بالامتنان لدى تدخل (حمزاتوف) وهو يمد يده بكتاب لها قائلًا:

ـ «دع الشابة وشأنها!»

تراجع الشاب مؤرجحًا يده في لامبالاة، ولم ينس منحها غمزة ماكرة وهو يبعد خصلة شعره المتدلية عن عينه اليسرى!

لم تصدق متى التقطت الكتاب من يد أمين المكتبة المسن دون تبين عنوانه حتى، كي تهرع للخارج محاولة ألا تبدي ارتباكًا..

وعندما مرت إلى جواره، لم تدرك سبب البرودة التي أحست بها.. كان الشاب الثالث واقفًا فحسب حتى تفرغ هي من أخذ كتابها.. وبنظرة خاطفة بالكاد تمكنت من مطالعة عنوان الكتاب الذي يحمله..

لِمَ تشعر أن أولئك الثلاثة كانوا ينتظرون رحيلها فحسب؟

الفصل الثاني

العملاء الثلاثة

(أ)

اسم الدواء «بنزودايازابين»، وقد التقطه (راجح) من خزانة الصيدلية خلف المرآة في الحمام..

ابتلع ثلاث حبات دفعة واحدة رغم خطورة ذلك، ثم أخذ رشفة سريعة من كوب الماء البارد..

كان قد تجشأ بضراوة عقب التهام آخر عنكبوت من مجموعته التي كان يربيها من عناكب «الناسك» السامة منذ مدة طويلة.. التهمها بجشع مرددًا بتهكم مقولة الكاتب الفرنسي (جان جيرودو) كأنما يترنم بأنشودة مرحة للأطفال:

ـ *«قليلًا ما أعفو عن العنكبوت، قبل الظهر..*

عنكبوت الصباح، حزن..

عنكبوت الظهر، كسب..

عنكبوت المساء، أمل..»

لم تكن لديه دراية عما إذا أهلكته صنيعته أخيرًا، شعر بقليل من الحموضة، كمن التهم واحدة من تلك الوجبات السريعة الرديئة، «ماكدونالدز»، «برغر كينغ»، «وينغيز»، ولكن لا شيء أكثر..

عنكبوت «الناسك البني» كائن ضئيل يتراوح طوله بين سنتيمترين وست مليمترات، نادرًا ما يلدغ أو يستخدم سمه إلا في حالة خطر يتهدده، وقد لا تشكل لدغته أي خطر في معظم الأحيان، لكنه حتما يقتل من هم أصغر سنًّا من البشر..

بالنسبة للمخلوقات السامة كل شيء عبارة عن خطر يتهددها، أي شيء يتحرك يشكل خطورة ولو كان ريشة تؤرجحها الرياح، كان يشعر أن تلك المعلومة الخاصة باستخدام السم في حالات الخطر صادرة عن محامي دفاع نابغة، وبواسطتها تمكن من تبرير استخدام تلكم المخلوقات للقتل بالسم، وتبرئتها من كل الجرائم التي ارتكبتها تحت مسمى الدفاع عن النفس!

قام بالتهام ما يربو على العشرين عنكبوتًا مراهنًا على أن ذلك لن يقتله، والآن بات عليه الانتظار للتيقن من صدق رهانه النفيس، فهو يراهن على حياته، ولم يشعر كثيرًا بفداحة ذاك الرهان..

هي تجربة علمية، من تلكم التجارب المولع بارتكابها، عناكب تم حقنها بتركيبة كيماوية خاصة، والنتيجة قد تكون فادحة إذا ما وقعت على عاتق شخص آخر، شخص غير مسؤول..

وجد العنكبوت رقم (١) في منزل مهجور، دلفه لتلبية نداء الطبيعة أثناء مهمة سابقة في قُطر غربي..

حين لمحه حاول إصابته بخيط البول كي يتسلى قليلًا، لكن المخلوق

الضئيل بدا مراوغًا، فراق ذلك له، وقرر الاحتفاظ به..

بحث حتى وجد قنينة مياه معدنية مُتّربة، والتقط العنكبوت ليضعه بداخله، لم يكن يعلم أن هذا العنكبوت من نوع سام، وحتى عندما قام بأبحاثه لم يصدق، كان من الممكن أن يعضه ويحقنه بسمه لكنه لم يفعل، قد ناصبه العداء وأهانه حين حاول إصابته ببوله، لكن العنكبوت ابتلع الإهانة ووافق على الأسر باختياره!

أتراه لم يشعر بالخطر يتهدده؟! كان ذلك أكثر من مناسب كي يستعمل سلاحه السام! حجته للدفاع عن النفس لا تشوبها شائبة!

حسنٌ، لربما تلك المقالة عن عناكب الناسك البنية ما حفزته لمواصلة مهمة جمعها بحماسة، تتحدث عن سيدة أمريكية سقطت في غيبوبة لمدة ١١ يومًا عقب خضوعها لعملية جراحية استأصل خلالها الأطباء أحد ثدييها، بعدما تعرضت للدغة سامة من عنكبوت صغير من نوع «الناسك البني» الذي يعيش في كثير من البيوت، ويبدو أن السبب الرئيسي في الحادث غير العادي الذي تعرضت له تلك السيدة هو إهمال مكان اللدغة دون تنظيف..

لاحظت تلك السيدة لاحقًا وجود تورم صغير على ثديها الأيسر، ولكن لدى وصولها للمستشفى، اكتشف الأطباء وجود تعفن داخلي «غرغرينا» لم تعد الأدوية العادية تُجدي معه نفعًا، مما اضطرهم إلى استئصال الثدي حفاظًا على حياتها، على أن يُجروا لها لاحقًا عملية لإعادة ترميم الصدر..

كل ذلك وقع بسبب عنكبوت ضئيل تافه..

كان تجميع تلكم العناكب مسألة شديدة الإنهاك، لكنه قام بها مقاومًا

ضجره، بحث بعناية عن أماكن تواجدها، وحين سئم من مطاردتها قام بطلب بعضها عن طريق زميل له أخبره أنه يعرف أشخاصًا بإمكانهم تدبيرها بحكم معيشتهم قرب الخرائب، ومعرفتهم كيفية تحصيلها بكميات وافرة دون معاناة زائدة، وكل بسعره..

لم يكن يحبسهم دومًا في الصندوق الزجاجي، أحيانًا كان يخرجهم ويسمح لهم بالزحف على نبتة مغروزة في أصيص جلبها خصيصًا لهذا الغرض، يزحفون، فيغطيها بأسرها بكيس من البلاستيك كي تستعيد النبتة نضارتها، ولكي لا تحاول العناكب الفرار..

كان للعنكبوت الأول بالذات مَعَزَّة خاصة لدى (راجح)، فحين احتمله للمنزل ثبته بملقط نسائي تنتف بواسطته المرأة حواجبها، وبصبر ودقة، خط على مؤخرة العنكبوت المكتنزة الرقم (٦٦) بقلم تخطيط أحمر عسير الإزالة.. ومن بعد ذلك العنكبوت ابتدأ عدًّا تنازليًّا يخطه على مؤخرة كل عنكبوت جديد يحصله: (٦٥)، (٦٤)، (٦٣)، وهكذا دواليك..

لم يكتفِ بذلك، بل قرر تسمية العنكبوت الأول كما لو كان مولوده، سماه (ميشيما)، تيمُّنًا باسم الكاتب الياباني السوداوي، الذي دوَّن يومًا جملة أعجبته على عصابة الرأس التي ارتداها ليكمل طقس الموت منتحرًا، وهي: «*إن الرجال يجب أن يكون لهم لون أزهار الكرز حتى عند موتهم*»..

في قرى «كمبوديا» لديهم عادة التهام العناكب، حيث يقومون بقليها وبيعها في الأسواق، ويأتي السياح لتلك القرى لمشاهدة تلك المأكولات

الغريبة، إذ يدفن أهل القرية الكمبودية ما يجمعونه من عناكب في حفرة، ومن ثم يتم قليها بالزيت كنوع من المأكولات الشعبية العريقة..

لا يعرف بالتحديد متى بدأت هذه الفكرة بأكل العناكب، ولكنه طالع مرة أنه عندما كانت الحرب دائرة أيام «الخَمِير الحُمْر»، لم يكن الطعام متوفرًا بكثرة ذاك الحين، فاضطروا لالتهام العناكب..

لذا، قرر أن يجرب بنفسه ـ ودون قَلْي ـ التهام عناكب حية لغاية في نفس يعقوب.. أما عن المجازفات فهو معتاد عليها بحكم عمله الغامض والخاص!

كان قد أنهى عنايته بأسنانه النضيدة، مضطرًا لاعتصار أنبوبة المعجون اعتصارا لمشارفة محتواها على النفاد..

لم يتسوق منذ زمن، وقد شعر بالضيق كونه سيضطر للقيام بذلك الآن، لكن الشقة في أمسّ الحاجة للعديد من الحاجيات المفتقدة.. حتى صابون غسيل الثياب قد نفد، وكذلك بعض المواد الغذائية المُلحَّة من ثلاجة المطبخ..

بعد غسيل الوجه والأسنان، استخدم كريمًا طبيًّا لإخفاء سواد الأرق أسفل الجفنين، ثم شذب ذقنه «السكسوكة» بمقص صغير محاولًا ألَّا يطيل النظر في المرآة، قبل أن يفتح خزانة الصيدلية مستخرجًا عبوة الأقراص الضئيلة التي بدأ يدمنها مؤخرًا..

امتلك عددًا لا يحصى من الأسباب لكراهيته صورته المنعكسة في المرآة.. صحيح أنه يعتني بمظهره، لكن ملامحه تذكره بمآسٍ عديدة لا يمكن تناسيها بسهولة، كما أن للنحس يدًا طولى في حياته، فلو أن نحسه امتلك وجهًا لكان وجهه هو بالذات!

يكره نظراته الغريبة والخاوية، ويكره الفَرْقة في رأسه الموحية بالصلع رغم كثافة شعره، كما يكره بِنْيته، خصوصًا أكتافه العريضة نوعًا، والمناسِبة أكثر لرياضي فظّ يمارس لعبة عنيفة كالهوكي أو الرجبي، كان بإمكانه الوقوف لفترات طويلة، والسير أو الركض إلى مسافات بعيدة دون أن يشعر بأي تعب وإنهاك..

أنهى طقوس الحمّام اليومية، واستعد لطقوس الجري اليومية ملتقطًا بدلة الرياضة من على السرير، وهو يرمق ساعة معصمه الأيسر «الأوميغا» بنظرة سريعة، لا يزال الوقت باكرًا على الذهاب للعمل، ولديه نصف ساعة على الأقل قبيل العودة للاستحمام مجددًا..

كان هذا عندما انطلق لحن تقليدي من هاتفه النقال، فالتقطه ضاغطا الزر الأخضر..

أنصت بتركيز، ثم ردَّ بحسم:

ـ «حالًا..».

تجاهل ملابس الرياضة متناولًا ثياب العمل، القميص الأبيض وربطة العنق الأرجوانية القصيرة، والسروال الذي تحمله الأكتاف بحمالات، والبدلة الكستنائية المزودة برقع بنية جلدية عند الكوعين..

أخيرًا، وعقب تفقد هندامه أمام المرآة وتمشيط شعره الأسود الكثيف، تأكد من تماسك الجراب تحت إبطه، ومن تواجد الطلقات في خزان مسدسه «ماكاروفا» نصف الآلي روسي الصنع عملي الصنيعة، حيث تفحص رصاصاته الـ١٢، قبل أن يدسه في طوق الجراب..

* * *

سارت بخطوات سريعة شلة مؤلفة من عملاء أمن الدولة، توسطهم (راجح) بتعابير متجهمة مشتركة، وهو ينصت إلى مدير الأمن في المطار، الذي أمسك بجهاز لاسلكي وهو يخطو بعجلة إلى جواره قائلًا:

ـ «الطائرة وصلت قبل نصف ساعة، والشخص الذي أحدثكم عنه لا يزال هناك بداخلها، وقد نفذنا تعليماتكم بدقة.. لا أفهم حقًّا كيف استطاع التسلل إلى هناك!».

ـ «أهو تحت المراقبة؟»

ـ «بالطبع!».

ـ «حدثني قليلًا عن الطائرة الجديدة..».

ـ «هي الأضخم من ناحية ثنائية المحرك، تملأ فجوة الحجم ما بين البوينغ ٧٦٧ والـ ٧٤٧، كما أنها أول طائرة ركاب يتم تصميمها رقميًّا بالكامل، وقد تم تجميع الطائرة مسبقًا على الحاسب الآلي، وصممت بنظام الطيران بالسلك مع قمرة قيادة زجاجية..

استخدمت مواد مركبة لدى تصميمها، وبالأخص على أسطح الأجنحة، مما أدى إلى تخفيض وزن الطائرة ككل بـ١١٨٠ كغ، تم أيضًا استخدام الألومنيوم المطور وتصميم الأجنحة لسرعة طيران مثالي يبلغ ٠,٨٣ ماخ، أما زاوية انفراج الجناح للأعلى فمثالية، وذلك لترك فرجة بين المحركات الضخمة والأرض.. يوجد كذلك خيار لطي ٦,٥ م من أطراف الأجنحة أفقيًّا كطائرات القوات البحرية، لكي تستطيع استخدام البوابات في بعض المطارات.. ناهيك عن وسائل الأمن الذكية لكشف القنابل والذخائر وحتى الأسلحة البيضاء، وكذلك الأشخاص الذين

يلجونها دون أن تكون تذاكرهم الرسمية بحوزتهم..».

ـ «طائرة متطورة حقًا! والآن، حدثني عن ضيفكم غير المرحب به مرة أخرى، ذاك الذي نجح في التسلل إلى طائرتكم الثمينة ذات وسائل الأمن الذكية بلا تذكرة رسمية! كيف يبدو؟ وماذا كان يصنع عندما وجدتموه؟!».

استخرج الرجل منديلًا شرع يجفف به عرق مؤخر عنقه، وهو يجيب بلدغ محمر واخز:

ـ «أتت جلبة من مستودع الطائرة عقب نزول الركاب، سمعته مضيفة من المضيفات، فهرعت لطلبنا وقد بدا عليها الذعر، وأتينا مسرعين بدورنا لتبين الأمر..

وجدناه هناك في المستودع! شاب حافي القدمين، يرتدي ثيابًا شديدة القذارة! وقد تمدد دون اكتراث لأضواء مصابيحنا المسلطة على وجهه!».

ـ «وماذا كان يصنع؟!».

ـ «كما أخبرتك، كان يجلس كالنائم لكن بجفنين مفتوحتين، يراقبنا غير آبِهٍ لشيء! سترى بنفسك..».

ـ «هل من شيء آخر؟».

ـ «هنالك.. وإن ترددت بذكره..».

ـ «إياك والتردد بذكر شيء!»

ـ المضيفة، تقسم طيلة الوقت أن ضوءًا أزرق قويًا بزغ قبل ظهور الجلبة وذلك الشخص الغريب!»

رمقه (راجح) بنظرة جانبية سريعة، قبل أن يردف بسحنة خاوية:

ـ «سنقوم باستجوابها بكل الأحوال!»

كانوا يلجون الآن الممر المتصل بالطائرة، وقد وقف في آخره على بابها حارس أمن تابع للمطار، تأهب باحترام لمديره وللسادة المسلحين الذين أتوا برفقته، فولجوا لتطالعهم وجوه حراس الأمن الذين انتشروا هنا وهناك، مما دعا أحد العملاء المرافقين لـ (راجح) بتوجيه أمر مغادرتهم حالًا وانتظار أوامرهم منه خارجًا..

اقتاد مدير الأمن العملاء عبر الطائرة الجديدة والواسعة إلى أسفل حيث يقع مستودعها، فما إن فتحه حتى طولب بالانتظار عند الفتحة الشبيهة بباب يتسع لشخص قصير.. وهبط (راجح) مشعلًا مصباحه ومستلًا مسدسه، فاستل العملاء أسلحتهم ومصابيحهم بدورهم وأحدهم يهمس:

ـ «الرائحة كريهة للغاية!.

عقب (راجح) بعينين لا تطرفان وهو يتقدمهم:

ـ «أشبه برائحة حظائر الماشية!»

ـ «هناك!!»

كذا هتف أحدهم وثقب سلاحه يرافق ضوء مصباحه المسلط إلى جسد مكوم كالجثة في ركن المستودع شبه الضائق، فانضمت بقية فوهات السلاح وخطوط أضواء المصابيح إليه، مما جعل الجميع ينالون رؤية أوضح للغز الغريب الماثل أمامهم!

تساءل (راجح) بهدوء دون أن تتغير سكناته:

ـ «أهو نائم؟».

ـ «لا أعلم.. أعتقد هذا!!».

كذا أجابه زميله الواقف على يمينه، قبل أن يقترب من الجسد المسجى أرضًا، ويشرع في ركله برفق قائلًا بخشونة:

ـ «أفِقْ يا صاح!».

تحرك الجسد الساكن حركة آلية، فاعتدل نصفه العلوي، وظلّ على حاله هناك، حيث نظر للجهة المقابلة دون أن يبدي أي انفعالات تدل على إحساسه بتواجدهم معه!

ـ «انهض يا صاح.. حالًا!».

نهض بذات الطريقة الآلية، فتبعته أضواء المصابيح وفوهات السلاح ببطء..

ـ «ارفع يديك لفوق!»

رفعهما ببطء، في حين لم يتزحزح ضوء كشاف (راجح) عن تقاسيم وجه الشاب المتسلل الملوثة بالسخام والشحوم والعرق..

لم يتبين شيئًا من ملامحه، فقد غطتها خصلات مشعثة من شعره الأسود، فلم يظهر منها سوى مقلة عينه اليمنى التي كانت تتلألأ دلالة على أنه لا يزال حيًّا وبإمكانه التحرك.. تمامًا كالبشر!

(٢)

بدا كلوحة زيتية مرسومة بألوان داكنة، وهو جالس على الكرسي داخل حجرة الاستجواب..

ـ «أتراه يتنفس؟!».

كذا تساءل أحد العملاء باستهزاء، فزجره (راجح) بنظرة ارتبك لها الأخير..

في حين قال آخر مواصلًا تقليب بعض الأوراق:

ـ «لا شيء عنه عن طريق البصمات ومقلة العين وشحمة الأذن وملامح الوجه، لا اسم، لا هوية، لا عنوان.. كما لو كان آتيًا من زحل!».

ـ «اجعلهم يبحثون مرة أخرى، لا بد أنهم سيتوصلون إلى شيء!».

أرجح برأسه وهو يخرج، في حين واصل (راجح) تأمل المشتبه به من خلال الواجهة الزجاجية التي لا تسمح للأخير برؤية من يراقبه..

وجد نفسه يفكر في دعابة زميله السمجة بجدية.. أحقًّا يتنفس؟!

لم يرمش ولم يتحرك منذ احتجزوه في تلك الحجرة وأجلسوه على ذلك الكرسي.. في عينيه نظرة ساهمة، كما لو كان يستعيد ذكرياتٍ ما..

ولربما كان نائمًا فحسب بعينين مفتوحتين.. لن يستغرب ما إذا كان ذلك صحيحًا!

- «سأدخل!».

هرش زميله السمج مؤخر عنقه قائلًا بضيق:

- «ما قولك بتنظيفه قليلًا؟ إن رائحته كرائحة..».

- «سأدخل.. الآن!».

وخرج تاركًا إياه يهمهم بسخط:

- «متسلط لعين! أرأيت كيف يرمقنا؟ نظراته بغيضة.. مفعمة بالازدراء الصامت!».

لاحظ نظرات زميله إليه، فدمدم باستهزاء:

- «إنه ليس بعميل رسمي لدى أمن الدولة حتى! ماذا يكون بحق الجحيم؟!».

عاود زميله تصفح الملف مجيبًا:

- «إنه مرسل.. من فوق!».

- «هم دائما من فوق! تمامًا كالعقبان! أهذا كل ما نعلمه بشأنه؟!».

- «إنه (BA)!».

- «وما يكون هذا بحق جهنم؟! نحن نقوم بعملنا الخطر وبجدية تامة،

وهم يرسلون لنا حمقى يحملون شارات (BA) أو (HAL) أو (IBM) كي نشعر بالخطورة لا أكثر!».

* * *

سار (راجح) بضع خطوات قبل بلوغ الباب، ثم توقف لالتقاط أنفاسه بِتَرَوٍّ ولاستجماع بعض الأفكار وترتيبها، ومن ثم فتحه بتُؤَدةٍ ودَلَفَ..

لم يظهر على المشتبه به أدنى شعور بولوج أحدهم الحجرة، أما عن (راجح) فقد تجاهل رائحته الكريهة وهو يوثق ساعديه أمام صدره ويراقبه بصمت..

تبين - إلى جانب لحيته النابتة - قساوة صخرية نوعًا في تقاسيمه الجامدة، بنيانه واهن بعض الشيء، متسخ من قمة رأسه وشعره الطويل قليلًا حتى أخمص قدميه بسواد دهني لزج كما لو كان يعمل في حقل نفطي..

- «هل أنت جائع؟».

لا جواب، لكنه واصل بنبرة اعتيادية:

- «عطشان؟ أتريد بعض القهوة؟».

لم يرد كما توقع، فتنهد قبيل التساؤل:

- «ما اسمك؟».

- ......

- «ألديك أقارب؟».

- ......

- «ماذا كنت تصنع في مستودع الطائرة؟ كيف وصلت إلىٰ هناك أصلًا؟».

- ......

- «عليك بالتحدث في نهاية المطاف وإلا..».

لم ينطق الشاب، إلا أنه تحرك أخيرًا..

لكن ردة فعله بزغت كانفجار قنبلة فرغ عدها التنازلي!

* * *

في الثانية التالية، وثب الشاب كحيوان ضارٍ علىٰ (راجح)..

كانت وثبته أشبه بوثبة قرد ينفذ حيلة بهلوانية ما في سيرك، وثبة حيوانية للغاية لا تخلو من رشاقة وبراعة..

ثم وبخفة منقطعة النظير سلبه مسدسه المدسوس في الجراب، ووجد (راجح) - الحانق - ذراعًا لزجة كريهة الرائحة تطوق جِيدَه بثبات كذراع الأخطبوط، ومن ثم التصقت فوهة سلاحه في تجويف أذنه!

عضَّ نواجذه هامسًا بحشرجة مغتاظة:

- «لا.. تتهورْ».

لم يُعلق مهاجمه.. وانتظر حتىٰ غزا العملاء الحجرة بمسدسات مشهورة، صوبوها اتجاهه وأحدهم يهتف باحتدادٍ عاتٍ:

- «ألق بالسلاح!».

بالطبع لم يفعل، (راجح) يدرك أنهم دائمًا لا يفعلون، كل ما يصنعونه إزاء تهديد مماثل هو التشبث برهينتهم أكثر، كما أفعىٰ «البوا» العاصرة مع ضحيتها اليائسة!

لكنه ليس يائسًا إلىٰ هذا الحد..

قرر تنفيذ حركة دفاعية تلقاها في تدريبات الجودو، فأهوىٰ بكعبه المعدني - الذي لا يرتديه عبثًا - علىٰ قدم خاطفه، ثم..

لكن لحظة.. لقد تلقىٰ الشاب الضربة العنيفة دون أن يصيح ألمًا! كما أنه متحجر الأطراف تمامًا، وشعر (راجح) وهو يحاول جذبه للأمام تمهيدًا لرميه بالحركة الدفاعية المعروفة أنه يحاول زحزحة آلة ضخمة مثبتة أرضًا بالمسامير الفولاذية!

ولاحظ زملاؤه ذلك أيضًا، فلاح توتر علىٰ بعض الوجوه.. في حين واصل ذات العميل هتافه محافظًا علىٰ قناع الصرامة في وجهه ونبرة صوته:

- «قلت: ألق بالسلاح.. حالًا!».

أخيرًا، أظهر الشاب انفعالًا جديدًا مذ ألقي القبض عليه، إذ كشر، فلاحت أسنانه بيضاء متناقضة مع مظهره الخارجي النتن، وسال لعابه علىٰ ياقة (راجح) الذي لم يحبب ذلك كثيرًا!

- «تنبه! القميص لا زال جديدًا!».

أطلق الشاب قهقهة قصيرة، فبدا كمستحوذ من قبل العفاريت، وارتبك العملاء لذلك، في حين همس (راجح) بسحنة مكفهرة مخاطبًا زملاءه:

- «أرىٰ أن تتركونا حالًا، فبإمكاننا إيجاد حل ما لهذا الموقف!».

هتف أحدهم مستنكرًا:

ـ «مستحيل!».

ـ «بل هو أمر في غاية اليسر! نفذوا الأوامر حالًا! لا تتلكئوا!».

لاح تردد في ملامح الجميع، لكنهم نفذوا في نهاية المطاف، فغادروا الغرفة دون أن يخفض أحدهم سلاحه، حتى أغلق الباب مجددًا..

لم يكترث (راجح) للموقف الدقيق ـ بالأحرى المأزق ـ الذي وضع نفسه فيه مع هذا المعتوه النتن..

لم يُبدِ اكتراثًا وهو يخرج من جيبه علبة سجائر لوح بها أمام بصر مختطفه.. متسائلًا:

ـ سيجارة؟!

ـ لا!!

ـ أحسبها آخر سيجارة ستتمكن من الحصول عليها، فلا تفوت الفرصة يا صاح!

لكن الشاب عاود الضغط بطريقة مباغتة على عنق (راجح)، ما دفعه إلى إفلات العلبة لتسقط أرضًا، لكنه نجح في انتزاع سيجارة أثناء ذلك!

قال بنبرة مختنقة مستخرجًا قدّاحته من جيبه:

ـ «بإمكانك إمساكي هكذا طيلة اليوم، لكنني لن أظل واقفًا بهذه الطريقة مشتمًّا رائحة عفنك حتى تتخذ قرارك بصدد خطوتك التالية!».

وأشعل سيجارته، في حين أخذ الشاب يهمهم وبسمة غريبة تروح وتجيء على شفتيه.. كان معتوهًا بالكامل، ولم يكن ذلك ليقلق (راجح)!

نفث دخان سيجارته حتى ارتخت ذراع الشاب حول عنقه بعض الشيء، فقال بشيء من الظَّفَر:

ـ «أنت مخبول حقيقي! لا أعلم ماهية خطتك بالضبط لكنني أؤكد لك أنها فاشلة، لقد اخترت أسوأ رهينة، فأنا لا أنتمي لعملاء أمن الدولة بصورة رسمية.. صحيح أنني عميل، لكنني من نوع خاص للغاية، عميل يتمتع بمدارك متسعة!».

قهقه الشاب مجددًا بنبرة تبدت مريرة، في حين أردف (راجح) الذي نفث مزيدًا من الدخان متمتمًا بلهجةٍ أجاد دسَّ نبرة الصدق فيها:

ـ «شعرتُ باستنكارك! لا تقلق بشأن الميكروفون والكاميرا بالمناسبة، فهما متوقفان عن العمل بأوامر مني، كما أنني أعتمد على ذراعك في إخفاء فمي، كي لا يتمكن أولئك الذين يراقبوننا عبر الواجهة الزجاجية من قراءة ما تتفوه به شفتاي! لكن إذا أردت مزيدًا من الطمأنينة فبإمكاننا الاستدارة صوب الجدار، وبذلك..».

[illegible] ذلك بأسلوبه المباغت المستفز، فما إن اصطدم بصره [illegible] من بين أسنانه بطريقة متقطعة:

ـ «كما عهدتك.. تمكر كالشيطان مستخدمًا الاستراتيجيات، حسب قواعد الكتاب طبعًا.. أيها المنحوس!».

شعر (راجح) برعدة تسري عبر جذور عنقه..

ـ «ماذا.. قلت؟!».

اشتم رائحة العرق المتصبب من بدن الشاب، وسمعه يهمس مجددًا:

ـ «أخمِّن كذلك أنك لا زلت تائهًا.. فلم تجد ـ لليوم ـ سبيلك

للإيمان الحقيقي.. بشيء.. أي شيء!».

ـ «بِمَ تَهرِف بحق الـ...».

ـ «اصمت! اصمت وأنصت.. أنصت فحسب! بم تؤمن بالضبط؟ ها؟».

ـ «بمَ أؤمن؟!».

ـ «لا تحاول.. لا تحاول تشغيل الآلة!».

ـ «ماذا؟!».

ـ لا تحاول تشغيل الآلة! لا تحاول تشغيلها!».

ـ «عن أي..».

ـ «وإذا حصل وحاولت فالعبارة الصحيحة هي...».

قاطعه (راجح) بقوله ذي النبرة الباردة:

ـ «لستَ أبلهَ تمامًا كما يبدو مظهرك! تمكنك من بلوغ تلك الطائرة رغم سورها الأمني المحكم يدل على ذلك..».

ـ «قلت أصغ إليّ جيدا!».

ـ «أنا مصغٍ لكل حرف تنطق به يا صديقي.. تأكد من ذلك!».

ـ «لا.. لستَ كذلك، ولن تكونه!».

كان لضغط الشاب على عنق (راجح) عظيم الأثر في بصقه سيجارته كالطلقة، وسمعه يهمس في أذنه متوعدًا:

ـ «لِمَ أضيع وقتي معك؟ ها؟ يبدو وأنك لن تحاول الإصغاء،

سيؤسفني قتلك كثيرًا لإعجابي الشديد بك، لكنني مضطر..».

ـ «ماذا تعني؟!».

ـ «سامحني.. فهذا لصالح عالمك!».

وأعقب قوله بالضغط على زناد المسدس!

* * *

كلِك.. كلِك.. كلِك!

التفت (راجح) إلى الشاب مكشِّرًا، ورفع قبضته هاتفًا بغضب:

ـ «أيها الـ..!!».

ثم أطلقها في وجه الشاب، ففوجئ بالأخير يلويها له، ثم يحاول تطويق عنقه بذراعه مجددًا وكأنما يسعى هذه المرة إلى تحطيمها..

لكن (راجح) تمكن من الإفلات منه هذه المرة.. في ذات اللحظة التي اقتحم بها عدد من العملاء الغرفة، وباشروا كمحترفين يتقنون التصرف السريع في المواقف العصيبة بإطلاق وابل من النيران..

سقط الشاب كالصريع، فتناول (راجح) سلاحه ليتفحصه بدهشة وحيرة لم ينجح في إزالتها تمامًا عن سحنته، قبيل إعادته إلى جرابه مهمومًا وهو يلتفت صوب جثة الشاب..

كان يفكر متلاحق الأنفاس، ولاحظ كذلك أن الشاب اللعين لا زال يتنفس هو الآخر رغم تحول بدنه لغربال!

دنا منه وراقبه، فوجده يراقبه بالمثل وبخواء تامّ، قبيل توجهه ببصره بعيدًا عنه ليرمق زاوية الحجرة كالمتأمل، ومن ثم أسلم الروح أخيرًا..

لم يملك (راجح) إلا التمني بأن يعلم.. بمَ كان اللعين يفكر في لحظاته الأخيرة تلك؟!

(٣)

كالعادة.. المكتبة العامة فقيرة من الزبائن..

إنه المكان الذي يقضي فيه (راجح) ثلاثة أرباع وقته، يطالع ويطالع حتى يكلّ بصره، وما يطالعه حاليًا يبعد كل البعد عن الأدب برواياته وقصصه وأشعاره التي يعتبرها أحيانًا محض هُراء!

يطالع كتبًا في العلوم الباردة، عن الفيزياء النووية وحروب التيارات الكهرومغناطيسية، عن التنويم المغناطيسي والتمدد البالستي ونظريات (ستيفن هوكينغ) عن الانفجار الكوني الكبير، عن (داروين) وأصل الجنس البشري وأصل الحياة وكيفية وأسباب ظهورها على سطح الأرض، لديه تركيز شبه دائم على كتب الطب، خصوصًا تلكم المتحدثة عن الأمراض الوراثية المتعددة التي تسبب خللًا في الجسم وبخاصة أمراض الدم..

أحيانًا نادرة يطالع لبعض الروائيين الروس أمثال (غوغول) و(ديستويفسكي) و(غوركي) رغم مَقته للأدب بصورة عامة، وذلك حين يكون رائق المزاج..

إذا أراد أبحاثًا سجلها إما عن طريق حاسوبه المحمول الذي يحمله معه مرات، أو هاتفه النقال الذي لا يفارق جيبه..

(راجح) كان عميلًا مطلعًا ومن نوع خاص للغاية، لا يتبع هيئة كالمخابرات أو أمن الدولة، فهو ينتمي لشعبة شديدة السرية أقرب إلى المرتزقة، ثمة فرد واحد فحسب في كل قيادة عليا في العالم على علم واطلاع بمهام وظيفته، لذا لا تجد شعبتهم ذات ميزانية متجددة برخاء كل سنة..

حين لا يكون العمل ملحًا يعود للمكتبة، إما كأمين لها أو كباحث مخطوطات نادرة لمن يسعى باحثًا عنها، وتكون مثل تلك المهام أقل مخاطرة، مثلما حدث حين تمكن من استعادة النسخة الأصلية لمخطوطة لينينغراد، أقدم مخطوطة للعهد القديم، حيث تؤرخ لعام ١٠٠٨ للميلاد، أي بعد ألف عام تقريبًا على كتابة مخطوطات البحر الميت، وقد دونت بالاعتماد على النص الماسوري للعهد القديم..

ينفذ مثل تلك المهام شبه السلمية باعتيادية وأريحية، ويظل كذلك حتى يدق ناقوس الخطر مجددًا، فيستعيد سلاحه وهويته السرية كعميل بلقب خاص اكتسبه، تمامًا كأبطال القصص المصورة الذين يجاهدون لإنقاذ العالم! ودائمًا ما تكون المهام الموكلة إليه بشأن أشباه العلوم، وما يتعلق بها من تجارب حقيقية تجرى أو كتبًا ومخطوطات تطالع، قد يبدو ذلك مضحكًا لولا عقبة بسيطة.. إن تلك النظريات والكتب والمخطوطات جدية للغاية لمن يتقن استخدام فحواها!

* * *

كالمعتاد، ولج (راجح) المكتبة العامة حاملًا كتابًا، وقد كان هذه المرة: «الإنسيكلوبيديا» لـ (ديدرو)..

أمين المكتبة الذي يتناوب معه كان كهلًا مصابًا بالبهاق، بريق عينيه لا زال فتيًا كأثر ثمين، يضع نظارات طبية سميكة وهو يطالع بتركيز كتابًا سميكًا غلافه عبارة عن صورة للدماغ مطلقًا شرارات كالكهرباء..

ـ «تطور العلم كعادته المبهرة.. أتعلم أنهم يستخدمون في ولاية «كولومبوس» الأمريكية مِسبرًا ينبعث منه صوت لكشف مصادر أي إشعاع؟ ومن ثم يحقنون أجسامًا مضادة مصنفة إشعاعيًا؟ فتنطلق تلك باحثة عن مادة تفرزها أورام القولون، وخلال الجراحة يمرر المسبر البادي كقلم على محط القولون، منبهًا بالصوت لدى مروره فوق الأجسام المضادة المشعة الملتصقة بالمادة التي أفرزتها خلايا الأورام؟».

دنا (راجح) من مكتبه، وبلا تعليق ناوله الكتاب الذي بحوزته، كان مؤيدًا لرأي الرجل ـ ومن الأعماق ـ بخصوص تطور العلم الدائم، إلا أن وجود كتاب جديد على سطح مكتبه أشعره بالكآبة وعدم الخوض معه فيما يطالعه..

أقفل الكهل الأمهق الكتاب الذي كان يطالعه على صفحة حددها ببطاقة مكتبة بلاستيكية غير مستعملة، ثم تناول من (راجح) كتابه كي يرجعه إلى مكانه في الرف الذي خلفه مباشرة، ويمكن تبين الفجوة التي خلفها ذلك الكتاب كما لو كان فمًا ينقص سِنًا قبل أن يعود لينبت مجددًا..

سمعه (راجح) يقول بترفق:

ـ «أكاد أجزم بأنك تقرأ هذه الكتب التي نستخدمها في إجراء شِفرات العمليات!».

فلم يردّ..

كانت الكتب التي يأخذها ويرجعها عبارة عن شفرات لطبيعة مهامه..

فحين يدلف المكتبة العامة، يتوجس من طبيعة المهمة القادمة طيلة الوقت، ولكي يعلم ما إذا ثمة مهمة بانتظاره عليه بالدنو من أمين المكتبة الأمهق..

إذا وجد خلفه على الرف فجوة لكتاب مسحوب وينتظره على الطاولة فمعنى هذا أن مهمة جديدة كذلك بانتظاره..

يأخذ الكتاب دون إبداء تبرمه، ويرحل لتنفيذ المهمة، فإذا ما تكللت بالنجاح عاد ليعيد الكتاب إلى أمين المكتبة، الذي يعيده بدوره للفراغ في الرف..

أثناء ذلك، قد ينتظره كتاب جديد على الطاولة أثناء إعادة كتاب المهمة القديم، وذلك أكثر ما يكرهه، لكنه يبقي ذلك بداخله كمحترف ملتقطًا الكتاب الجديد لبدء المهمة الجديدة.. وهكذا دوالَيْك!

لقد قرأ كل الكتب التي أخذها إعلانًا لبدء مهامه، دائمًا ما يجد كتبًا علمية أو فلسفية في انتظاره، قد كان ذلك بمطلب خاص منه.. بإمكانه تذكر كل كتاب، وبالترتيب، والمهمة التي ارتحل للتحقيق بها يوم أخذه..

أمين المكتبة الأمهق يعاود التساؤل ببسمة باهتة:

- «ألا تفعل؟»

- «أفعل ماذا؟»

- «تقرأ تلك الكتب..»

- «ربما!»

كذا أجاب (راجح) وبصره لا يفارق الكتاب الموضوع على منصة أمين المكتبة.. كان «نقد العقل الخالص» للفيلسوف الشهير (عمانويل كانط)، قد طالعه سابقًا، ويبدو وأنه سيطالعه مجددًا..

التقط الكتاب مهمومًا، وفتحه ليجد بأول صفحة تذكرة سفر إلى..

- «كرواتيا؟ ما هذا النفي؟!»

أراح أمين المكتبة خدّه على راحة يده قائلًا بابتسامة متكلفة:

- «إلى قرية «سميلجان».. ستكون رحلة سياحية لا بأس بها! هل تعلم أنها مسقط رأس المخترع العبقري..».

قاطعه (راجح) ببسمة مماثلة:

- «(تيسلا)؟ أعلم هذا طبعًا! الشيء الوحيد المُحمّس في تلك القرية حتمًا..».

- «إلى جانب الغجر! سمعت أنهم يمارسون السحر الأسود، وبأن نساءهم يمتلكن جمالًا خاصًا ساحرًا بدوره!».

- «المهم ألا يكون أسودَ بدوره! سنرى.. ما طبيعة المصيبة الجديدة بالضبط؟!».

- «ستجد التفاصيل بين صفحات الكتاب كالمعتاد، أمين مكتبة «سميلجان» سيتكفل بكل احتياجاتك..

والآن اذهب لكي تتهيأ للسفر!».

(٤)

لم تكن رحلة (راجح) إلى كرواتيا ـ دُرَّة البحر «الأدرياتيكي» ـ مريحة..

هو بالأساس لم يكن مرتاحًا للقيام برحلة إلى أرض لا فكرة لديه تمامًا عمّا يدور بها، لديه معلوماته العامة المستقاة من الكتب، لكنه زار العديد من الأقطار، مثل روسيا وأمريكا وإيطاليا وألمانيا والبيرو وكوريا واليابان، أما كرواتيا فقد شعر أنها عالم آخر يختلف تمام الاختلاف!

لربما يتعلق الأمر بجرائم ينظمها عقل شديد التعقيد، بسلاح بيولوجي، اختراع قد يغير وجه العالم، أو سر الطاقة النووية أو الهيدروجينية، أو اكتشاف أثري خطير!

درة الأدرياتيكي الباردة.. لا بأس بالبرد، فهو يروق له نوعًا..

ما يعرفه عن كرواتيا أن لغتهم تستخدم اللاتينية متمازجة مع السلافية، وتلك مشكلة، فهو يكره السفر لبقعة لا يعرف كيفية التحدث بلغة أهلها، لكنه يعتمد على الإيطالية التي يتحدث بها الكروات الـ٥٪ في المناطق الحدودية! غالبيتهم من الكاثوليك، والنسبة الأقل من الأرثوذكس، أما

المسلمون فيمثلون نسبة ١,٨٪.

بالنسبة له، لم تكن الأديان يومًا تمثل مشكلة..

* * *

في حوالي التاسعة صباحًا كانت سيارته قد بلغت قرية «سميلجان»..

المكان هادئ وجميل، عليه أن يقر بذلك..

لكنه لم يتمكن من درء الخاطرة التالية عن باله.. هنالك غمامة عاصفة مريعة تسري في السماء!

ولكن، وبعد أخذ فكرة عامة عن طبيعة المكان، شعر أنه لو تقاعد يومًا فلسوف يعيش هنا، وسيكون ـ حتمًا ـ سعيدًا بذلك!

الخضرة، الهدوء، منزل المخترع العبقري (نيكولا تيسلا) الذي ولد فيه!

وبدأ شعور التوجس السوداوي بداخله يتبدد ببطء أخيرًا..

كان قد زار سابقًا متحف كرونسكا في يوغوسلافيا، مقصده دائمًا وأبدًا، في فيلا بُنيت عام ١٩٢٧ من تصميم المهندس المعماري الصربي (دراغيسا براسوفان)، واستخدمت الفيلا عقب البناء حتى الخامس من كانون الأول عام ١٩٥٢، عندما صدر قرار بإحداث متحف (تيسلا) من قبل الجمهورية الفيدرالية ليوغوسلافيا..

مواد المتحف وصلت إلى بلغراد بناءً على قرار المحكمة الأمريكية التي أقرّت بأن (سافا كوسانوفيك) ـ ابن أخت (تيسلا) ـ هو الوريث الشرعي الوحيد لما تركه خاله، وقد جاءت هذه التوصية في وصية (تيسلا) الأخيرة،

فقام (كوسانوفيك) بنقل كافة المستندات وأغراض خاله الشخصية من أمريكا إلى بلغراد في عام ١٩٤٩، حيث أكثر من ١٦٠٠٠٠ مستند أصلي، وأكثر من ٢٠٠٠ كتاب ودفاتر ملحوظات يومية، وأكثر من ١٢٠٠ جهاز تقني معروض، وأكثر من ١٥٠٠ صورة فوتوغرافية للأدوات والعناصر التقنية، بالإضافة إلى أكثر من ١٠٠٠ مخطط ورسم..

إذن، هنالك الخضرة والهدوء، ومنزل (تيسلا) الذي تحول لمتحف جدير بالزيارة حتمًا.. ثم المكتبة التي لن تتواجد في قرية كهذه إلا لسبب هو يعرفه جيدًا ويتعلق بطبيعة مهامه العجيبة!

عن طريق قراءة سرية ومعينة لبعض أسطر الكتاب الذي اصطحبه معه لـ(كانط) أدرك أنه لن يكون وحيدًا في مهمته تلك، ثمة اثنان آخران سيلحقان به، وقد أحنقه ذلك، فقد كان دومًا من النوع الذي يفضل العمل وحيدًا.. المعلومات عن طبيعة المهمة ذاتها مواربة في كعب الكتاب..

عميلان إذن! أحمقان دون أدنى شك! حكم متسرع؟ ولِمَ لا؟ ماذا ستكون صنائعهما مقارنة بما صنعه وتعرض له من أهوال طيلة التصاقه بهذه الوظيفة الشنيعة؟

وصلت سيارته في الميعاد المحدد، فركنها بعيدًا عن المكتبة، ثم ترجل منها مصطحبًا كتاب (كانط) وكذلك جريدة محلية..

سار حتى ولج المكتبة، ولم يلفت انتباهه الجرس الضئيل والظريف المعلق فوق الباب، بل مدى نظافة وترتيب المكتبة نفسها..

دنا من منصة أمين المكتبة الشبيه بآينشتاين، وناوله كتاب (كانط) دون أن ينطق بحرف، فتناول الرجل الكتاب معيدًا إياه إلى مكانه في الرف

الخلفي، حيث الفجوة بانتظاره.. لدى انتهاء المهمة سيستعيد (راجح) الكتاب كي يرجعه لمكتبة الكهل الأمهق..

لم تَفُتْه ملاحظة تواجد فجوة ثانية تبعد عن فجوته بثلاثة كتب، ومن ثم فجوة ثالثة تبعد عن الثانية بكتابين!

خلع بدلته وأراحها على أحد المقاعد دَرءًا للتجعد، ثم اتخذ مقعدًا له وفتح الجريدة..

كان يشعر بسأم حقيقي من الكتب هذه المرة، وقد وجد في تلك اللحظة جريدته مسلية أكثر رغم مشكلة اللغة التي يحاول مغالبتها.. فيما بعد، قد يقوم بتصفح بعض كتب هذه المكتبة المترجمة للغات يعرفها، لكن ضغطًا رهيبًا أشعره بالنفور منها حاليًّا..

أراد معرفة طبيعة المهمة، والتعرف بشريكيه، والانتهاء من هذا كله والخروج.. لن يرحل قبل عروجه على متحف المخترع العبقري (تيسلا)، ثم سيبدأ البحث عن أنسب مكان لحلم تقاعده..

- «قهوة؟»

كذا تساءل أمين المكتبة بود، فأرجح (راجح) برأسه علامة الإيجاب، شعر أنه يتوق للكافيين في تلك اللحظة كتوق المدمن إلى مخدره..

صَبَّ له الرجل في فنجان بعض القهوة الجاهزة من مطارة بلاستيكية، فتناولها (راجح) شاكرًا قبل أن...

انفتح الباب بطريقة عنيفة ومباغتة، لم يحفل أي من (راجح) أو أمين المكتبة، بل تعلقت أبصارهما بالوافد الجديد والوسيم كنجوم السينما أو الغناء، والذي لوح بكتاب بيده وهو يشهق قائلًا بلهجة

عجولة وبلا توقف لمدة لا بأس بها:

ـ «وأخيرًا! هل تصدقا هذا الطقس المجمد للدماء في العروق؟! أين كل ذلك الحديث الوردي عن بهجة العيش في درة الأدرياتيكي المرشحة للانضمام وبقوة إلى الاتحاد الأوروبي بالمباركة العامة؟ والأسوأ لغة هؤلاء القوم! استوقفت أحدهم للدردشة متعمدًا أن أبدو كسائح تائهٍ، فنطق جُملًا خيل لي أنها لاستدعاء زمرة من الأرواح الشريرة! مُزارع الشمندر العجوز الوغد ذاك! لو رأيتها فقط نظراته السوداء الجاحظة، كما لو كنتُ أسأله عن ابنته الفلاحة المنمشة حلابة الأبقار، التي يتظاهر بإحكام طوقه عليها وهي تنسل من ورائه للقاء (غوسيب) أو (بيتار) كل ليلة!».

دلف بمعطف المطر الكحلي الذي ارتداه، ومرر أصابعه على شعره الطويل مندفعا حتى التصق بدنه بالمنصة، فقدم كتابه لأمين المكتبة وهو يرمق (راجح) بنظرة مرحة غامزًا له بجفنه الأيسر، في حين تلاعب ثغره بقشة على طريقة رعاة البقر!

لم يتنبه (راجح) لذلك الاستعراض، كان مركزًا على عنوان الكتاب الذي استرجعه أمين المكتبة، وهو: «الثرثار»، لـ(لوي رينيه دي فوريه)!

ـ «فعلًا الكتاب ظاهر من عنوانه!».

كذا همس (راجح) لنفسه متهكمًا، فحدَّجه الوافد الجديد بنظرة محملقة قبل أن تتسع بسمته وهو يرد:

ـ «فهمت قصدك يا صاح! ألا تظن ذلك قاسيًا؟»

كما هو متوقع من زميل محترف، فإما أن سمعه قوي أو أنه ضليع بمطالعة الشفاه!

لكن وقت التعارف لم يَحِنْ بعد.. القواعد هي القواعد، ولن يحدث شيء لحين مجيء العميل الثالث والأخير..

❋ ❋ ❋

لم يُبدِ العميل الثاني إلمامًا بقواعد اللعب..

بالأحرى بدا مستهينًا بها.. فقد سار بين أرفف الكتب متفقدًا إياها وهو يسأل أمين مكتبة «سميلجان» بلهجة متأففة:

ـ «هل لديكم بطل من هذا الزمان» لـ(ميخائيل ليرمنتوف)؟»

ـ «لدينا يا صديقي!»

ـ «ماذا عن ترجمات لـ(أوسكار وايلد)؟»

ـ «لدينا.. ولكن ليس لكل ما كتبه..».

ـ «عليكم إذن.. إنه رائع! هل قرأت (أهمية أن تكون آرنست)؟»

ـ «ليس بعد يا صديقي!»

ـ «عليك بقراءته وقراءة كل ما سطره قلمه، (وايلد) هو من قال إن الطبيعة تقلد الفنان! ماذا عن أعمال كرواتية؟ على قدر علمي لم تخرج كرواتيا كتابًا بشهرة (تولستوي) مثلًا..».

ـ «لديهم (ميروسلاف كرليزا) و(ماركو ماروليتش)!»

ـ «لكنهما ليسا بشهرة الأدباء الطاغية.. مجرد سماع الأسماء الكرواتية التي من المفترض أن تكون أشهر من نار على علم موحٍ لي بالبؤس التام، بؤس التعاسة الدنيوية التقليدي، لا الأدبية المخلدة!».

طيلة الوقت يثرثر عن روايات، وبهذا أدرك (راجح) تخصص زميل المهنة ذاك بالضبط!

عاود مطالعة الجريدة بسأم، وحافظ على مقدار الرشفات الضئيلة من فنجان قهوته لحين..

صوت جرس الباب.. أخيرا!

ـ «هذا الكتاب رائع يا..»

صوت أنثوي.. لم يكن العميل الثالث.. بل زبونة عادية ذات عوينات طبية وشعر أصهب معقوص بيكلة وردية!

تبدت متفاجئة لوجوده.. أما أمين المكتبة فقد هش وجهه وبش، وبحرارة تبدو معتادة رحب بها، فدنت من مكتبه مظهرة عدم الارتياح على سحنتها!

ثم تنبهت للمتطفل الآخر! عند رف القسم الأدبي تحديدًا، فسمع (راجح) همسها لأمين المكتبة:

ـ «أرى أن لديك زبائن اليوم على غير العادة!».

قهقه الرجل مجيبًا:

ـ «يبدو وأنكِ فأل خير يا فتاة! كيف كان الكتاب؟»

ناولته إياه، ثم تمتمت مجيبة:

ـ «جيد!».

ـ «فقط؟ حسبت أنه سينفخ عقلك بما يحوي من طرائف!».

لاحظ (راجح) أنها تراقبه بفضول، وقد أزعجه ذلك بشدة، فحجب وجهه بالجريدة..

سمع أمين المكتبة يسألها:

ـ «ماذا عن كتاب لتطوير الذات؟»

ـ «أنت تمازحني يا (حمزاتوف).. أليس كذلك؟»

ضحك الرجل، في حين رمى (راجح) بنظرة متفقدة من جانب الصحيفة، فوجد الفتاة تراقب العميل الآخر بذات الفضول!

ثم عاودت النظر إلى أمين المكتبة بقلق، كان ذلك عندما..

رن رن رن!

نظر (راجح) بلهفة صوب الباب قبيل تنفسه الصعداء..

أخيرًا وصل العميل الثالث حاملًا كتابه..

ارتدى فانلة بيضاء فوقها سترة سوداء ذات غطاء أرخاه فوق رأسه.. مظهر لا يليق بمحترف على الإطلاق!

أمين المكتبة يسأل الفتاة بلطف بغية التخلص منها سريعًا:

ـ «إذن يا صغيرتي الغالية.. هل ستختارين شيئًا اليوم؟»

ـ «على ذوقك (حمزاتوف).. على ذوقك!».

والعميل الثالث يراقبها بصمت..

ازدردت لعابها بقلق عندما..

ـ «هذه رواية جيدة.. أنصحكِ بمطالعتها!»

كتمت جزعها لما باغتها العميل الثاني ملوحًا بكتاب في يده، وقد كانت رواية «مدام بوفاري» لـ(غوستاف فلوبير)!

وتلاعب ثغره بتلك القشة المستفزة وهو يسترسل بالحديث كأنما يحاضر:

ـ «هل تعلمين أن الحكومة في ذلك الوقت قمعت هذه الرواية وألقت القبض على مؤلفها مع اثنين من ناشريه؟ لقد اتهمه النقاد بالبذاءة، وبأن الرواية إهانة شنيعة للمرأة الفرنسية!»

تدخل (حمزاتوف) ـ في تلك اللحظة ـ وهو يمد يده بكتاب لزبونته قائلًا للفتى:

ـ «دع الشابة وشأنها!»

فتراجع العميل مؤرجحًا يده في لامبالاة، وهو يغمز للفتاة المضطربة غمزة ماكرة مبعدًا خصلة شعره المتدلية عن عينه اليسرى!

العميل الثالث لا زال يراقب الفتاة بصمته المثير للرهبة، مما دعاها لأخذ ـ بالأحرى خطف ـ الكتاب من يد أمين المكتبة وهرعت خارجًا!

دنا العميل الثالث من المنصة، وناول أمين المكتبة آخر الكتب، وقد التقط (راجح) عنوانه مذ ولج هذا الزميل من باب المكتبة:

«ثاليا» ـ أناشيد آريوس»

أخيرًا.. حان وقت البدء!

الفصل الثالث

المهمة

(٥)

لحق العملاء الثلاثة بأمين مكتبة «سميلجان» الذي كان يسير بخطوات سلحفائية، وانتظروا قيامه بفتح باب خلفي في نزله الداخلي داخل المكتبة بمفتاح عتيق وصدئ، ليظهر أمامهم قبو تؤدي درجاته الحجرية لأسفل..

همس العميل الثاني متهكمًا:

ـ «هنا؟»

ـ «أثمة اعتراض؟»

ـ «حسبتك ستجذب كتابًا من كعبه العلوي كي تدور خزانة على محورها كاشفة عن ممر سري!»

ـ «أنت تقرأ العديد من قصص المغامرات المصورة يا بني!»

كان يتحدث متقدمًا إياهم لأسفل، فلحقوا به بصمت هذه المرة..

لم يكن المكان متسخًا تتسرب المياه من أنابيبه لحسن الحظ.. وفي

قلب القبو وجدوا المكان على قدر غير سيئ من التنظيم، إذ ثمة صناديق متراصة مشكلة طوابق متوازية، وشاشة عرض مترية، ومجموعة من رزم الجرائد الموثقة..

وفي منتصف القاعة كرسي معدني تشبث بالأرض بمسامير فولاذية، عليه، جلس شخص ضخم مقيد ومغطى الرأس بكيس خيشي!

ملابسه بالية، قميص ذو زرقة باهتة وسروال رياضي، كان حافي القدمين، لا توجد آثار تعذيب عليه، لكنه بدا ساكنًا كأنما فارقته روحه!

همس العميل الثاني مُصفرًا:

ـ «أقدر طوله اللعين بـ ٢,٠٣ مترا! أهو على هذه الحال منذ ثلاثة أيام؟»

ـ «يأكل ويشرب في ذات الموضع، وأنظفه بإسفنجة مبلولة كمريض المستشفيات..»

ـ «أرجو ألا يغضب منا!».

تساءل (راجح):

ـ «والتقرحات؟ لا بد أن..»

ـ «أترى ذلك الخطاف المتدلي فوقه؟ بواسطته أرفعه يوميًّا عدة مرات كي لا يصيبه شيء من التقرح أو التسلخ، وبالنسبة لقضاء الحاجة ذات المسألة، باستخدام الخطاف وسطل أضعه أسفله..».

تمتم العميل الثاني باستهزاء مشمئز:

ـ «جميييل!».

سعل أمين المكتبة قليلًا، ثم خلع نظاراته لتنظيفها بمنديله مُرْدِفًا:

ـ «أفترض أنكم تحملون الأسماء الرمزية ووجهتكم القادمة يا سادة؟».

ردَّ (راجح) هذه المرة:

ـ «أجل.. هل أسلحتنا مُعدّة؟»

ـ «حتمًا.. أرجو أن تتبعوني..».

أخذهم إلى حيث تقبع خزانة معدنية، فتحها ليظهر داخلها خزنة عملاقة ذات شاشة مرقّمة، ضغط الأرقام بسرعة مذهلة متناقضة مع سنه، كأنه محاسب محنَّك!

ومن الداخل فرَدَ درجًا سريًّا يعمل ببصمة إصبعه البنصر، ما إن يمسه بتلك البصمة حتى يخرج عارضًا ثلاثة مسدسات بخزائن طلقاتها وعلب الرصاص..

التقط (راجح) سلاحه الممدد على قالب يناسب احتواءه، مسدسه الروسي العملي نصف الآلي «ماكاروفا»، شرع بتفحص رصاصاته الـ١٢ ملقيًا بنظرة سريعة على السلاح الذي سحبه العميل الثاني من الحاوية..

كان سلاحًا براقًا أمريكي الصنع، «براونينغ» طوله ١٩٧ ملم ووزنه فارغًا ٧٤٠ جم كما طالع عنه، يبدو خارجًا لتوِّه من أحدث أفلام العنف السينمائية الهوليوودية، وقد بدا الفتى فخورًا به جدًّا وهو يلقمه خزان الطلقات العشر التي يحتويها، ثم وجهه صوب الشخص المقيد على الكرسي صائحًا:

ـ «أجل! هل تعلمون أنه بوسع مستخدم هذا السلاح الفاتن وضع حركة الزناد المزدوجة التقليدية وكذلك حركة الزناد المزدوجة اليدوية؟

مع سلاح كهذا أنت لا تقهر!».

ثم أفلتت منه ضحكة متهكمة حين لاحظ أن العميل الثالث قد التقط السلاح المتبقي، «ويبلي» ٤٥٥ ملم عادي طويل الفوهة كان مستخدمًا إبان الحرب العالمية الأولى والثانية، صِنفه بريطاني من نوع خزان الطلقات الدوار ذات الرصاص الصلب غير المغلف، ويحوي ثماني طلقات فحسب!

* * *

في غرفة موصدة وعلى طاولة خشبية ضخمة وضع الثلاثة أسلحتهم..

بدا الجو رطبًا بعض الشيء مما أرغم (راجح) على خلع معطفه، فحذا العميل الثاني حذوه، في حين اكتفى الثالث برفع الغطاء عن رأسه..

تأملهما (راجح) مَلِيًّا، قبل أن يرفع ساعته «الأوميغا» إلى بصره قائلًا ومتأملًا عقربيها:

ـ «لدينا نصف ساعة فحسب لمراجعة معلوماتنا قبيل الانطلاق.. لذا سأبدأ بعملية تعريف الأسماء الرمزية، بإمكانكما مناداتي بـ(علام)..».

رفع العميل الثاني يده كما لو كان جالسًا في مدرسة ابتدائية، كان متخذًا وضعية على كرسيه بالمقلوب، وقد ارتكز على المسند بكلتا ذراعيه.. وقال باسمًا مؤديًا تحية الكشافة:

ـ «(بديع).. كنتُ لأختار اسم (وسيم)، لكن..».

قاطعه (راجح) ـ الذي بات الآن يدعى بـ(علام) ـ موجهًا حديثه للعميل الثالث:

ـ «ماذا عنك أنت؟»

كان جالسًا باعتيادية، وبنبرة هادئة ذات وقار أجاب:

ـ «(راهب)!».

ـ «جميل.. عمومًا سعدتُ بمعرفتكما!».

بدا (بديع) مستاءً من أسلوب (علام) معه، إذ دمدم مقطب الجبين:

ـ «يبدو ذلك واضحا!».

ثم إنه أخرج علبة سجائره، في حين واصل (علام) حديثه وهو يوثق ساعديه:

ـ «أجزم أن النقاط المتعلقة بالمهمة قد وصلتكما بحذافيرها، للأسف لا نملك الكثير من المعلومات المساندة، لذا، سيتحتم علينا الخروج من هنا بما نستند عليه من تلك المعلومات مع قدر كبير من المجازفة..»

أشعل (بديع) سيجارة معقبًا:

ـ «مهمة أقرب للغز، لستُ أفهم سبب حاجتهم لثلاثة منا بصددها، ألهذه الدرجة يشكل هذا السيد خطورة؟».

ـ «هي مهمتنا حتى ولو كانت أحجية للأطفال.. السيد المقيد يدعى (إيجوفا ستويكوفيتش)، منحناه حرفا رمزيًّا هو Z لن نخاطبه إلا من خلاله، القيادة العليا تطالبنا بانتزاع اسم معين منه، وعقب الحصول على ذلك الاسم سيتحتم علينا قتله ودفنه في هذه الأرجاء، ومن ثم الرحيل..».

نفث (بديع) دخان السيجارة مهمهمًا:

ـ «لنناقش ذلك..»

- «بكل تأكيد..»

- «ما الاسم الذي ترغب القيادة العليا معرفته بالضبط؟ لاحظ أنها لم تحدد ما إذا كان اسما حركيًّا آخر، اسم مكان، اسم منظمة، اسم رجل أو امرأة، خطة أو كتاب أو مخطوطة أو عقار، أو حتى اسم حيوان أو طير أو حشرة لعينة ما!».

- «للأسف لا نمتلك مثل تلك المعلومات، هنالك اسم واحد فقط بخلاف اسم (إيجوفا ستويكوفيتش) المزعوم، وعلينا البقاء في الملجأ حتى نتمكن من تحصيله..

أعلم أن ذلك يعد طورًا من الغرابة، ولكن لا تنسيا أن مثل تلك المهام الغريبة والمزعجة تسند لأمثالنا فحسب، نقوم بها بصمت وبمعطيات شحيحة من مختلف الوكالات والأجهزة التي تشرف عليها القيادة العليا، لذا، علينا الخروج بأفضل النتائج الممكنة..»

- «لنراجع تلك المعطيات مجددًا..»

- «حسنٌ، لدينا المعلومة الأولى والمؤكدة: الاسم هو أي اسم فيما عدا (إيجوفا ستويكوفيتش)..».

- «طبيعي..».

- «المعلومة الثانية هي أن الاسم منفرد، لا يتبعه اسم ثانٍ أو ثالث.. اسم واحد فقط هو ما يتوجب علينا تحصيله..

أما المعلومة الثالثة والأخيرة، فهي أن الاسم نابع من جوهر Z، أي أنه يتعارض مع الاسم (إيجوفا ستويكوفيتش) لكنه وُجد من جوهره، لربما من تمازج الأحرف لإعطاء النغمة الصحيحة لإيقاع الاسم المطلوب..

علينا بالاعتماد على وسائلنا لاستخراج الاسم بعملية خارجية محدودة ذات إيقاع منظم، بالاستجواب وبالتعذيب على حد السواء، بذلك، الظفر بفعل صادر عن إرادة Z حين ينطق به، ومن أجل خلاصنا من هذه المهمة علينا بالتيقن من نبرة الصدق حين ينطق بالاسم المطلوب لدى القيادة العليا!

بما أن Z بشر، فهو يستطيع أن يوصلنا إلى الاسم المنشود!

هل من استفسارات أخرى؟»

رفع (بديع) إبهامه لفوق، أما (راهب) فظل على صمته المطبق..

- «إذن.. ستكون وجهتنا الآن إلى الملجأ برفقة Z، وسننتظر هناك ربما تصلنا أوامر جديدة، وإلى أن يتم ذلك سيكون علينا محاولة التوصل لشيء بخصوص الاسم..»

عقب (بديع) على ذلك بقوله:

- «قمتُ بدراسة الملجأ جيدًا، فلا تقلق..»

لكن (علام) أردف بإصرار وببصر محتدّ قليلًا على زميله:

- «على الورق فحسب! سيتحتم علينا - على أرض الواقع - تفقد مخزون الطعام والشراب ونوبات الحراسة لدى وصولنا، فلم يتم تحديد فترة مكوثنا هناك لغاية الآن، علينا أن نستعد حتى ولو كانت المدة سنة كاملة!

السيارة مجهزة للسير على الثلوج وبخزان وقود ممتلئ عن آخره في مرآب المكتبة، سأتكفل أنا بالقيادة، وسيجلس (بديع) إلى جواري، أما (راهب) فبصحبة Z في الخلف.. هل من أسئلة؟»

(بديع) يرفع يده مجددًا وهو يقول بجذل هزلي:

ـ «لِمَ لا تدعني أقود؟ بمهارتي وسرعتي سنكون هناك قبل جدولنا الزمني بمراحل! إنهم يلقبونني بالرصاصة! نسبة لفيلم (ستيف ماكوين) الشهير.. هل شاهده أحدكما؟».

وكالعادة، تم تجاهله كديدنه كلما حاول التفكه!

(٦)

السيارة ذات الدفع الرباعي منطلقة بلا مشاكل في دروب المنطقة الجبلية التابعة لـ «ليكا»، في طريقها للالتحام بحدود «سميلجان» الخارجية..

العملاء الثلاثة يجلسون حسب الترتيب المتفق عليه سلفًا، برفقة ضيفهم المقيد مغطى الرأس في المقعد الخلفي، وقد جالسه (راهب) ساكنًا وذراعه ممتدة خلفه على طول المقعد كما لو كان يجالس رفيقًا قديمًا..

(علام) يقود كالطيار الآلي، إلى جواره جلس (بديع) فاتحًا نافذته عن آخرها كي يشعل سيجارته رغم الرذاذ الثلجي، مُصفرًا لحن أغنية ما بعقيرة هامسة نوعًا..

يرفع علبة السجائر في وجه (علام) الممتعض:

ـ «لا أحبذ تكرار المعلومات المعلومة لأي طفل، لكن هذه الأشياء تقتل ببطء!».

كذا دمدم معترضًا رغم أنه يضع في جيبه دائمًا علبة سجائر وقداحة،

كان يستخدمها عادة أثناء استجواب أحدهم، حيث يعرض عليه سيجارة ويتظاهر أحيانًا بتدخينها معه كي يظفر بالمعلومات التي يبتغيها.. تلك الطريقة كادت تدفعه لممارسة عادة التدخين الحقيقية!

لاحظ أن زميل العمل هذا ـ إلى جانب تدخينه الشَّرِه ـ من نوع يطلي أظافره بلون أسود، مع بعض الأوشمة المرسومة على أظهر أصابعه كنجمة أو هلال، كما لو كان مطرب «هيفي ميتال»!

يلتفت (بديع) صوب (راهب)، لكن الأخير يرفض الدعوة بإشارة من يده، فيهز (بديع) كتفه مواصلًا الدندنة وهو ينفث الدخان جهة نافذته المفتوحة..

يصمت فجأة، ثم يهتف مخاطبًا إياهما:

ـ «أيستطيع أحدكما التحدث بالكرواتية؟»

لا يجيبان، لكنه يواصل على أية حال:

ـ «سمعت أنها لغة أصعب مما يجب، وقد حاولتُ مرارًا تعلمها دون جدوى! أنا أتحدث ثلاث لغات بطلاقة، لكن..»

ـ «ليست بتلك الصعوبة!»

كذا يرد (علام)، وقد نطقها كأنما يحاول إسكاته.. لكنه لا يفعل، بل يحدِّجه بنظرة إعجاب متسائلًا:

ـ «تتحدثها إذن؟»

ـ «لا، لكن لدي فكرة عامة عنها، هي لغة سلافية جنوبية، قد تكون المشكلة في بعض الأحرف اللاتينية المستخدمة..»

ـ «لغة سحر إذن!»

يرميه (علام) بنظرة جانبية متهكمة دون أن يرد..

يلتفت (بديع) ليواجه (راهب) متسائلًا:

ـ «ماذا عنك؟ أتحسن تحدثها كذلك؟»

يؤرجح العميل رأسه يمنة ويسرة أن لا، فيهز (بديع) كتفه من جديد معاودًا الجلوس كما كان، ومستعيدًا دندنته الهامسة..

لكنه يعاود النطق عقب نصف دقيقة فحسب، قائلًا ـ وإبهامه مسدد باتجاه المنظر الخارجي ـ :

ـ «فاتنة حقًّا كرواتيا، الظاهر أن الأخ (إيفو) يقوم بعمله على نحو لا بأس به مطلقًا!»

همهم (علام) بنفاد صبر:

ـ «الأخ (إيفو)؟!»

ـ «أجل! الرئيس الكرواتي! ألا تعرفه؟!»

ـ «أعرف جيدًا من يكون (إيفو يغوسيبوفيتش)!»

ـ «جميل.. لِمَ أنت مستغرب إذن؟»

لا يرد (علام)، بل ينقر بشيء من عصبية مقود السيارة بأنامله، وينظر خارجًا وهو يهمس بنبرة متضايقة:

ـ «الثلج يتسرب لداخل السيارة!»

ثم طلب من (بديع) الانتهاء سريعًا من سيجارته كي يغلق النافذة،

ببصر متسمر على الطريق الذي سيدخلهم بعد قليل في قلب الغابة متعانقة الأشجار..

* * *

لم تخذلهم السيارة المُعدة جيدًا للطرقات الثلجية، فقد أوصلتهم إلى درب الملجأ أخيرًا لدى بدء رحلة غروب الشمس..

ترجل الجميع كي يتأملوا مأواهم الجديد لمدة غير معلومة، فوجدوه مخالفًا لأنظمة الملاجئ المعتادة من ناحية التصميم..

قال (علام) دون النظر لأحدهما:

- «ليس مُحصَّنًا من قنابل الطائرات أو قذائف المدفعية طبعًا! لكن زجاج نوافذه مضادّ للرصاص، كما أنه مضادّ للهجمات الكيميائية.. بالطبع لا إشارات لاسلكية من أي نوع، لذا سنكون بمفردنا وبمعزل عن العالم بأسره حتى تقرر القيادة العليا مراسلتنا بوسيط بشري إذا ما طرأ شيء، إذ لا وجود لعنوان بريدي كذلك!»

دمدم (بديع) بخيبة أمل وبصره متشبث بالملجأ:

- «يبدو لي ككوخ صيد عادي لولا أنه بطابقين.. هل هذه مزحة لعينة؟»

- «ألم تقل أنك قمت بدراسته جيدا؟»

- «أعني من الداخل، مع الإيجابيات الخارجية طبعًا.. لم أشاهد صورًا حتى!»

- «أمر بالغ الطرافة! كفّ عن التذمر إذن، وهيا بنا للداخل، فالطقس قارس، وعلينا بتفقد التموين من طعام ووقود، قد نلبث هنا لأسابيع..»

- «وربما لأشهر!».

أثناء الجدال، درس (علام) الموقع الاستراتيجي شاعرًا ببعض الارتياح، فالملجأ متوارٍ بين الأشجار الشاهقة ببراعة، وقد لاحظ سطحه المصمم كصخرة عملاقة ثلجية مدببة.. يتكون من طابقين، وهو ما لم يرتح له، فقد يحدث هجوم من فوق، وهو ليس من الخشب كما يبدو للعيان، لكن تصميمه الخارجي يوحي بذلك، لكنه ما إن دنا وتلمسه حتى اكتشف أنه مبنيّ من مادة خرسانية عازلة للحرارة..

ويبدو أن (بديع) قد اكتشف ذلك بدوره، إذ هتف مصفرًا:

- «تمويه عبقري! أظننا في أمان يا شباب.. نوعًا!»

لكن (علام) لم يرتح على الفور، بل قام بدورة حول الملجأ للتأكد من إحكام سواره الأمني، فاكتشف أن تداخل الأشجار - خصوصًا في الخلف - يعيق تقدم فرقة من الجنود المغاوير، الطريق الوحيدة هي الأمامية، وهي مكثفة بالثلج ومثلمة بصخور جليدية، بعض تلك الأثلام كان ضئيلًا وبعضها الآخر هائل الحجم، ولولا إطارات السيارة ذات الدفع الرباعي والمجهزة بالجنازير لما تمكنوا من خرق تلكم الكثافة الثلجية للوصول..

شعر ببعض الارتياح، ليس الارتياح كله طبعًا، فلا يزال عليه تفقد الملجأ من الداخل..

(٧)

لم يكن (علام) من النوع المجامل بتاتًا..

لذا، لم يكن يقصد أن يجامل لما خاطب (راهب) بقوله وهو يمسح طرف شفته السفلى بمنشفة متبسمًا ابتسامة راضية:

ـ «أهنئك على هذه الوجبة الطيبة..»

في حين، رفع (بديع) إبهامًا متحمسًا لفوق ومؤمِّنًا بجذل:

ـ «إنك لطاهٍ حقيقي يا زميل! أين تعلمت هذه الوصفة؟ كنتُ أشمئز من فكرة تناول لحم الظباء، لكن ما أعددته لا يوصف بكلمات.. ما نوعية توابلك؟!»

اكتفى (راهب) ببسمة صامتة وهو يجهز صينية صغيرة، من الواضح أنها طعام الأسير..

الوجبة التي جهزها لهم بدت فاتحة للشهية للغاية، كأنها مقدمة في مطعم راقٍ، لحم ظباء تم تتبيله وتحميره مع قليل من الزيت النباتي والنعناع والفلفل الأحمر مع نصف حبة أوفوكادو، وقد قدم إلى جواره

عرانيس الذرة وأرغفة صغيرة من خبز مصنوع من الذرة كذلك، أما الشراب المقدم إلى جانب الوجبة فعبارة عن شاي مثلج..

المطبخ عبارة عن حانوت بقالة مصغر، مخزونه من أطعمة المعلبات والشاي والقهوة يكفي أشهرا عديدة، وفي جوف الثلاجة تم تصنيف اللحوم الحمراء والبيضاء، وعزلها عن بعض، وحفظها في أكياس بلاستيكية ضاغطة بترتيب مريح للعين وللاستخدام الفوري..

كانوا يجلسون على مائدة طعام لا يمكن وصفها بالفاخرة، لكنها جيدة جدًا ذات قابلية.. المكان نفسه متوسط المساحة نظام تدفئته كهربائي، مؤثث وكأنها شقة لعازب ممتاز الدخل ومهتمٌّ بالتفاصيل.. حيث عُلقت ساعة حائط تبدو أثرية، كذلك نسخة متوسطة من لوحة «غويرنيكا» الشهيرة لـ(بابلو بيكاسو)، التي تحيي ذكرى قصف الطائرات الألمانية والإيطالية لبلدة في منطقة «الباسك» خلال الحرب الأهلية الإسبانية، فتصور ما شعر به الناس والحيوانات من هلع أثناء قضاء أسلحة الدمار الحديثة عليهم، وقد توقف أمامها (بديع) مطولًا كي يفسر لزميليه كيف أنها وصف لهواجس ما قبل الهجمات الضارية على السكان المدنيين التعساء!

من المشغل الموسيقي «غراموفون» الذي وجده (بديع)، ومن الأسطوانة التي انتقاها، تصاعدت عقيرة الراحل (جوني كاش) المشروخة، فلا تعلم السبب، أهو قِدَمُ الأسطوانة أم قِدَمُ الصوت الرخيم ذاته:

الوحش بداخلي..

محبوسٌ بقضبان ضعيفة وهشة..

مضطربٌ نهارًا..

أمّا ليلًا فمهتاج غاضب صوب النجوم..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

الوحش بداخلي..

كان لا بد أن يتعلم التعايش مع الألم..

وكيف يلتجئ من المطر..

ويلمح البصر..

يجب أن يحاصر..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

بدا (راهب) ساهمًا في كلمات أو لحن الأغنية، كأنما يسترجع ذكرى معينة بخصوصها، أو أنه يتأمل في معانيها فحسب..

فلم يُفق من شروده العميق إلا لدى قول (بديع) الممازح:

- «يا للسخرية! كأننا رفقاء صيد أو شيء من هذا القبيل!»

رمقه (علام) بنظرة تنافس برودة الجو خارجًا، في حين استرسل (بديع) مشعلًا سيجارته بقداحته فاخرة الشكل:

- «جوٌّ لا يوحي بأن لدينا أسيرًا في إحدى غرف الملجأ، أتفهم ما أعنيه؟!».

سلط (علام) بصره على نقطة معينة، رسغ (بديع) تحديدًا.. كان هذا قبل أن يسأله بنبرة هادئة:

- «أأنت يهودي؟».

- «ماذا؟!».

- «السؤال بسيط وواضح: هل أنت يهودي؟»

- «لا! أي نوع من الأسئلة هذا؟».

- «النوع الذي يتحتم عليّ سؤالك إياه حين أراك تربط معصمك الأيسر بخيط أحمر على طريقة معتنقي «الكابالاه» من المتصوفين اليهود، بل وتربطه حول وشم لنجمة «داوود» مباشرة!».

- «هذه؟!».

وشمر (بديع) عن الخيط بدهشة، ثم ضحك قائلًا:

- «إنها مجرد زينة يا رجل! تيمنًا بـ(دافيد بيكهام) و(مادونا) و(بريتني سبيرز).. وحتى الوشم زينة لا أكثر!».

- «إذن فهو تقليد أعمى لا أكثر!».

- «بالضبط! زينة أنيقة فحسب!».

- «يقال إنه مذهب يفترض وجود معنى خفي لكل كلمة وحتى الحرف في التلمود..».

- «أحقًّا؟ لم أكن أعلم ذلك! شيء مثير للاهتمام.. لكنني لا آبهُ حقًّا، أتود معرفة السبب؟».

ورفع كمه لفوق متبسمًا وهو يغمز لهما، فتبدئ لأعينهما صليب «سواستيكا» النازي، فوق نجمة «داوود» مباشرة!

ـ «ماذا عن المسيحية؟ أأنت كاثوليكي أم بروتستانتي أم ماذا؟»

كان وشم الصليب المدقوق أسفل الخيط الأحمر جليًا للأعين، فضحك (بديع) ضحكة عالية قائلًا بجذل:

ـ «ولا هذا!».

تابع (راهب) الحديث ببصر نصف مهتم، لكنه لم يحاول المشاركة به، في حين تنحنح (بديع) قائلًا وهو يمرر إبهامه علىٰ وشم الصليب ببطء:

ـ «مجرد زينة أيضًا! شكل الصليب يروقني جدًّا، خصوصًا حين يكون المسيح مُسمَّرًا عليه!»

ـ «ألا ترىٰ أنك تبالغ في مسألة التزين بالرموز الدينية؟»

ـ «علىٰ الإطلاق!»

ـ «ما ديانتك إذن؟»

ـ «وهل أنت من أولئك الذين يتحسسون من أمثالي؟ ممن يجدون الدين شيئًا جانبيًّا أو كمالية من كماليات الحياة التي..».

ـ «لا تقلق، فلم أسأل نفسي يومًا أسئلة أراها سخيفة، علىٰ غرار من خالق الخالق، فإذا كان الخالق متواجدًا فلن يخضعه مخلوق لقوانينه الخاصة..

تسألني ما إذا كنتُ ممن يتحسسون؟ كنتُ يومًا متشبثًا بالتصوف، ثم انتابتني أفكار لم تستسغ متعلقة بالطبيعة البشرية والسلوك الإنساني،

وهي أن الفرد يمكن أن يصبح أكثر قربًا من الله إذا ما ارتكب عامدًا متعمدًا المعاصي المتعلقة بشهواته، الخطيئة بقصد التطهر، فالشرط أن يتوب عقب ارتكابها توبة نصوحًا! ذلك بالطبع قبل التقصي والبحث بأمانة والمطالعة وكثرة السؤال!».

هنا استرعىٰ حديثه اهتمامهما التامّ ـ (بديع) و(راهب) ـ ، تجاهلهما مرتشفًا شيئًا من كوب الشاي المثلج أمامه، ثم عاود حديثه بلهجة ملولة:

ـ «بالأحرىٰ، ليس السؤال والبحث هو ما أوصلني لهذه النتيجة، بل أمور سير حياتية، استلزمت ألا أؤمن بوجود إله أساسًا، وإلا غرق عقلي بأوهام أشبه بأحلام اليقظة الجميلة!».

ـ «وما نوعية لجنة تقصي الحقائق التي شكلتها لكي..»

ـ «عدم اعتمادي علىٰ الشهادات الشخصية أو القصص النادرة، فهي من الممكن أن تستخدم في بداية اكتشاف فرضية جديدة خاضعة للاختيار، ولكن لا تستخدم كأدلة علىٰ تلك الفرضية..».

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «أعني بأن أولئك ممن يقدمون النظريات الدينية التي تتعارض مع النظريات العلمية المقبولة يتجنبون إخضاع أفكارهم لوجهات النظر الأخرىٰ، يتهربون من وجهة النظر المقابلة قبل نشر النتائج، وبهذا يفتقدون إلىٰ ردود الفعل التصحيحية..».

ـ «تتحدث كما لو كانت مكابرة من نوع ما..».

«هي كذلك فعلًا! إذ يتهمون بالتجديف أصحاب المعرفة العلمية، أولئك الذين يفترض أغلبهم حول أصل الكون، والحياة وكيفية وأسباب

ظهورها على الأرض عن طريق الإنتاج الذاتي للأرض نفسها، من تفاعل مكوناتها التي أنتجت التركيبة العضوية الحية الأولى، ووفرت لها عوامل النمو والتطور.. تمامًا كما ذكرت نظرية (داروين)!

بل ويحاولون القضاء على حوافز الأفراد أو شخصياتهم التي تدفعهم للتساؤل المنطقي عن تلك الادعاءات.. إنه الميل البشرى نحو التصديق بدلًا من الدحض والتفنيد أو النقد المنطقي، والميل نحو اعتناق معتقدات مريحة ونحو التعميم السخيف، على غرار أولئك الذين لا زالوا إلى يومنا هذا يؤمنون بأن (ألفيس بريسلي) الذي توفي عام ١٩٧٧ لا يزال على قيد الحياة!».

تنهد (راهب) بصورة أدهشت (علام) نفسه ودفعته للالتفات إليه، في حين هرش (بديع) ذقنه هامسًا بابتسامة ماكرة:

ـ «وبتلك الطرائق أدركتَ ألا وجود لإله؟ وبأن الكون قد خلق من تلقاء نفسه؟ فكرة مثيرة للجنون!».

ـ «فإذا لم يكن إله اليهود أو المسيح أو الإسلام، من يكون إلهك إذن؟ (بوذا)؟!».

ـ «هذا!».

وكشف عن صدره باسمًا بزهو وهو ينقر على منتصفه..

أبصرا وشمًا كستنائيًا صغيرًا لشبل ضئيل، خيل لـ(علام) أنه رآه قبلًا..

حاول التذكر إلى أن ظفر بنتيجة، فقطب جبينه قائلًا:

ـ «هذا شكل (سيمبا)! الذي رسمه قرد البابون العجوز ذاك على

جذع شجرة.. في فيلم (ديزني) الكارتوني!

هذا هو إلهك؟ (سيمبا)؟!».

ـ «ليس بالضبط، بل هو (موفاسا)!».

ـ «الأب؟!».

ـ «أجل (موفاسا) الأب!».

ـ «و(سيمبا) الابن.. من الروح القدس إذن.. (تيمون)؟ (بومبة)؟!».

ـ «لم أقل ذلك، لكن ديانتي هي دائرة الحياة، وإلهي هو الأسد الملك الأب، مملكته في السماء كما مملكته على الأرض.. لِمَ تجد ذلك عصيًا على الفهم؟!».

تأمله (راهب) بنظرة بلا معنى، في حين قهقه (علام) قائلًا بدهشة:

ـ «لأصدقك القول.. ما تهرف به أجده حماقة لا حدود لها!».

ـ «ذات فكرتي عن كل ملحد، فهو الحمق بأم عينه! الملحد في نظري عبارة عن مقامر خاسر.. لا إله ولا حياة أخرى عقب الممات، فكرة حمقاء ومثيرة للجنون بحق..».

ـ «على الأقل حماقتي استقيتها من إكثار الأسئلة وبحث مُجهد في الكتب ومحاورة رجال الدين وحتى الفن، والتعمق في شتى النظريات العلمية، ومطالعة آراء أناس من أمثال (آرثر ميللر) و(نعوم تشومسكي) و(جون ماكارثي) و(دانيال دينيت).. لا من أفلام (والت ديزني)!».

* * *

كان الضيف غير التقليدي يتنفس بوهن النائم..

وضع (راهب) الصينية على منضدة صغيرة الحجم، وأزال الغطاء عن رأس سجينهم، ثم أمعن النظر في سحنته كما لو كان يتفحصه..

مموج الشعر كان، يتمازج ما بين الأسود والرمادي، حتى في الشارب والذقن النامية المتبدية كإبر ضئيلة، وقد غط في نوم عميق أو راح في غيبوبة..

جسده قوي العود، ناهيك عن طوله الفارع.. طبعًا ثيابه بالية وغير نظيفة، ورائحته لا تسرّ، كأنه دبّ مسنّ في بياته الشتوي داخل كهف، وقد نظر (راهب) إلى قدميه العاريتين حيث أظفارهما النابتة، ثم مدَّ أنامله لفتح جفنه الأيمن متفحصًا تأثير التخدير عليه..

بدا ككهل مرهق لا أكثر، لكن (راهب) كان يعلم حقيقة لا يتشاطرها مع زميليه..

هذا الرجل يحمل سرًّا يعد من أخطر الأسرار على الإطلاق..

ولربما كان الشخص الوحيد على الأرض الذي بإمكانه مساعدته!

الفصل الرابع

الزائرة

(٨)

ما لبث الليل أن جَنَّ كما لو كان ستارة داكنة، واستحال عصف الرياح عويلًا إثر العاصفة الثلجية، فبدا الصوت المروع جنائزيًا منبعثًا من جوف كهف غائر..

ـ «إنه تشويش الرياح، تحسبها كيانًا شيطانيًا يحاول العبث برأسك!».

خيم على المكان صمت طويل، أعقبه صوت يبدو كعواء الذئاب، لكنه ليس كذلك، كان كما لو كان أحدًا يقلد ببراعة صوت ذئب!

استخرج ثلاثتهم أسلحتهم في آنٍ واحد، وأعدوها تباعًا وهم يتساءلون بشك عمن يطرق الباب في هذه الساعة المتأخرة وفي هذا الجو العاصف!

الغجرية التي طرقت بابهم تبدت ذات سحنة بدائية حين خرجت من الظلال للنور الواهن، تكاد تبدو من قبيلة متوحشة بملامحها الداكنة ذات العظام البارزة والمتصلبة، ورغم ذلك تبدت جذابة نوعًا بعنقها الأبيض الناصع كبياض الثلج، وبشعرها الأسود الطويل والمنسدل على كتفيها،

وقد أوثقته بشال ناعم عشبي، وتركت بعضه يإسبال على جانبي الوجه، والتفت بسترة ثقيلة من فراء زائف حول قدٍّ ناضج ثري المفاتن لحد الامتلاء، ولفّت قدميها كذلك بخفين جلديين مبطنين، لربما من جلد الأيل..

ارتدت تحت السترة فستانًا فضفاضًا مبهرجًا ذا زركشات، وتزينت بعديد من الحلي المختلفة بشكل كثيف ولافت، وقد علقت على أذنيها حلقات كبيرة من الفضة مكونة بريقًا يضفي على سحنتها الغجرية نكهة جمالية خاصة..

أرادت الدخول، فرفض (علام) على الفور، كاد أن يقفل الباب في وجهها لولا قيام (بديع) باستيقافه وهو يختلس النظر لها..

ـ «دعنا ندخلها، لا ينبغي دفعها للشك!».

ـ «هل جننت؟ نحن لا نعلم ما إذا قام جهاز معادٍ بإرسالها إلينا بقصد التجسس أو التصفية! لدينا هنا مهمة شديدة الخطورة، وأنت ترغب في التمتع برفقة..»

قاطعه بصبر:

ـ «لا أفكر في التمتع بشيء، لكن هؤلاء القوم يمتلكون طبيعة فضولية، وخصوصًا الإناث منهم! فلنتظاهر بالشهامة معها، وإذا كان ما قلت فعلينا بمعرفة ما تعرفه!».

لم يقتنع (علام) بحديث زميله نهائيًا، والغريب حقًّا أنه لمح التأييد في عيني (راهب).. كان متفقًا مع (بديع)، حيث كان يؤرجح رأسه مع كل كلمة يقولها!

كاد يصم أذنيه عنها مستخدمًا صلاحياته القيادية، لكن وسوسته القهرية اشتعلت بغتة..

لم يكن تواجدها مثيرًا للشبهة في هذه الأنحاء، فالغجر يمتهنون الصيد، ولديهم معرفة بطب الأعشاب التي يجمعونها من الغابة.. لكنه ليس كذلك بالنسبة لـ(علام)، الذي لم يملك إلا أن يتفكر في كيفية خروجها وتنقلها في هذا الجو العاصف..

ـ «كيف أتيتِ إلى هذه البقعة؟ مشيًا على الأقدام؟»

ـ «لدي عربة يجرها جواد!».

ـ «عربة بجواد؟ أوليس هذا من الماضي؟ أظنه نفق الآن من شدة البرد..».

ـ «أنت تحلم.. إنه شديد القوة.. والفحولة!».

ثم إنها راقبتهم بنظرات فضولية قبيل همهمتها متقدمة خطوة للأمام:

ـ «أنتم لستم روسًا أو كروات، ولا حتى من بقعة أوروبية..»

لم يردّ أحدهم، ورمقها (علام) بنظرة شك مطولة..

ـ «وماذا تصنعون في هذه البقعة المعزولة عن العالم بأسره؟».

أجابها هذه المرة ببرودة:

ـ «نلعب الورق!».

ـ «جميل! الورق والدفء متعة لا تضاهيها متعة! تبدون من أصول شرق أوسطية.. ثمة صلة قرابة هاهنا بيننا في هذه الحالة، فللغجر أصول

في الأردن وصحاري شبه الجزيرة العربية.. لا بد أنكم سمعتم بحرب البسوس!».

ـ «الغريب أنكِ سمعتِ بها!».

ـ «طبعًا سمعتُ بها! الزير سالم انتقم من بني مرة الذين تنحدر من أصولهم كافة جماعات الغجر، فأمر بتشتيتهم في الأرض، وحكم عليهم ألا يركبوا الخيل وألا يذوقوا طعم الراحة والأمن والاستقرار، فهاموا في صحاري شبه الجزيرة العربية، وفرقتهم السبل في الأنحاء!».

تشاطروا نظرات الدهشة الحقة..

وتبسم (علام) أخيرًا، معقبًا دون أن يظهر إعجابه أو حتى شكوكه:

ـ «أنتِ مثقفة للغاية بالنسبة لغجرية!».

ـ «ومن قال بأننا مجموعة من الجهلة يا سيد؟ ثم إن هذه القصص تسمع ليلًا على نيران المخيم، إنها تجري على ألسنة الجدات دائمًا.. أستدعني واقفة على الباب لحين التجمد الكلي؟!».

أخيرًا، تنحى (علام) جانبًا وهو يرد ببسمة عابسة:

ـ «عمومًا، لحسن حظك أن الزير سالم قد توفي، وإلا لاجتث عنقكِ دونما هوادة إذا علم أنكِ أتيتِ إلى هنا عن طريق جواد.. فحل!».

أسرعت تدلف لاهثة، وتأملت المكان حولها بنظرات سريعة..

ـ «تصيدون؟ أراكم تحملون أسلحة ولو أنها غير مناسبة للصيد..».

كذا تساءلت بعفويتها الريفية الخشنة وإن تبدت ألطف هذه المرة، تنمرت النظرة في مقلتي (علام)، في حين ردَّ عليها (بديع) باسمًا وهو

يدس سلاحه في جرابه غامزًا بعينه اليسرى:

ـ «أجل، ولكن غالبًا نجلس لاحتساء القهوة ولعب الورق وتبادل الذكريات..».

ـ «الذكريات جميلة..»

ـ «ليست الذكريات بمفردها!»

تأمله (علام) مستغربًا، إذ خيل له أن زميل العمل الأرعن والثرثار هذا متحمس لدرجة زائدة عن الحد، كأنه لم يصدق تواجد امرأة معهم في هذه العزلة، ولو كانت من طينة تلك الغجرية المشعوذة قاسية الملامح!

سأل المرأة بشيء من غلظة مزمعًا استجوابها:

ـ «ماذا تصنعين في هذا الجو؟»

ـ «أبيع..»

ـ «ماذا تبيعين؟»

ـ «أشياء..».

ـ «أشياء مثل ماذا يا هذه؟».

تدخل (راهب) أخيرًا لينطق بخشونة مخاطبًا (علام):

ـ «رفقًا بها!».

حدَّجه ـ مع (بديع) ـ بنظرات ملؤها الاستغراب، في حين تبسمت الغجرية مجيبة بهدوء واثق:

ـ «تذكارات وقطع تروق للجميع!».

وفكت الصرة التي كانت بحوزتها، فتناثرت أشياء مبتذلة على غرار مطاوٍ غير ماضية الأنصال، وأساور وخواتم من البلاستيك الملون أو النحاس، وقطع تبدو كأصداف مزخرفة، فهمهم (علام) ممتعضًا وقد هدأ شكه نوعًا:

- «لا نرغب بابتياع شيء!».

- «السيد لم يلق نظرة متمعنة، ستروق لك حتمًا بعض الأشياء!».

- «يبدو وأنكِ صماء!».

- «لا يا سيد.. لستُ كذلك، وليس من الحكمة أن تهين غجرية!».

- «لِمَ؟ ستلقين عليّ بلعنة؟»

- «لربما أفعل!».

كانت تتحدث بتلك اللغة الغريبة ذات المفردات الخاصة التي لا تتعدى المائة مفردة، لكن لكل مفردة أكثر من استعمال.. من ناحية اللغة، فقد تفرقت لغة الغجر بتفرقهم وتأثرهم بألسنة القوميات المتعددة التي عاشوا وسطها..

يقول أحد الغجر: «لن تتعلم لغتنا لأنَّ لكل كلمة مرادفًا آخر نستخدمه، ولن يكون بمقدورك معرفته.. لربما تتعلم هذه الكلمات، لكنك لن تصل إلى معرفة سبل استخدامها، أو استخدام ظلال المعاني التي تحملها في طياتها.. يجب أن تولد غجريًا لسبر أغوارها!».

- «على سيرة الورق؟ ما قولكم بقراءة الطالع؟»

- «لا تغضبي إذا ما قلنا لكِ إنها مجرد خزعبلات..».

- «لا.. لن أغضب حتمًا! اعتبرها كنوع من التسلية، وإذا راقك ما سيقال فادفع من خاطرك ما تراه مناسبًا.. اتفقنا؟».

لم يردّوا، فاعتبرت صمتهم موافقة..

ثم إن الغجرية همست وهي تفض صرتها مخرجة لوحًا فردته على المائدة دون انتظار إجابة من أحدهم:

- «نحن - معشر الغجر - نمتلك إرشادات عن حياة الغلبة على محاربات الشيطان وأجناد الشر.. وأولها، أن نضع ثقتنا في السيد المسيح، لما يكسر قيد أمير قوة الهواء المفعم بالشرور!».

بدا كلوح «الويجا» المستخدم لاستحضار أرواح الموتى ومخاطبتهم، فدفع (بديع) بملحوظة عن ذلك، لكنها تجاهلته مواصلة استخراج الأوراق وعددًا من الشموع:

- «وأن نختار - بنعمة من الرب - التغلب على عاداتنا السيئة، وهذا لا يتضمن إخراج الشياطين! ولكن بتجديد أذهاننا، وبإعطائنا إرشادات عملية عن كيفية طاعة الرب كأولاد أبرار له!».

همس (بديع) متهكمًا:

- «تبدو كموعظة مأخوذة من كتاب ديني لإنقاذ الروح من الضلال!»

- «الكتاب المقدس يذكّرنا بأنه ثمة حرب روحية، بإمكاننا أن نقف ضدها بارتداء درع الإيمان، ليس بالضرورة بإخراج الشياطين، فنحن محصنون بالحق والبر والإنجيل والإيمان والخلاص وكلمة الله والصلاة لدى اكتمال كلمته..»

قال (علام) باستهزاء مراقبًا إياها وهي تعكف على إشعال الشموع أمامها على شكل نصف دائرة:

ـ «لم أعلم أنكِ متدينة!».

«بالطبع لا! أتحدث بصورة عامة فحسب، فنحن الغجر ننقسم حسب الديانات كذلك، جزء منا صار مسلمًا كما في البوسنة والهرسك، بينما الجزء الآخر يتبع مذهب الأرثوذكس في صربيا والجبل الأسود، لكنهم لا زالوا يحافظون على كثير من معتقداتهم السابقة قبل اعتناقهم المسيحية والإسلام.. فمثلًا قبل دفن الغجري الميت لا يتناول الغجر الطعام ولا الشراب، ويقوم ثلاثة منهم بحراسة الفقيد من الأرواح الشريرة، وعادة ما يكون الكفن واسعًا لاحتواء ممتلكات الغجري الميت إلى جانبه، ويقومون بإلباسه أفضل رداء لديه، أما المرأة الغجرية فتدفن معها جميع ممتلكاتها الثمينة، إلا في حال أن يكون لديها بنات من دم غجري خالص، عندها يرثن تلك الممتلكات..

الآن، ما سنقوم به هو العبث بالقواعد الروحانية قليلًا، فالشياطين ذات قوى عظمى بإمكاننا أحيانًا تسييرها لصالحنا، وسندفع أحدها لإمساك روح تائهة عليمة بما سيحدث، وتقديمها لنا للاستجواب!».

واصل (علام) تهكمه:

ـ «يبدو أمرًا خطيرًا ومخيفًا!».

أرجحت بعود الكبريت حتى انطفأت شعلته وهي تهمس:

ـ «وهنا تكمن الإثارة، ثم إنك لا تبدو خائفًا إلى هذا الحد!».

ـ «ربما لأني على يقين من أن شيئًا مما ذكرته لن يحدث، وعموما

المسألة طريفة بحق، إذ ستكون مزيجًا من استحضار الأرواح ومطالعة التاروت.. أليس كذلك؟».

ـ «سنرى!».

(٩)

جلسا قبالة بعضهما ـ (علام) والغجرية ـ، وتشابكت أصابع الأخيرة مع مجموعة من أوراق «فيسكونتي سفورزا» أو «التاروت» فوق لوح «الويجا» المحتمل، فرفعت الغجرية الأوراق ووجهها يواجه سحنة (علام) مباشرة، هامسة بعد أخذ نفس عميق كأنها تترنم:

ـ «اخلطها!.

تناول الأوراق وخلطها مقاومًا النظر لزميليه، إذ خيل له سماع ضحكة مكتومة لم يكن بحاجة إلى تخمين مطلقها من بينهما!

ـ «هاتها..»

رَدَّها للغجرية المشعوذة، فشرعت تتلو كأنها تتوعد:

ـ «*أيتها الروح أينما كنتِ..*

سواء تحت الأرض أو فوق الأرض..

نستأذنكِ قبل يوم العرض..

لتحلي في الجسد الحي..

فاتركي مكانكِ الحالي واظهري لنا..

نأمرك باسم (تيتراغراماتون) الأعظم..

وبأسماء الأرواح التي تحكم الكواكب السبعة:

(أراتورن) لزحل..

(بيتور) للمشتري..

(فالغ) للمريخ..

(أوش) للشمس..

(هاغيث) للزهرة..

(أوفييل) لعطارد..

(فُل) للقمر..

أينما كنتِ.. أقدمي!»

ثم سكنت..

* * *

لاحظ (علام) ـ مستخفًّا ـ عقب ربع ساعة من ترديد الغجرية لذات الترنيمة الرتيبة ألا شيء حدث، لم تخمد الشموع على سبيل المثال إثر رياح اقتحمت النوافذ، ولم تتغير عقيرتها الأنثوية إلى صوت رجل!

عمومًا.. لا يمكن للرياح اقتحام شيء، فالنوافذ محكمة ومضادة

للرصاص، ولربما مضادة للأرواح أيضًا! لذا، قرر منح المرأة فرصتها الكاملة..

كانت الغجرية قد ذكرت كذلك شيئًا في الترنيمة على غرار: *«نستأذنك قبل يوم العرض لتحلي في الجسد الحي..»*، وبصعوبة كتم تساؤله محتفظًا به لنفسه، إذ عن أي جسد حي تتحدث بالضبط؟ هذه ليست جلسة تحضير أرواح، والأوراق ليست أجسادًا حية كي تحل بها الأرواح التي أسرتها الشياطين!

لربما كانت الغجرية تقصد نفسها كوسيط على كل حال، فراقبها بتمعن عجيب وكأنه يبحث عن تلك الروح التي حلت بداخلها!

قامت بتوزيع الورق على طريقة الجواد الخماسية، خمس ورقات مع كل منهم، حيث تضع ورقة أولى تبين وضع الشخص الحالي، ثم ورقة تصور رغباته الحالية، ثم ورقة تنبئ عن أمور غير متوقعة قد تصيبه وهي للتحذير، ثم ورقة عما سيقع في المستقبل القريب، وأخيرًا، ورقة النتيجة النهائية..

تأملت في أوراق (علام) الخمس بداية، ورقته الأولى كانت «الساحر»، والثانية «الإمبراطور»، والثالثة «الإمبراطورة»، والرابعة «الشيطان»، أما الخامسة فكانت الموت!

تفكرت هنيهة، ثم قالت:

«الفظ / الهر الأسود:

تعامله خشن، قليل الثقة بمن حوله ويناقش بعنف وفظاظة غالبًا، وكلماته قد تكون قاسية تصل إلى حد الشتم معظم الأحيان، وهو يرغب

دائمًا أن يشعر بأهميته، ويقاطع دائمًا من يتحدث معه.. ينجح في مهامه رغم «النحس» الذي يلازمه طيلة الوقت!»

ابتسم (بديع) وهو يتمتم كأنما يحادث نفسه:

ـ «عجبًا! لم يفارقكِ الصواب تمامًا فيما ذكرته عنه من صفات!».

طلبت من (بديع) الجلوس محل (علام) الذي نهض صامتًا وقد بدا ممتقع الوجه إلى حد ما، وتكرر مع (بديع) ذات السيناريو، فأتت أوراقه كالتالي:

الورقة الأولى: الأحمق

الورقة الثانية: النجم

الورقة الثالثة: الإغواء

الورقة الرابعة: الرجل المشنوق

الورقة الخامسة والأخيرة: الموت

مررت أظافرها الطويلة على أوراقه قائلة:

«الثرثار/ ذو الألسنة الثلاثة:

عادة، يرغب في التحدث طوال الوقت بمعنى أو بغير معنى، ومن طبيعته المجادلة والنقاش والتحمس، وهو غير منطقي في ردوده.. لسانه الأول «المستدق» أقل حكمة مما يظن، غليظ الذهن، فاسد الرأي، جدير

بفعل الخير وفعل الشر.. يشير لسانه الثاني «العريض» إلى شخص حذر، خبيث، مزهوّ زهوًا مقبولًا.. أما لسانه الثالث «الطويل» فلإنسان ماهر، موهوب، سريع التصديق، فاتن، رقيق الذهن والتصرفات بالنسبة لمن يحسن التعامل معه.. وإذا ما لجلج في كلامه بأحد الألسنة الثلاثة، فله فورات غضب إذا ما انفجرت كانت خطرًا محدقًا يتربص بمن حوله!»

أطلق (بديع) ضحكة استهزاء قائلًا بدهشة:

ـ «ما هذا الهراء يا فتاة؟ أتحسبين كم الإهانات التي أطلقتها منطلية عليّ؟»

ـ «أنا لا أهين يا سيد، أنا أطالع الورق فقط..»

ـ «تبًّا للورق!»

أما (راهب)، فأتت أوراقه كالآتي:

الورقة الأولى: القسيس

الورقة الثانية: السيفان المتقاطعان

الورقة الثالثة: ملكة الأشكال الخماسية

الورقة الرابعة: الشمس

الورقة الخامسة والأخيرة: الموت

«الصامت/ الظل الوحيد: سمته الغموض.. يرفض أن يعلق أو يتحدث إلا نادرًا، ولا تظهر عليه أية انطباعات سواء بالقبول أو الرفض

لا يسمعه، ومن الصعب معرفة ما يجول في ذهنه.. ولا يُعرف عنه سوى إصراره على المضي قدمًا في سبيله، حتى وإن كان مؤدّيًا للموت..».

ثم تأملتهم باسمة وهي تنفخ في الشموع لتطفئها، وشرعت بلملمة الأوراق واللوح قائلة بنبرة ناعسة قليلًا:

ـ «والآن.. أكون شاكرة لو تكرمتم بالدفع!».

* * *

عقب رحيلها، تبادل ثلاثتهم نظرات مفعمة بالتساؤلات..

لم ينطق أحدهم لربع دقيقة كاملة، وفي النهاية لم يحتمل (بديع) أكثر، فصاح:

ـ «كانت ضيفة مثيرة للاهتمام إذا ما أردتم الصدق!».

ـ «فعلًا..».

كذا ردَّ (علام) ساهمًا، فواصل (بديع) ببسمة متراخية وهو يتمطى:

ـ «خسارة أنها رحلت، لربما لو عرضنا عليها مبلغًا معينًا.. خسارة أن نترك فتاة جميلة وواهنة مثلها ترحل بهذا الشكل المخزي وفي هذا الطقس..».

تأمله (علام) وكذلك (راهب) باستغراب مشترك، وغمغم الأول بشيء من توتر:

ـ «عم تتحدث بالضبط؟ أعني قد تكون امرأة جذابة إلى حد ما للبعض، لكنها ليست صغيرة إلى هذا الحد..».

كان ذلك دور (بديع) كي يتأمله باستغراب حقيقي ومن الأعماق، قبل أن يهمس بضحكة عصبية:

ـ «عم تتحدث أنت؟ الغجرية مراهقة تقريبًا، في سن..».

ـ «مراهقة؟ هل أنت أحمق؟ هي في أواخر الأربعينات من عمرها!».

ـ «لقد جننت حقًّا! أقول لك إنها مراهقة ناضجة القد!».

كاد (علام) أن يرد بهيجان، ولكن سرعان ما تنبه لملامح (راهب) الغائرة..

راقبه بتمعن وهو يسأله بحذر:

ـ «ماذا عنك أنت؟ أخبرنا ماذا رأيت بالضبط؟».

ازدرد لعابه بوهن، وبعسر نطق مجيبًا بشرود:

ـ «طفلة غجرية.. لا يتعدىٰ عمرها ثمانية أعوام!».

الفصل الخامس

الأطفال الوحشيون

(١٠)

توقف (علام) عن تنظيف سلاحه رامقًا الساعة الأثرية المعلقة، وقد تعلق بصره برقاصها الرائح والغادي يمنة ويسرة..

شعر بجفنيه يتراخيان إثر متابعته حركة الرقاص المذهب، وكاد يسقط في فخ النوم فعلًا لولا أن دقت الساعة معلنة انتصاف الليل!

انتفض نفضة خفيفة، وتأمل المكان حوله بحيرة، ثم تنهد ملتقطًا سلاحه المفكك، وشرع بإعادة تجميعه متجاهلًا ظهور (بديع) من المطبخ حاملًا قدحًا من القهوة السوداء، والأخير ينفخ في بخار قهوته متسائلًا:

ـ «أترغب أن أحضر لك واحدًا؟».

ـ «لا شكرا..».

ـ «كما تشاء!».

تمدد على أريكة مريحة، وطفق يرتشف من قهوته بصوت مسموع

أزعج (علام)، لكن الأخير لم يحاول الاعتراض..

ـ «يا لها من زائرة!».

واصل (علام) مهمة تجميع السلاح دون أن يعلق، فاسترسل (بديع) باستمتاع:

ـ «أعترف أنها جيدة.. غامضة نوعًا، ولكن لا أسرار هنالك! لا سحر أسود مثلًا، كلنا سنموت في النهاية فلا يمكن استغراب نتائج الورق النهائية، ربما كان عرضًا من تلكم العروض.. ماذا يسمونها؟ فن الوهم؟ الإيحاء؟ التلاعب بـ ...».

ـ «اسمع.. لقد اتفقنا على عدم إثارة هذا الموضوع مجددًا..».

ـ «أعلم هذا.. ولكن.. أعني مسألة أن يراها كل واحد منا مثل..».

ـ «قلتُ كفى!».

ظهر (راهب) أخيرًا، وبإيماءة صامتة نهضا إثرها للحاق به..

لم يكونا بحاجة إلى نطقه، فالمعنى واضح..

لقد أفاق ضيفهم أخيرًا..

* * *

ـ «كيف حالك يا Z؟ عسى أن تكون مرتاحًا في ضيافتنا؟»

حدَّجهم السجين بنظرة ذات خواء، في حين دمدم (بديع) مشيرًا بسبابته في وجه Z كالمسدس:

ـ «دعني أقترح عليك شيئًا.. أعطنا الاسم اللعين ودعنا نرجع

سالمًا لمنازلنا الدافئة بسلام! لابد أن صديقتي السلفادورية قد افتقدتني وبكل الحرارة والشوق الكفيلان بإذابة الثلج المنهمر من حولنا.. إذا كنت تدرك ما أعنيه!».

ـ «عن أي اسم تتحدث؟».

ـ «أم تراها صديقتي الأخرى؟ بريطانية الجنسية؟».

ـ «عن أي اسم تتحدث؟».

ـ «يا رباه!».

تساءل (علام) بهمس ساخر دون النظر لبديع:

ـ «أتقصد (موفاسا)؟».

نظر إليه (بديع) معاتبًا، ثم استدار بوجهه وجسده كله، صائحًا وهو يصفق مرة واحدة قبيل أن يشبك أصابعه ببعضها ويؤرجحها كقبضة متماسكة واحدة:

ـ «يبدو وأننا سنعلق في هذا المكان الجميل مدة أطول!».

تأمل (علام) ضيفهم متسائلًا بهدوء:

ـ «ما رأيك يا Z؟ هل ستدعنا نعلق حقًّا في هذا المكان الجميل مدة أطول؟».

ـ «اسمي هو (إيجوفا ستويكوفيتش)!»

ـ «هذه بداية طيبة يا Z، ولكن.. ليس هذا الاسم الذي نبتغيه!»

ـ «لا أملك غيره..»

ـ «إذن.. يبدو ـ مع الأسف ـ أننا بالفعل سنعلق معًا في هذا المكان الجميل مدة أطول!».

وتأمل المكان حوله مهمومًا، قبل أن يتجه للصوان في الركن ويفتحه.

كان يعلم مسبقًا ما يوجد هناك كونه تفحص المكان، الأداة الوحيدة التي بإمكانهم استخدامها، فالأولوية هي المحافظة على حياة ٪، إلا إذا نجحوا في مهمتهم بانتزاع ذلك الاسم الذي يبتغونه، وعندئذ لا تعود لحياته أية أهمية لديهم!

استخرج الأداة أمام ناظري ٪ متصنعًا التفاجؤ لعثوره عليها بقصد التلاعب النفسي.. قناع منفر الشكل كأنه لسحنة عفريت، بطول أقنعة الزولو تقريبًا، وبقرنين قصيرين وفجوة عين واحدة، ومن الفم خرج قمع طويل كالمزمار لكن نهايته متسعة ومستديرة كالأبواق!

ـ «أترى هذه؟ هي تحفة من تحف أدوات التعذيب التي ساد استخدامها في العصور الوسطى يا ٪!

ـ «أي نوع من الثيوقراطية المتعصبة هذه؟! قلتُ إن اسمي هو (إيجوفا ستويكوفيتش)!».

ـ «يسمونه «قناع بوق الشيطان»، كانوا يُلبسونه عنوة للمتهم المقيد، وعبر القمع الطويل الشبيه ببوق يطعمونه أو يشربونه ما شاءوا رغمًا عنه!».

والتفت (علام) إليه متسائلًا بجدية وبحاجب نصف مرتفع:

ـ «والآن.. ماذا تقترح أن نسقيك من خلاله يا ٪؟»

(١١)

(راهب) يراقب البياض الشاسع الثائر والمتشح بالعتمة الليلية خارجًا عبر النافذة..

كتمثال ثلجي هو الآخر، وقف مسمرًا محاولًا تخيل ما يصيب Z الآن، فالغرفة التي استخدموها كزنزانة له مصممة كي تعزل الصوت، وبكل الأحوال أسلوب البوق الذي يستخدم عبر قمعه الماء لإغراق ضحية الاستجواب لن يسمح له بالصراخ..

طريقة كتومة ونظيفة وأكثر من داهية لإجبار ضيفهم على البوح بمكنوناته، لكنه لن يراقب ولن يحاول التدخل..

تبدت نظرة مريرة في عينيه المنهكتين محاولًا اختراق عتمة العاصفة الثلجية والأشجار المتعانقة في قلب الغابة، كأنها ثنايا قلبه الذي يرضى بكل ما يقع شخصيا!

وحين شعر بالحركة خلفه، اكتفى بتثبيت بصره على الزجاج ليعكس له صورة (بديع) الخارج من غرفة التعذيب، وقد بدا مرهقًا وغارقًا

بالماء ـ أو العرق كلاهما سيان ـ ، جالبًا معه قدح قهوة جديد ليجدد نشاطه..

ـ «الوغد لا ينفك يردد أنه يدعى (إيجوفا ـ الحثالة ـ ستويكوفيتش)!»

قالها مشعلًا سيجارة، ومن ثم شغل الغراموفون على ذات الأسطوانة كأنما يحاول غسل رأسه مما يحدث مع (علام) وضيفهم العنيد!

الوحش بداخلي..

محبوس بقضبان ضعيفة وهشة..

مضطرب نهارًا..

أما ليلًا فمهتاج غاضب صوب النجوم..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

لم ينطق (راهب)، بدا مستغرقا في تأملاته الخاصة وهو يعاود النظر للغابة والثلج الليليان خارجًا..

في حين، لم يتوقف (بديع) عن الثرثرة ـ كديدنه! ـ :

ـ «كانت لي صديقة بريطانية تعمل كمعلمة في مدرسة ثانوية في «لوتون»، وتصر على أنها (مارغريت) رغم أنها تدعى (هنرييتا)! تصور!! تسمَّت على اسم صديقة أخرى لي كنوع من اللعنات الإغريقية التي تحسب أنها تنزلها عليّ.. عقول النسوة تلك! ما أذهل خواءها!»

وارتشف من قهوته مستمتعًا بمذاقها وبحكايته التي يسردها:

ـ «هل سأجن مثلًا وأهزها مثل (كلارك غيبل)؟! ومن ثم أحتضنها

وأقبلها بنهم عاشق متعطش مقلدًا «ذهب مع الريح»؟ ثم أصرخ: لا! لا! أنتِ لستِ (مارغريت)؟ أنتِ حبيبتي (هنرييتا)؟! ما قولكَ في هذا السخف؟!».

استمر (راهب) في تأمله الغارق في الصمت، في حين واصل (بديع) ثرثرته وكأنه يحادث نفسه فحسب:

ـ «ها نحن ذا، سجناء برفقة سجين! هو سجيننا ونحن سجناء هذا المكان المنعزل والمحاط بالعواصف الثلجية والذئاب المتوحشة حتمًا! طريف أنك في يوم تكون على الشاطئ اللازوردي الدفيء، تدهن بالزيت بدنًا ممشوقًا فتانًا لحسناء برونزية من أصول لاتينية، وفي اليوم الذي يليه تجد نفسك عالقًا بين الثلوج والذئاب، وترتجف بردًا ولربما ذعرًا.. من قال إن الحياة خالية من المفاجآت؟».

هنا، تبدى شيء من تحفز في مقلتي (راهب)..

ـ «أطرف ما بالموضوع أن رجالًا يتشاطرون ذات المكان وبهذه الطريقة الطريفة، فلم يكن ينقص سوى أن ننام ثلاثتنا على ذات السرير! لحسن الحظ أنهم لم يصنعوا ذلك بنا، وصحيح أن غرفتي لا تختلف بتاتا عن غرفتك أنت أو غرفة (علام).. أجل! لقد تفقدت غرفتك وغرفته كي أتأكد من عدم حظو أحدنا امتيازات زائدة.. فلا شكر على واجب!».

كانت الحركة بين الأشجار كمسرح للظل، ظلال تتحرك وسط ظلال، الظلال الثابتة للشجر طبعًا، أما المتحركة فلحيوانات! ذئاب ربما كما ذكر (بديع)!

ـ «النشاط الوحيد الذي بإمكاني التفكير به هو تقطيع حطب المدفأة، فالأوغاد لم يدعموا الملجأ بتلفاز، أو أي حاسوب متصل بشبكة الإنترنت،

طبعًا لا مدفأة ذات مدخنة كون نظام التدفئة كهربائي، وبالتالي، لا فائدة من تقطيع الحطب.. اللهم إلا للتمارين العضلية!».

ناهيك عن الإرسال خارج التغطية.. ما يحاول (بديع) قوله أنهم معزولون عن العالم، وأي تواصل بينهم وبين القيادة العليا سيتم عن طريق رسول بشري كما تنص المهمة، لكنه لن يظهر حتمًا في هذا الوقت المتأخر، ولربما لمدة طويلة، فمن يعلم ما إذا كانوا سيتواصلون معهم أساسًا!

- «إنها بروفة للجنون يا زميل! الثلج والظلام والذنوب المثقلة باستخدام وسائل التعذيب غير الإنسانية بعيدًا عن أنظار الجميع.. إنها لمعجزة حقة أن تعرج علينا تلك الغجرية الحسناء.. حسنٌ.. على الأقل في نظري أنا!».

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

هرع (بديع) للغرامافون صائحًا بسخط:

- «رائع! قد علقت الأسطوانة.. آخر ما أرغبه أن نخسر الموسيقى! وبذلك أعلق بين شخص صامت كالقبر وآخر لا يكفّ عن السفسطة! ألم يكن بإمكانهم وضع وحدة استيريو متطورة على الأقل؟ ما هذا البخل؟!».

واستنقذ الأسطوانة.. في ذات اللحظة التي رأى فيها (راهب) يستل مسدسه من غِمْده، وسمع صوته الرخيم - أخيرًا - يقول بنبرة قاسية:

- «نحن في خطر!».

* * *

بسرعة تنم عن احتراف، شهر (بديع) هو الآخر مسدسه..

دنا من النافذة وهو يهمس لاهثًا:

- «كم عددهم؟»

- «عددتُ للآن.. ثلاثة..».

- «ليس بالعدد السيئ! ثمة تكافؤ عادل هنا.. أين؟ أكاد لا أرى شيئًا وسط..».

نقر (راهب) على زجاج النافذة، فضيق (بديع) من فسحة جفنيه محاولًا اختراق العتمة والثلوج المتطايرة، حتى خيل له لمح عددٍ من أزواج العين المضيئة وسط عتمة الأشجار، فقال معتدلًا وهو يضحك بدهشة:

- «ماذا أصابك يا زميل؟ إنها مجرد ذئاب لعينة! لم أتوقعك بهذه السذاجة..».

ولكن في الثانية التالية، أصابت موضع جبهته طلقة..

ارتمى أرضًا وهو يطلق أعتى شهقة، وظل راقدًا مدة نصف دقيقة قبل أن ينهض ببطء وهو يلمح (راهب) الواقف دون أن يطرف له جفن، وقد عاود النقر على موضع إصابة الطلقة على زجاج النافذة..

أدرك ما يريد زميله قوله، الزجاج مضاد للرصاص! كيف نسي ذلك؟

ومطلق الرصاصة ليس بذئب حتمًا.. إذن، ما قصة الأعين المضيئة تمامًا كالضواري ليلًا؟

- «يرتدون مناظير حرارية؟».

- «ربما!».

والأهم أنه كاد يفقد حياته لو أن الزجاج لم يكن مضادًّا للطلقات، إن لديهم قناصًا لا شك في براعته!

- «هل يهاجمون؟ أم يكتفون بإرسال المحاذير النارية؟».

لكن (راهب) كان يعلم أن طلقة اختبارية واحدة تكفي لتبين الوضع، فهم محترفون حتمًا..

- «سأذهب لمناداة صاحبنا الملحد، علّ تفكيره المستقل يوصلنا للحل!».

وهرع (بديع) للغرفة التي يحتفظون فيها بـ Z، في حين واصل (راهب) مراقبة الموقف دون أن يهتز أو يتوتر..

ثم تحفز في وقفته حين بدأت الظلال المعتمة بالانفصال عن الأشجار، ثلاثة أبدان متفاوتة في الحجم والطول..

كانت أعينهم تلتمع بالفعل كأعين الذئاب!

بداية، خمن (راهب) أنهم يرتدون مناظير ليلية من نوع ما بالفعل، لكنه بوغت أنها فقط أعينهم المجردة!

وعندئذ، وقع ما هو أشد غرابة وإرعابًا..

لقد اندفع أحد الثلاثة، وبكل ما أوتي من قوة رمى بنفسه على الباب!

ثم - وكأن هذا لم يكن كافيًا - انطلق الآخر ليتناوب مع زميله في مهمة اقتحام الباب المتعنت، أما الثالث فقد صنع المثل ولكن مع النافذة، تلك التي يحتمي (راهب) خلفها مباشرة!

(١٢)

- «هذا مسلك الذئاب!».

(علام) كان متوجسًا بداية، لكنه سرعان ما هدأ حين لاحظ استحالة اقتحام أبواب ونوافذ ملجئهم الآمن، تلك الحقيقة التي لم يتوصل لها أولئك المهاجمون الثلاثة بعد كما يبدو..

كانوا يتشحون بالسواد التام، من قمم رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، فقد ارتدوا تلك الأقنعة التي لم تكن تبرز سوى أعينهم الملتمعة، ويواصلون مهمة الارتطام بلا كلل كأن أجسادهم مُسيَّرة عن بعد بجهاز تحكم ما، دون أن يطلق أحدهم شتيمة أو أنّة ألم..

أما العملاء الثلاثة بالداخل فقد اكتفوا برفع مسدساتهم تأهبًا، ولكن، بدا كأن ذلك جل ما بإمكانهم فعله، إلى جانب إقفال باب غرفة Z - التي بلا نوافذ - بإحكام!

- «أيرغب أحدكم بالقهوة؟ يبدو وأنها ستكون سهرة طويلة للغاية!».

شعر (علام) بحاجته لها أخيرًا، فطلب قدحًا، في حين ظل (راهب) على صمته ومراقبته لما يدور خارجًا من جنون..

ذهب (بديع) للمطبخ، فاسترخى (علام) على مقعد قريب من النافذة مدمدمًا في غمّ:

- «إنهم على هذه الحال منذ نصف ساعة، ألا يكلّون؟».

ولم ينتظر إجابة بالطبع، فتفقد سلاحه للمرة الخامسة، ثم تنهد بضيق صدر، عندما...

* * *

كان صوت الارتطامات منتظمًا إلى حد ما، لذا، وعندما توقف، هرع (علام) للتأكد، وامتزج شعور بداخله ما بين الدهشة والاسترخاء، حين وجد الأشخاص الثلاثة يتوقفون عما يصنعونه، ومن ثم يتراجعون إلى موقع يواريهم عن الأنظار بين الأشجار!

- «قد يئسوا أخيرًا! أحسبهم سيكتفون بمراقبتنا فحسب في الوقت الحالي.. وحاليًا علينا إخفاء أي مظهر من مظاهر الاستعداد للقتال، وبالذات كم عددنا داخل الملجأ، يجب ألا يكتشفوا ذلك، علينا كذلك أن نتصرف بصورة طبيعية أمامهم، فإذا لم يكونوا على علم دقيق بجبهتنا الداخلية، فتلك الحال من التراخي ستجعلهم يشكون في الأمر ويحاولون التقصي، لذلك عدلوا - مؤقتا - عن مهاجمتنا!».

ظهر (بديع) حاملًا صينية اصطفت عليها ثلاثة أقداح، وحين أطلعه (علام) على مستجدات الأمر بدا متهلل الأسارير كأنه أخبره برحيلهم للأبد!

قال وهو يجلس استعدادًا لشرب مزيد من القهوة كمدمن:

- «هل سبق لأحدكما أن رأى مثل ذلك؟ أعني أن الأوباش حاولوا تهشيم النوافذ والباب دون أن يكترثوا لعظامهم، كان شيئًا خارقًا في رأيي! أتراهم ذهبوا ليرتاحوا ومن ثم..».

قاطعه (علام) وهو يدعك جبينه متناولًا قدحه:

- «تمالك نفسك!».

- «لا تخبرني بأن أتمالك نفسي.. أنا متمالك لنفسي! إنما كنتُ أحاول تزجية انتظار نسمات الصباح بفترة من المناقشة، قد يفيدنا الحديث عن ذلك!».

- «اهدأ!».

- «لا تطالبني بالهدوء كلما طرأ أمر ما غريب! ما قولك بالتحدث قليلًا عن تلك الغجرية اللعينة التي يراها كل واحد منا على هواه؟ أتراها ألقت علينا بلعنة لأننا سخرنا منها؟».

هرش (علام) شعر رأسه بعنف، ثم قال محاولًا التماسك وهو يتنفس بهدوء:

- «المسألة ليست شعوذة، أنت كعميل عليك بالخجل من نفسك، حين تشاهد أشخاصا يتصرفون بهذه الطريقة عليك أن تفكر فورًا كمحترف من شعبة منتخبة من جهاز استخبارات سري هدفها تنفيذ عدد من العمليات الخاصة، كالاغتيال، كالخطف..».

- «إنهم يتصرفون كالحيوانات! كما لو كانوا..».

ـ «لا مشكلة، لعل الجهاز الذي نواجهه توصل لسلاح بيولوجي من نوع ما، أو استخدم طريقة لترويض عدد من الأطفال الوحشيين!».

ـ «وحشيون؟ مثل طرزان؟!».

ـ «أجل.. مثل طرزان! لِمَ أنت مستغرب هكذا؟ تمامًا مثلما وقع مع ذلك المبشِّر النصراني الذي عمل كمشرف على دار لرعاية الأيتام، حين عثر عام ١٩٢٠ في إحدى قرى شمال الهند على طفلتين ترعرعتا مع قطيع من الذئاب!».

ـ «مثل «كتاب الأدغال»، لـ(كيبلينغ)!».

ـ «مثل مثل! جيد أن ذلك المبشر قرر القيام بشيء لأن أهل القرية خافوا من الطفلتين على طريقتك [illegible] كأن يكونا لعنة ألقاها عليهم مشعوذ ما يمارس السحر الأسود!

لقد قام بقتل الذئبة التي يفترض أن تكون أمًّا [illegible]، وصحبهما إلى القرية حيث سمى الكبرى التي تبلغ ٨ سنوات [illegible] والصغرى ذات ١٨ شهرًا (أميلا)..

جل الأوصاف التي كتبها المبشر في مذكراته عنهما تتطابق مع هذا الصنف من الأطفال: *«لا توجد أية سمة بشرية في تصرفاتهما ولا في تفكيرهما، كانتا تقومان بتمزيق أي رداء يتم إلباسه لهما، لم تأكلا إلا اللحم النيء، ولم تكونا قادرتين على الوقوف أو المشي على قدمين، كانت رؤيتهما حادة جدًا في الليل، ولديهما مقدرة مذهلة على شم رائحة اللحم الطازج من مكان بعيد للغاية!»*.

ـ «وهل ذكر شيئًا عن نهايتهما؟»

ـ «قام المبشر بالعناية بهما بشكل جيد، لكن الصغرى ماتت، كانت قبل الموت قد بدأت التكيف مع الصفات البشرية المألوفة، إذ أخذت تقمصها بصورة واعدة، وخصوصًا في محاولة النطق عقب إصدارها الدائم لصوت يشابه عقيرة الطفل في المهد..

وعقب وفاتها، ضاعف المبشر جهده للعناية بشقيقتها الكبرى التي أظهرت حزنًا لفقدانها شقيقتها الصغرى، ثم فقدت رهبتها وخوفها من البشر، فقام المبشر بضمها إلى بقية الأطفال في الملجأ وقت النوم، ثم ابتدأ معها عملية إعادة تأهيل مكثفة، تضمنت تعليمها الوقوف على قدميها واستخدامها للسير، بالإضافة إلى تعليمها الأكل باليدين وقضاء حاجتها في الحمام..

وفي النهاية، حين بلغت من العمر ثمانية أعوام كانت قادرة على النطق ببضع كلمات، لكنها قضت نحبها عام ١٩٢٧ بالتيفوئيد!».

وارتشف (علام) من القدح بتمهل مستمتعًا بلحظات الصمت الطويلة، [illegible] السيطرة على الموقف مما يروق له دائمًا..

[illegible] (بديع) لراهب الذي لم يتخل عن المراقبة لثانية قائلًا له بملامح عابسة:

ـ «ستبرد قهوتك!».

إما أن (راهب) قد تجاهله، أو أنه انشغل بالمراقبة إلى حد شرود ذهنه عما يدور بالداخل.. فتأمله (بديع) هنيهة، ثم قرر أن يدعه وشأنه..

* * *

هنا، توقف (علام) عن احتساء مزيد من القهوة، بدا مندهشًا، وأخذ

يقلب القهوة في فمه كأنما وجد شيئًا داخلها بخلاف السكر والقهوة والماء..

نظر إلى (بديع) الذي كان يرفع القدح كي يشرب منه، وبنبرة محتدة للغاية وقاسية هتف:

- «توقف!».

توقف (بديع) مندهشًا هو الآخر، وقبيل نطقه سأله (علام) وهو ينهض ببطء رامقًا إياه بنظرة قاسية:

- «أنت الذي أعددت هذه القهوة؟»

- «أجل.. أسُكَّرها زائد؟».

- «بل سُمّها هو الزائد!».

(١٣)

تلون وجه (بديع) لحمرة مفترسة وهو يصيح بعصبية:

- «هل تمزح؟ ليس هذا وقت..»

- «قهوتي مشبعة بسم الزرنيخ، لا أدري ماذا عن قهوتك، لكن..».

وضع (بديع) قدحه بعنف صاخب، ثم التفت إلى (علام) وهو يزعق:

- «إذن.. هل ابتدأت فصول التخريف أيها العميل المحنك؟ قدحك مشبع بالزرنيخ؟ حسنٌ.. هو كذلك.. هل تفسر لي سبب بقائك على قيد الحياة رغم أنك شربت منه؟ أأنت معتاد على احتساء القهوة الممزوجة بالزرنيخ كل صباح؟!».

- «تقريبًا!».

- «تقريبًا؟! أتحاول السخرية مني أم استفزازي للاشيء؟!».

- «اصمت.. دعني أشرح!».

ووضع قدحه هو الآخر ناظرًا لراهب الذي أخذ يرمقه بشك

واستغراب، لم يكترث لذلك مسترسلًا وهو يدعك جبينه:

ـ «أنا كذلك فعلًا! فجسدي تقريبًا تشبع بالسموم، وذلك لعلاجي من الناعور!».

ـ «ناع.. ماذا؟!».

ـ «هيموفيليا، هو من الأمراض الوراثية المتعددة التي تسبب خللًا في الجسم لنقص بروتينات التجلط، فتمنعه من السيطرة على عملية نزف الدم، تسبب نقصًا في عملية تخثر البلازما الذي يعمل على تسوية تخثر الدم..

أصبت بالمرض عن طريق الوراثة، فقد تحمل الأنثى المرض على كروموسوم X ولا تكون متأثرة به، لأن الكروموسوم الآخر الذي هو X أيضًا سيعمل على توليد عوامل التخثر، وبما أن الذكر سيستقبل الـ X من والدته فهناك احتمال أن تكون نسبة وراثته المرض من والدته غير المصابة بالمرض لكن حاملة له هي ٥٠٪، وأما إذا كانت والدته مصابة كذلك بالمرض فستكون احتمالية إصابته به ١٠٠٪!

كانت معاناتي مع الهيموفيليا فائقة، فعندما يبدأ الطفل المريض في الحبو أو المشي تصيبه كدمات زرقاء متكررة، وقد يحدث نزيف في المفاصل بخاصة في الركبتين، ما يجعل المصاب يعاني بعد ذلك من تليف وتيبس العضلات، ويصبح بعد سنوات قليلة طفلًا معاقًا لا يستطيع الاعتماد على نفسه فيحتاج إلى من يحمله، وعند سن البلوغ يحتاج إلى عملية لتغيير المفاصل إذا لم يتلق العلاج المناسب منذ الصغر..

الأسوأ أن النزيف يستمر لساعات طويلة حين يكبر الطفل ويبدأ في خلع الأسنان والضروس، وتدمى لثته كذلك طيلة الوقت، وعندما

يحتاج إلى عملية استئصال اللوزتين يحدث نزيف بعد العملية قد يكون خطيرًا في كثير من الأحيان..

لا يوجد هنالك علاج تامّ لهذا المرض اللعين، ولكن يتم أخذ حُقَن لسد نقص عامل التخثر، المشكلة أنه قد يقوم الجسم المريض بتكوين أجسام مضادة ضد الدواء المعطى، لذلك يتم زيادة الجرعة..

في حالتي كنتُ أستخدم التنويم المغناطيسي لإبطاء النبض، ومن ثم تقليل القوة التي تدفع الدم إلى الدوران في جسدي.. طريقة ناجعة رغم بدائيتها، لأجلها تعلمتُ التنويم المغناطيسي، وبتُّ أمارسه على نفسي وبطرف إبهامي أمام مرآة مع مؤقِّت زمني أعددته لمنحي إشارة الإفاقة، لكنها لم تكن بمثابة حل جذري..

ثم توصلت إلى طريقة أخرى، متمثلة في حقن الدواء في عناكب الناسك البني السامة، ومن ثم أشرع بالتهامها، إنها نتيجة عمل أعوام، وبإمكانك القول أنه كشف طبي هائل كوني أتماثل للشفاء، لذا أكون ممتنًا إذا احتفظتَ بهذه الحكاية سرًّا!».

بدأ (بديع) بالتململ قائلًا باحتداد:

ـ «حكاية مؤثرة.. حسنًا أيها السيد الخارق الذي لا يمكن قتله بالزرنيخ، صدق أو لا تصدق، أنا لم أدس لك شيئًا بخلاف السكر، مالي ومال السموم أصلًا؟ السموم التي أتعامل معها كانت لا تخرج عن إطار الكحوليات والمخدرات قبيل توقفي عن المعاقرة والتعاطي.. أكون شاكرًا لو احتفظتَ كذلك بحكايتي هذه سرًّا!».

رمقه (علام) بنظرة طويلة، فتبادل معه الأخير تلك النظرات المتحدية شاعرًا بالاستفزاز العارم.. فكر الأول في تجربة قهوة (بديع) كذلك كي

يتأكد من أن السم لم يوضع لثلاثتهم، وكذلك قهوة (راهب)، لكنه كره صنع ذلك أمامهما لشكّه بهما!

من المستحيل وضع السم للثلاثة.. وإلا لكانت الأرواح الشريرة هي السبب!

لكن قدحًا واحدًا يخلو من السم هو قدح المشتبه به دائمًا.. ولكن، ماذا عن قدحين خاليين من السم؟! هنا تصير المشكلة أكبر..

ـ «إذن؟»

ـ «إذن؟»

ـ «ما الخطوة القادمة؟»

ـ «ذات ما كنا نصنعه، على نفس الوتيرة، سنراقب، ونواصل محاولات انتزاع الاسم من حلق Z اللعين..».

ـ «ماذا عن انتزاع حلقه اللعين برُمَّته بكل حال من الأحوال؟ واضح أنه لن ينطق، هلم نلق بجثته لتلكم الذئاب البشرية، هي لن تكترث لنا!».

تأمله (علام) بنظرة قاتلة لو أنها تقتل.. ثم هتف بنبرة متوعِّدة:

ـ «ماذا تقصد أيها العميل؟ كأني بك تحاول إفشال مهمتنا بدافع الخوف!».

تبسم (بديع) ببرود أعصاب مشعلًا سيجارته، ثم همس:

ـ «هي فاشلة بكل الأحوال! ألا تعي ذلك؟».

هبَّ (علام) واقفًا وقد استعد للذود عن الموقف بقبضته، عندما أتاه صوت (راهب) مجددًا:

ـ «شيء ما طرأ!».

اندفع للنافذة مقررًا تجاهل (بديع) الوغد لبعض الوقت، ولكن ما إن وقع بصره على ما يدور خارجًا حتى اكفهرت سحنته وكأنه يشاهد وثيقة إعدامه توقع وتختم.. أو شيء من ذلك القبيل!

ثمة شخص واقف وسط عاصفة الثلوج، كان كهلًا، هيئته كشخصية رهيبة خارجة من بين صفحات (كافكا) الجنونية أو (ديستويفسكي) المعقدة، شخص طويل القامة، طويل الشعر، طويل اللحية!

ارتدى معطفًا أسود تلهو به الرياح العاصفة مع اللحية والشعر، كل شيء فيه أسود كئيب كالموت، والأدهى أن عينيه كانتا جاحظتين بشفافية مروعة!

وهنا، قام ذلك الكهل المخيف بصنع شيء بدا ـ علاوة على مظهره ـ غريبًا لأبعد حد..

لقد صفع وجهه ناحية الخد الأيمن، وبأعنف طريقة ممكنة!

ـ «أهو قائدهم؟».

كذا تساءل (بديع)، لكن (علام) تمتم محاولًا السيطرة على ذعره:

ـ «لا أظن!».

ـ «ماذا قلت؟».

ـ «لا شيء.. أحاول فهم ما يدور خارجًا!».

ـ «ما بالك؟ تتصرف وكأنك أبصرت شبحًا!».

أرخى (علام) ربطة عنقه بأصابع مرتجفة..

ثم وبنبرة من شرَق دمدم أخيرًا باستسلام:

ـ «هو ما ذكرته بالضبط.. هذا الواقف خارجًا لا يمكن أن يكون إلا شبحًا!».

تبادل (بديع) و(راهب) نظرة استغراب مشتركة، قبل أن يهتف الأول محتدًّا:

ـ «ماذا تعني؟ هل تعرفه؟»

ـ «أجل! أعلم من يكون هذا الشخص.. كان شريكًا مؤقتًا لي في مهمة قديمة كمصدر هام للمعلومات، لكنه قتل في حادثة!».

ـ «شريكك؟ وقتل كذلك؟».

ـ «رأيت مقتله بأم عيني!».

ـ «وماذا يصنع هنا إذن بحق الجحيم؟ ولماذا يواصل صفع نفسه بهذا الشكل؟!».

كان (علام) يسأل نفسه ذات السؤال في قرارة ذاته، السؤال الأول المتعلق بتواجد مصدر معلوماته السابق هنا، في هذه البقعة المنعزلة والمثلجة، قبل أن يتراجع كمن أصابه دوار، فأسرع (راهب) يعاونه على الجلوس..

قال (علام) كمن يختنق مخاطبًا ذاته:

ـ «لا بد أنها أقراص «بنزودايازابين» اللعينة!».

ـ «بنزو.. ماذا؟!».

نظر إلى (بديع)، ثم أجابه بعصبية:

ـ «أقراص دواء مهدئ وقصير المفعول لعلاج التوتر الزائد والقلق، إذ ضاعفت استخدامي له في الآونة الأخيرة!».

ـ «وماذا عني وعن هذا الزميل؟ أنحن وهم كذلك من صنع أقراصك؟».

ثم وبتؤدة مصطنعة قال لعلام:

ـ «اسمع، شريكك المقتول يقف خارجًا، وقد رأيناه معك، إذن فمعك كل الحق بأن تجزع، ولكن ما دام متواجدًا وبإمكانه تعريض حياتنا ومهمتنا للخطر، يتوجب عليّ سؤالك عن القصة اللعينة بينكما وكيفية وقوعها بالضبط!».

الفصل السادس

العالِم

(١٤)

لشد ما تغيرت «بريستول»!

صحيح أن الألوان الداكنة لا تزال تطغىٰ علىٰ الطبيعة، وتصورها علىٰ مدار السنة عبر لوحات الفصول الأربعة، وأن الربيع ظاهر عبر أشجار الحدائق العامة، حيث يجلس المسنون علىٰ مقاعد الخشب، ويتسلون برمي حبوب الذرة لأسراب الحمام المتأهبة، والخريف عبر الأوراق المتساقطة والنسائم المرتحلة، والصيف عبر سريان مياه نهر«التايمز»، والشتاء عبر الأزقة المعتمة حيث ينام من لا مأوىٰ له متلفعًا بالثلج الناصع المهلك..

توالي السنين.. يصنع ذلك من المرء شخصًا آخر، أكثر خبرة، نظرته للواقع مختلفة عن أحلام الطفولة، والأحاسيس المرهفة التي تنتاب ذلك الشخص لدىٰ رؤيته جمالًا بريئًا..

صارت سنين العمر أشبه بورق الخريف المتساقط، عندما ينبهك لما لا ترغب بمعرفته.. أنك تكبر!

وبأن الحياة ذات وجه أقسىٰ، وبأن مسؤولياتك باتت أصعب،

ومواجهة الحياة لن تكون هينة كما تصورت في عدد من المناسبات الحالة
بما هو أفضل لو أنك كبرت قليلًا فحسب..

تفكر (علام) بذلك كله مطالعًا الصغار على الأراجيح، تأمل كبار السن الأزليين على مقاعدهم وتبسم، فعلى الأقل لا زالوا يأتون لإطعام الحمائم بدعة، عاقدين هدنات السلام والتسامح مع العالم الأهوج، كأن الشيب هو خط جماعي يلتقي فيه سائر الناس، فيتحولون إلى مخلوقات مسالمة لا تلوي على شيء..

أصوات آتية من بعيد لأجراس كنيسة تقرع، أجواء أشعرته أنه بطل قصة جريمة ما على وشك الوقوع..

مفكرته راقدة في جيب سترته استعدادًا لملاحظات قلمه النهم، سوداء ذات نقوش فضية، ذات أهمية كبرى، حيث الفرضيات تتحول إلى حقائق عن مرتكبي تلك الجرائم التي تقشعر لها الأبدان، والتي تجذبه بسبب عقليات مرتكبيها الحاذقة!

محاذرًا ألا يرى أحدهم سلاحه الذي تمنطق به، قام بلف سترته على بدنه متظاهرًا باتقاء البرد، لكنه فكر بتمهل..

إنه الآن في الثلاثين من عمره، مطلق، بلا أطفال لحسن الحظ، لكنه منجذب لتلك الصحفية الخلابة التي تكبره في العمر بحوالي ثلاثة أعوام، والتي لم تُخفِ ابتسامتها عنه يوم جاء لسؤالها عن نظرياتها حول قضية من نوع خاص، فتبسمت ابتسامة عجيبة، كأنها راقت لها ملامحه، شيء من ذلك القبيل..

ذات شعر أشقر قصير، وقد جذبه ذلك، تذكر (غانيل) ذات الشعر الطويل، فأدرك أنه يفضل - إلى جانب تفوقها عليه في العمر - شعر المرأة

حين يكون أقصر، كما يفضلهن بالتنانير، اكتشف متأخرًا أنه يبغضهن حين يرتدين «الجينز» كأنهن راعيات بقر أمريكيات، ومحور أحاديثهن لا يخرج عن نطاق أحذية «لوربنزي» ذات الكعوب المزركشة!

خرجا بضع مرات لتبادل الآراء والنظريات حول الجرائم الشنيعة التي وقعت على مائدة العشاء! الآنسة اللطيفة المطلقة ذات الأصول الروسية (ليليا أليكساندروفنا) تفضل تناول التحلية قبل العشاء! كما لو كانت محتفظة ببقايا طفولة ترفض التنازل عنها كي ترضي من حولها، لربما عفويتها تلك ما جذبه إليها بأكثر مما صنع عمرها أو شعرها الأشقر القصير!

لكنها لم تتخل عن بعض العادات الروسية العتيدة، فهي لا تزال تفضل الفودكا على أي مشروب كحولي آخر، فكانا يتبادلان الزجاجة التي تجلبها كل ليلة قبيل ذهابهما معًا للفراش، حتى اعتاد شربها هو الآخر..

كانت لياليهما معًا أشبه بأحلام فاجرة شديدة الإمتاع، بين واحدة تشع رغبة وأنوثة وواحد يندفع مستجيبًا كما الثور الذي يناطح مصارع «الماتادور»، بِنْيته العريضة الخشنة في مواجهة قدّها اللدن شديد النضج، كانت لديه عادة شديدة الفظاظة مع عشيقاته، ولكن يبدو أنها كانت تؤتِ أُكُلها، وهي صب السوائل الحارة كالحساء أو الباردة كالمشروبات الكحولية على صدورهن، ومن ثم لعقها بنهم! وقد كن يتجاوبن مع ذلك دائمًا بطريقة تثيره..

كان كذلك يحافظ على فحولته الشديدة بالتهام سلطة خاصة هي مزيج من الموز والجوز والكرفس والمحار، مع الشوكولاتة السوداء وحبيبات

الحمص.. يبدو الخليط مقيتًا، وقطعًا هو غير طيب، لكنه واظب على التهامه عن طيب خاطر كي يظل محافظًا على تلك الفحولة الهائلة التي تبهر امرأته دائمًا على سرير الأحلام!

أما على أرض الواقع فقد كانا كصديقين مقربين، يقضيان وقتًا طويلًا برفقة بعضهما تارة كبالغين يناقشان أمور العمل، وتارة كطفلين يتهربان من المدرسة..

لا تكاد (ليليا) تكف عن مناقشة القضايا التي نشرتها في صفحة الحوادث، تلك القضايا الجنائية التي عايشت شخصياتها في ميدان التحقيقات الخطر.. ولم تفكر في مدى خطورة مهنتها إلا مؤخرًا، بعدما داهمت الشرطة منزل أسرة بطل القضية التي تتبعتها وقبضت على الفتى الذي جالسته لكي تستفسر منه عن تهم أقل ما يقال عنها أنها بشعة، فقد كان الفتى المشتبه ـ الذي أضحى جانيًا ـ متهمًا بخطف فتاة وضربها بوحشية والتناوب مع صديقه على اغتصابها بعنف، ثم سرقة ما تحمله في حقيبتها، ورميها بعد منتصف الليل في بقعة مهجورة وحيدة ممزقة الثياب معرضين حياتها لمزيد من الخطر فوق ما صنعاه..

أطلعت الشرطة (ليليا) أن مصيرًا مماثلًا كان بانتظارها لو قبلت دعوة الفتى.. في ذلك اليوم وبينما كانا يتجولان ـ الفتى وصديقه ـ في الشارع، شاهدا الضحية تقف منتظرة سيارة أجرة بعد أن خرجت من مقر عملها، فاقتربا منها طالبين أن تدلهما على أحد الأماكن، فأجابتهما أنها لا تعرف، فكان أن رش الفتى على وجهها مادة مخدرة أفقدتها الوعي، ثم قام بسحبها إلى داخل السيارة، وانطلقوا معًا نحو منطقة معزولة خالية من شتى أشكال الحياة..

وكان أن استيقظت عقب دخولهم المنطقة، وأصيبت بالرعب عندما وجدت نفسها في سيارة مع غريبين أحدهما بجانبها بلا حراك، فصرخ الشاب الأكبر سنًا مدعيًا أن الفتى صاحبه مصاب بصرع يجعله يسقط بغيبوبة، وبأن عليها مساعدته بعمل تنفس اصطناعي له!

تقول (ليليا) بمزيج من الحماسة والتقزز:

ـ «ولدى منحه قبلة الحياة، فوجئت البائسة بالفتى الممدد وقد استيقظ فجأة ليفتح الباب ويخرجها بعنف، ثم أخذ الاثنان يضربانها بقسوة لم أفهم سببها، كما لم تشعر بألم الضربات من شدة خوفها مما سيأتي عقب ذلك، وقد حدث ما كانت تخشاه..»

ـ «ماذا كان مصيرهما؟»

ـ «لقد أصدرت المحكمة حُكمًا بسجنهما، لكن أذاهما كان فوضى عارمة، إذ قاما كذلك بتصوير فيلم لعملية اغتصاب الفتاة، ومن ثم عملا على تسريبه لأصدقائهم على موقع «يوتيوب» الذي قام بحذفه لحسن الحظ.. قدم الفيلم كدليل كذلك على الجريمة عن طريق شاهد وجد في هاتفه النقال فيلم الاغتصاب، لكن نشره السابق آذى الفتاة وأسرتها بصورة مؤلمة.. إذا أردت رأيي، كان يجب أن يتم إخصاؤهما!».

ـ «هذا شنيع!»

ـ «ما أصاب الفتاة؟ أم أن يتم إخصاء اللعينين؟ نفسيتهما أقرب لنفسية الحيوانات الضارية، والأشنع أن صديق الفتى الأكبر سنًا قد اعترف كذلك باغتصاب صبي معاق من قبل! أغواه عن طريق ابتياع بعض الحلوى له!».

ـ «يا للهول!»

ـ «كان يجب أن تشاهد الفتاة المسكينة حين دثَّرها الشرطي الذي عثر عليها ملقاة بغطاء ممزق انتشله من القمامة، إلا أن ذلك لم يفلح في تهدئة صدمتها.. لقد دُمِّرت!».

ثم دفنت وجهها في كلتا يديها كأنها تنتحب..

اعتقد أنها ستكتفِ بالبكاء، لكنها رفعت رأسها مواصلة الاسترسال بسحنة مرهقة ودون أي أثر للدموع:

ـ «لا أعلم ما حدث بالضبط، فجأة شعرت بمطارق ثقيلة تهوي على رأسي من الداخل وبعنف وحشي..».

ـ «لا بأس، أنتِ بخير الآن..»

* * *

«من مفكرة (راجح)»:

في ليلة منعشة فتحتُ رسالتها المرسلة عن طريق الهاتف النقال إليّ، فوجدتها تقول: «أود أن أغفو على كتفك، أنا أحبك، ودائمًا ما أشتاق لأن أقبلك بحرارة!.»

كم هي رائعة لتواجدها إلى جواري! كم هي براقة بحدسها الصحفي الحذق، كم هي فاتنة بتنورتها القصيرة وشعرها الأشقر القصير!

ثمة ما هو مشترك كذلك بيننا..

(ليليا) كانت عصبية لأنها خشيت أن تخسرني، كنتُ صامتًا أنصت لكل ما تقوله بشيء من التأييد الذي احتفظت به في مجاهل أعماقي

الداكنة، مشكلة الدفاع عن العرب إنها كالتهمة البشعة هذه الأيام، فلم أتوقع أنها تدافع عنهم وعن موقفها بشأنهم قبالة آخر شخص يتوجب عليها فعل ذلك أمامه!

كانت متحمسة، ورددت مرارًا أقوالًا للمستشرقة الروسية الشهيرة (بيغولفسكايا)، المتخصصة في تاريخ الشرق الأوسط في العصور الوسطى والتاريخ البيزنطي..

كنتُ مستمتعًا بخداعها كل تلك المدة، لكنني كشفت لها مؤخرًا الحقيقة: آنستي الروسية الجميلة، أنا عربي آخر ترعرع في مقاطعة «بريستول»، لا لستُ بريطانيًا خالصًا، بل أحمل الجنسية فحسب، والدي الذي أتى باحثًا عن فرصة هنا تزوج والدتي لأجل الجنسية كديدن العرب الذين يهاجرون إلى أمريكا وبريطانيا وكندا وأستراليا، فما إن نال مراده مرتين ـ مرة بنيل الجنسية، والأخرى من جسد والدتي ـ حتى هجرها وهي حبلى في الشهور الأولى بي..

طريف أن والدتي هي الأخرى من أصول روسية، قبيل هجرتها لبريطانيا مع ذويها الذين لم ألقهم أو أعرفهم يومًا، ويبدو أن بعض ذلك تسبب بانجذابي لصحفيتي الخلابة..

عندما صمتت (ليليا) أخيرًا كي تتناول قدحًا من الماء البارد بدأتُ أخيرًا في التحدث..

وجدت نفسها تنصت لاعترافاتي بحدقتيها الزرقاوتين الآخذتين بالتوسع، وشبكت أناملها البضة بعصبية كما لو كانت تحاول تبين ما إذا كنتُ أتلو الصدق هذه المرة، أم أحاول السخرية منها فحسب..

وعندما اكتشفت أننا على نفس الموجة، صارت أكثر حبورًا ومرحًا

أثناء الحديث، فتنهدت أعماقي بارتياح تام، هي إذن من النوع الذي يتكلم ويؤمن بما يتكلمه، ولم تنفر وإن أظهرت ضيقًا من خداعي السابق لها، وعاتبتني ـ برقّة ـ لاتخاذها كل تلك المدة مادة للتفكّه!

* * *

ـ «(بزدومني)؟».

أفاق من خواطره معتدلًا في جلسته، وهو يستقبل ذلك الكهل الذي ظهر أمامه بغتة، وقد ارتدى معطفًا أسودَ كما لحيته وشعره الطويلان..

ـ «أدعى (كليموف فليورا)..».

ومدَّ يدًا بيضاء مشعرة طلبًا للمصافحة..

هبَّ (علام) واقفًا كي يصافح الرجل بحرارة وأعماقه تتنهد بالظفر..

ـ «مستر (فليورا) إنه لشرف عظيم!»

ـ «شكرًا، وأتمنى ألا تناديني بمستر مرة أخرى!».

شعر (علام) بالدهشة، لكنه سرعان ما اغتصب قهقهة مرتبكة مردفًا:

ـ «وهو كذلك.. لكني فوجئت بلهجتك، فهي ثقيلة تمامًا كاسمك.. اسمح لي بسؤالك ما إذا كنتَ روسيًّا!».

ـ «لا، أنا كرواتي الأصل، لكن والدتي روسية..».

ـ «حقًّا؟ لا مشكلة، فأنا أتقن الروسية وبطلاقة، لا ضير من التحدث بها..».

ـ «دعنا نلتزم بلغة هذه البلاد، عندما تكون في روما اصنع كما يصنع أهلها.. أو كما يقول المثل السخيف!».

تأمله (علام) بابتسامة مجاملة، فوجده طويل القامة حقًّا، تبرق مقلتاه بزرقة بلورية، كما يتمتع بسحنة متيبسة كالصخر تناسب ملاكمًا محترفًا.. شعر أن قبضته ستتهشم لو حاول لكمها يومًا!

لم يَبدُ الطابع العام لفليورا مريحًا، ثمة عامل غير إنساني في تقاسيمه، ربما في نظراته الميتة، وكأنه جثة كهلة تسير وتتحدث! بدا باردًا لحدٍّ لا يوصف، مفعمًا بكآبة اكتسبها من فصول الحياة القاسية..

لكن (علام) تفكر كذلك في أسطورة (فليورا) التي لا يعرفها سوى القلائل، فهو الرجل الذي أفنى حياته في كشف أسرار أفظع الجرائم المرتكبة في أوروبا الشرقية..

وهنا، قام (فليورا) بصنع شيء بدا غريبًا لأبعد حد..

لقد صفع وجهه ناحية الخد الأيمن وبأعنف طريقة ممكنة!

* * *

فيما بعد، قام (علام) بإجراء بحث متمهل لتحصيل معلومات عن «عارض الطرف الأجنبي»..

وجده من أغرب الأمراض، إذ أن أحد أطراف المريض تتصرف أحيانًا من تلقاء نفسها بصورة لا إرادية! القدم تتجه يسارًا بينما صاحبها يرغب بالانحراف يمينًا، وفي حال (فليورا) كانت يده اليمنى تتصرف وكأن لها عقلًا مستقلًا، فإذا أشعل سيجارة بيده اليسرى اختطفتها اليمنى وسحقتها في منفضة السجائر، وأحيانًا تطفئها في باطن يده اليسرى!

والأسوأ كثرة المرات التي يصفع بها نفسه، وأحيانًا يلكم بطنه أو ينشب أظفاره على صدره راسمًا خطوطًا دموية!

فيما بعد، علم (علام) أن (فليورا) مصاب بالصرع، ويبدو وأن تأثير ذلك على دماغه غير لطيف بتاتًا، فهو لا يكف عن صفع نفسه كل ثلاث دقائق بالكثير، ناهيك عن خمش صدره بتلك المخالب المصفرة المسماة أظافر!

كان على (علام) تجاهل ما يقوم به (فليورا) كل بضع دقائق بتعبير جامد خرافي على الوجه، كأنه يرقب شخصًا يهوى البصق، والأخير لم يكن وقحًا لدرجة غض الطرف لأن ما قام به بدا مريبًا بحق، فاعتذر بهمهمة غير مفهومة، معقبًا عقب صفعة أخرى لخده المتيبس الذي بدا يحمر:

- «عذرا، عارض الطرف الأجنبي.. إنه..»

- «مرض نادر كما يبدو!»

تبسم (فليورا) بكآبة وقد أحنى رأسه خجلًا مجيبًا:

- «بالفعل هو كذلك! تخيل أن تجد لديك أو لقدمك حياتها الخاصة! لقد جُردت من سلاحي خشية إطلاق النار على نفسي أو زملائي، وتركتني زوجتي مصطحبة الأطفال من شدة خوفها عليهم وعلى نفسها، لا أستطيع لومها.. تخيل زوجًا وأبًا يصفع ويلكم نفسه كلما مرت دقائق، إنه الجنون دون أدنى شك..».

تصنع (علام) الشفقة على الرجل بتعبير معين على الوجه، لكنه دمدم كذلك بعبوس صادق:

- «أنا نفسي انفصلت عن زوجتي يا مستر.. أقصد يا (فليورا)! يبدو أن الحياة العائلية في هذه الأنحاء غير مجدية كذلك!».

تبدى بعض الحبور في لهجة (فليورا) لما قال:

- «إذن فأنت وحيد، مثلي تمامًا، والآن تجالسني دون أن تبدي امتعاضًا لمرضي الغريب، لا تبدو أحمقَ كديدن من قابلتهم.. فما قصتك بالضبط؟».

- «أفضل أن نلج في صلب الموضوع..»

استخرج (علام) مفكرته من جيب سترته، ومن المفكرة نفسها استخرج ثلاث صور فوتوغرافية مرقمة ناولها لفليورا دون تعليق..

قرب المحقق الكرواتي البارد أولى تلك الصور من أنفه متمعنًا..

كانت تمثل وجهًا أنثويًا مفتقدًا ألوان الحياة البهيجة، حيث تحولت تقاسيمه إلى زرقة الموت الباردة والمخيفة، الأجفان والشفاه أقرب للسواد، والشعر تبدى لزجا كالطحالب..

- «جميل.. من أين لك بهذه الصور؟».

- «لي صلات عتيدة مع الصحافة الذين يمتلكون بدورهم صلاتهم الخاصة مع الشرطة.. والآن..».

- «هذه جثة لغريقة..».

كذا نطق (فليورا) برتابة، ومن ثم أردف مهمومًا:

- «ماتت مقتولة..»

- «وكيف لك أن تجزم؟».

- «ثمة شيء ضئيل محشور تحت كل من جفنيها.. الأيمن والأيسر!».

همس (علام) دون إخفاء نبرة الإعجاب في عقيرته:

- «بالفعل.. لقد حشرت نواتان لزيتونتين صغيرتين أسفل كل جفن!».

كان ظهور نتوءات أسفل الجفنين باهتًا غير واضح، لكن الكرواتي يتمتع ببصر حاد كما يبدو، فلا يكتفي بالصورة العامة فحسب، بل يراقب ما يدور بين الأسطر كذلك..

الصورة الثانية أكبر قليلًا وملتقطة عن بعد، تمثل عائلة مكونة من رجل وامرأة وفتى وفتاة وكلب، والجميع مهشم الرأس وبعنف، وقد تم إجلاسهم حول مائدة للطعام، في حين وضعت جثة الكلب فوق المائدة كما لو كانت طبقًا رئيسيًّا للغداء!

- «همجي زيادة عن اللازم، في رأيي أن حشر نواة الزيتون أسفل الجفن كان أكثر ابتكارًا ونظافة!».

ابتلع (علام) لعابه دون تعليق مناولًا (فليورا) الصورة الثالثة والأخيرة، وقد كانت مقربة لرؤوس أفراد تلك العائلة، فبدت غير متسقة مع أجسامها نهائيًّا!

هنا، صفع الرجل نفسه مجددًا، بعنف أشد من السابق فعل هذه المرة..

لكنه لم يُبدِ تنبهًا لذلك، وخيل لعلام أن نبرته قد احتدت عندما تساءل وبصره يكاد يغوص في تلك الصورة:

- «قل لي.. هل تم ترك علامات بارزة ذات إيحاءات على كل تلك الجثث؟».

- «بالفعل، بطرف سكين، لكن العلامة تتغير دائمًا.. مرة رقم عشوائي، ومرة حرف أبجدي، أو رمز ديني حتى، كنجمة دافيد اليهودية، أو

الصليب أو الهلال.. وفي مرات أخرى رسمًا طفوليًّا ساذجًا لدب أو لذئب أو لهر!».

- «معظم الأحيان تحت الإبط أو مؤخر العنق أو بين خصلات شعر الرأس؟».

- «بالضبط مستر (فليورا)!».

لم يتنبه أحدهما للفظة (مستر) تلك، وبالأخص (فليورا) الذي عاود صفع نفسه مرارًا وهو يردد بلهجة محتدة بعض الشيء:

- «لماذا تجمع معلومات عنه؟».

- «عنه؟».

- «عن مُصفر بريستول البغيض!».

* * *

بدا وكأن حماس (علام) هو ما دفعه لإشعال تلك السيجارة البنية نفاذة الرائحة لفليورا..

كانت أنامل الرجل المطبقة كالكماشة بعقب السيجارة ترتجف لا شعوريًّا، وهو يهمهم بين الفينة والفينةكلمات غير مفهومة - لربما بالكرواتية؟ - أثناء سرده الإنجليزي الركيك:

- «لن أنسى عام ١٩٩٦م، لا يبدو تاريخًا عتيقًا، لكنه كان البداية لسلسلة جرائم شنيعة وقعت في موطني في مناطق متفرقة، تحديدًا في «دوبرونفيك» و«رييكا» و«سبليت»..

أنا مصابٌ كذلك بالصرع! وقد زاد عارض الطرف الأجنبي الأمر

سوءًا، مما دفع رؤسائي لتجريدي من السلاح كونه يعد خطرًا في يدي كما أخبرتك سابقًا، لكنني لن أنسى كيف بدأ الأمر معي.. الثاني عشر من مايو عام ١٩٩٦م، اتصال من مزارع مسنّ كان يزور جارته الأرملة وابنتها المراهقة، فهو يمدهم بالمستلزمات لدى ذهابه للعاصمة كي يبيع محصوله من الشمندر السكري في سوق الخضراوات والفاكهة، وعندما عاد وجدهما..».

ابتدأ سيل الأسئلة الذي لا يرحم بالاحتشاد في رأس (علام)، ولم ينتظر بل بدأ على الفور:

- «أتريد القول أن القاتل قد أتى من موطنك؟».

بزغ على وجه (فليورا) تعبير مَنْ تَنَبَّه إلى أن أحدهم يجلس إلى جواره، وبتؤدة همهم بشرود ذهن كأنما تفاجأ:

- «كرواتي؟ حقيقة لا أعلم.. لربما كان مجرد مقلد!».

- «لِمَ تسرد عليّ تلك القضية إذن؟ حسبتُ أن ثمة رابطًا بين..»

قاطعه بنبرة عصبية:

- «أنت متسرع يا فتى، فليكن.. عندما ولجت مسرح الجريمة وجدتُ الأرملة وابنتها بلا رأسيهما! بالأحرى قام القاتل بقطع رأسيهما ووضع كل رأس محل الآخر، أي أن الأم حملت رأس ابنتها والعكس صحيح!».

شده وجه (علام)، وبنبرة ذاهلة هتف:

- «تمامًا كما أريتك في آخر صورة! في هذه القضية كان الأب يحمل رأس ابنه والعكس صحيح، كذا الأمر مع الأم وابنتها، ثم هنالك..».

- «العلامات! لابد من وجودها طبعًا، توقيع القاتل اللعين، علامة

الجودة لضمان ألا يظهر من يزعم أنه من نفذ تلك الجرائم الأقرب للوحات فنية شنيعة لـ(غويا) دون امتلاك تفاصيل ارتكابها!».

وهرش ذقنه بعصبية صافعًا إياها كذلك متسائلًا:

- «لكنه لا يكرر جرائمه، أنا أعلم أنه لم يفعلها يومًا، فلماذا الآن؟ أخطأ؟ لا، هذا مستحيل..».

قال (علام) بترفُّق:

- «إنه بشر وسائر البشر يخطئون مستر (فليورا)..».

- «بشر؟».

وتبسم ساخرًا، قبل أن يستحيل صارمًا بغتة:

- «أخبرتك ألا تناديني بمستر!».

- «آه.. عذرًا!».

- «كما أنه ظهر في ليفربول عام ١٩٩٩م، ثم في «لوتون»، وأخيرًا في «بريستول»، وهو سبب تعقبي له هنا، جريمة الصناديق الثلاثة إذا ما كنت قد سمعت بها..».

شده (علام) وهو يهتف:

- «يا الله! لقد طالعت عن تلك الجريمة الغريبة، شخص قسمت جثته إلى ثلاثة أجزاء، وتم وضع كل جزء داخل صندوق كرتوني ضخم!».

- «والجزء الذي حمل الرأس كان يحوي بين خصلات الشعر رسمًا محفورًا بنصل سكين لصليب ملوي الأطراف، يمثل شعار «سواستيكا» النازي الشهير!».

- «إذن فهو قاتلك؟».

- «هو.. وقد فقدت أثره للأسف، لقد اختفى.. تمامًا كشبح!».

لم يذكر (علام) لفليورا بأن القتيل في جريمة الصناديق الثلاثة ينتمي لشعبة استخباراتية هامة طبعًا، ولأجل ذلك كان يحقق في تلك الجرائم العجيبة بغية الوصول للقاتل الشنيع، ومعرفة ما إذا كان مقتل رجل المخابرات عبارة عن مصادفة أم مؤامرة..

ثم إن (علام) عقب مهمومًا وهو يهرش ذقنه هو الآخر:

- «ذكرت شيئًا عن مُصفِّر بريستول؟».

- «إنها تسميتي له..»

- «إذن فقد قابلته!».

تنهد (فليورا) قائلًا بعبوس:

- «قابلته؟! لا، هي تسميتي الخاصة له، دعوته بالمُصفِّر، ثم نسبت إليه أماكن ارتكابه جرائمه لاحقًا، وقد قصدت بها أنه قاتل غير مبالٍ، يرتكب جرائمه تمامًا كالمتسكع الذي يُصفر لحنًا ما بشفتيه، أو كميكانيكي أو سباك يقوم بعمله على أكمل وجه متسليًا بالتصفير أثناء قيامه بذلك!».

- «ما انطباعك الخاص عنه؟».

- «إنه الانطباع الذي سخر بسببه الجميع مني!».

- «ألا وهو؟».

- «الكل في جهاز الشرطة الجنائية يحسب المُصفر كهلًا محنكًا، لكنه ليس كذلك، إنه شاب صغير السن!».

- «وكيف ظفرت بهذا الانطباع العجيب؟».

- «يصعب التفسير، شعوري الخاص الذي أثق به بسبب خبرتي الطويلة في هذا المجال.. إلى جانب سرعته ومهارته ورؤيته كما لو كان يزاول أعمالًا جنونية يراها تحفًا خالصة، ولديه حالات طفيفة وواهنة من الطيش مرت مرور الكرام على سائر المحققين، ولكن ليس على واحد مثلي!».

* * *

الميعاد شبه اليومي مع (ليليا) في ذلك المطعم البسيط الذي يروق لها كثيرًا..

كعادته، جلس بمحاذاة الواجهة الزجاجية منتظرًا ظهور سيارتها «الفورد» الفضية، وقد طلب لنفسه قدحًا من القهوة السوداء ما إن وصل حتى التقطه بأصابع مرتعدة!

أنصت بشرود للموسيقى الكلاسيكية الدائرة من إذاعة FM، قبل أن يقرر إشغال نفسه باسترجاع تفاصيل لقائه العجيب بـ(كليموف فليورا)..

إن (فليورا) لمهووس بالمعنى الحرفي بالسفاح الذي يبحث عنه، وقد راقت تسمية «المُصفر» لعلام كثيرًا!

للأسف.. كان لديه خبير حقيقي ذو منفعة تامة، لكن..

ظهرت عصفورته السادية.. (ليليا).. ملاكه الشخصي الجهنمي!

قبلها على خدها بشوق وقبلته على خده بحرارة، وكنوع من الدعابة لعقته بطرف لسانها وبطريقة سريعة تبسم لها، لكنها لاحظت أنه يرتجف

كالمصاب بالحمىٰ، فهمست بقلق:

ـ «ما الأمر؟ ألم يجرِ اللقاء علىٰ خير ما يُرام؟».

ـ «أتساءل ما إذا كان هوس (فليورا) سيفيدني بحق..»

ـ «ماذا تعني؟».

صمت (علام) وقد بدا مكتئبًا لأقصىٰ حد، فبدت (ليليا) مشفقة عليه، إذ همست برقّة وهي تداعب يده الأخرىٰ الموضوعة علىٰ المنضدة:

ـ «أتعشم ألا يفعل! فكما ذكرت لي سابقًا بأنه تعمق في قضية قاتلك ذاك أكثر من أي شخص آخر، فمن أجدر منه لعونك في القضية؟ أرىٰ أن تمنحه فرصة..».

ـ «لا أعتقد أن هذا بات ممكنًا الآن (ليليا)..».

ـ «ولكن لماذا؟».

ـ «لأن (كليموف فليورا) ميت.. لقد مات!».

بدت مصدومة بحق..

ـ «ماذا؟ لكن كيف؟!».

تنهد مبتلعًا ريقه بعسر، ثم قال بنبرة متهدجة قليلًا كأنها يستعطفها:

ـ «مات كالشاعر الإغريقي (أناكريون).. سمعتِ به؟»

ـ «وما دخل ذلك في..».

ـ «كان (أناكريون) يأكل العنب، فانحشرت حبات منه في حلقه، وبذلك مات! ميتة غريبة أليس كذلك؟ لكنها ليست أغرب من ميتة

الشاعر (تربنادر)، إذ رماه أحد أصدقائه بحبة تين، فاستقرت في فمه بدقة متناهية لتنحشر داخل حلقه مباشرة!».

ـ «هؤلاء الشعراء يموتون بطرق ولا أغرب بالفعل!».

وأطلقت (ليليا) ضحكة مستغربة ومتوترة، لكن (علام) لم يضحك..

ـ «أما الأديب (أسكيلوس) فكان جالسًا أمام داره عندما حلق فوقه نسر يحمل سلحفاة بين مخالبه، فأسقطها لتهوي علىٰ رأسه كحجر شج رأسه وقضىٰ عليه!».

ـ «يا للهول! هؤلاء أصابهم النحس حتمًا!».

ـ «وحتىٰ الأديب الأمريكي (هوثورن)، كان يتشاءم طيلة حياته من الرقم ٦٤ لدرجة حذفه من جميع مؤلفاته، خمّني في أي سنة مات؟».

ـ «مات سنة ١٨٦٤!».

ـ «بالضبط! لكن كل تلك القصص لا تقارن نهائيًا بما أصاب الياباني (تسوتومو ياماغوتشي)، الرجل الذي يعتبرونه الأكثر حظًا علىٰ وجه الأرض، ويعتبر نفسه الأسوأ حظًا علىٰ الإطلاق!».

ـ «وما الذي أصابه بالضبط؟».

ـ «عاش الرجل مع أسرته خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يعمل في مصانع ميتسوبيشي العملاقة، حين شاء حظه العاثر أن يرسلوه في مهمة تدريبية إلىٰ مدينة هيروشيما في صيف عام ١٩٤٥، حيث أمضىٰ ثلاثة أشهر في مصانع الشركة..

ـ «أستطيع الآن تخمين ما وقع له!».

ـ «وسيكون تخمينكِ صائبًا! ففي طريق عودته في صباح السادس من آب / أغسطس عام ١٩٤٥، تذكر فجأة في محطة القطار أنه نسي ختمه في مبنى الشركة، فقفل عائدًا لكي يستعيده، وخلال طريق العودة، تنبه إلى جسم معدني يهبط من السماء بواسطة مظلة كبيرة!

كان الانفجار المروع ناجمًا عن قنبلة «الولد الصغير» النووية، التي ألقاها الأمريكان في ذلك الصباح فوق مدينة هيروشيما مباشرة!

أصيب (ياماغوتشي) الذي كانت تفصله ثلاثة كيلومترات عن مركز الانفجار بجروح وحروق عنيفة في ظهره وخاصرته، لكنه نجا من الموت، وبالرغم من جراحه البليغة فقد استقل القطار في اليوم التالي عائدًا أدراجه، حيث تلقى العلاج في إحدى المستشفيات، ثم ذهب إلى منزله ليرتاح.. وعقب يومين في صباح التاسع من آب / أغسطس توجه إلى محل عمله في مصانع ميتسوبيشي..

كان جالسًا يصف لزملائه في العمل هول الانفجار الذي شهده في هيروشيما، وفي هذه الأثناء، كانت قاصفة أمريكية تلقي بقنبلة «الرجل البدين» النووية فوق ناغازاكي، وهذه المرة أيضا كان (ياماغوتشي) يبعد قرابة ثلاثة كيلومترات عن مركز الانفجار، إذ اتضح أن ناغازاكي كانت المدينة التي يقطنها!

نجا من الموت مرة أخرى بمعجزة، لكنه عانى من حمى مرتفعة لمدة أسبوع بسبب جراحه الملتهبة، قبيل تماثله للشفاء وعيشه عمرًا مديدًا، حتى توفي في سن الثالثة والتسعين!».

هنا تساءلت (ليليا) بنفاد صبر:

ـ «بحق الله ما الذي حدث مع (فليورا)؟».

ـ «مات (فليورا) أمام ناظريّ بسبب اللعنة التي تطاردني منذ زمن!».

ـ «عن أية لعنة تتحدث؟».

ـ «النحس! أنا شخص منحوس يا (ليليا).. منحوس للغاية! هل تعلمين كيف مات؟ لقد..».

صمت مظهرًا انفعالًا لا حدود له، وبدأت أطرافه بالارتعاش مجددا بطريقة مثيرة للشفقة، فسارعت بقبض يده جزعة نوعًا..

أسرت له بقلقها عليه وهي تشعل لنفسها سيجارة، ثم همست بحماسة مربتة على يده بأناملها ذات الأظافر المزينة بطلاء شفاف:

ـ «دعك من ترهات النحس تلك، لابد أن ضغط العمل قد أرهق أعصابك، لستَ الوحيد القلق، فالكل قلق وخائف!».

ـ «من قضية السفاح المُصفِّر؟».

ـ «المُصفِّر؟».

ـ «هي تسمية (فليورا) له..».

ـ «شاعري! حسنٌ.. ومن غيره يتسبب في كل ذلك القلق والخوف؟».

ـ «إنه مجرد مخبول، وسيقبضون عليه حتمًا..».

ـ «للآن لم يتمكنوا من معرفة شيء عنه، ثمة عدد من المفقودين كذلك تشتبه الشرطة بأنهم سقطوا ضحية أدوات السفاح القاتلة وتم إخفاء جثثهم!».

ـ «السفاح توقف عن مزاولة المهنة مؤخرًا، لربما تاب!».

ـ «أمثال هؤلاء؟ يتوبون؟!».

- «لم نسمع عنه منذ مدة طويلة..»

رمقته (ليليا) بنظرة مطولة، ثم سحبت نفَسًا من سيجارتها، وأطلقته مردِفة والدخان يتسرب من الفرقة التي اصطنعتها بين سنتيها الأماميتين:

- «رؤوس مهشمة بالمطرقة، وأحيانًا أذرع وسيقان مبتورة بمنشار يدوي، وأحيانًا ضربات قاتلة بالأزميل على أجزاء من الوجه، وأحيانًا أخرى مسامير من الحجم الكبير تدق في الجبهة أو مؤخر العنق.. ناهيك عن تبديل الرؤوس وترك الرموز الدينية أو الطفولية، من يعلم ماذا يصنع بكل تلك الأجزاء التي يبترها من الضحايا.. هذه حرفة شغف بالنسبة له، لن يتوب ولن يتقاعد حتمًا!».

- «كفى يا (ليليا)!».

- «انتابك الخوف؟».

- «بل الملل..».

- «وأخيرًا!».

تبسم أخيرًا.. ثم قال شاعرًا براحة نسبية:

- «دعينا نخرج ونروِّح عن أنفسنا قليلًا..».

- «بل دعنا نسهر الليلة على شيء أكثر إثارة..».

- «إذا كان فيلمًا مبتذلًا آخر من أفلامك الإباحية المصورة يدويًّا، فأقسم بأنني..»

- «لا.. لا شيء من هذا القبيل..».

وغمزت بعينها اليسرى هامسة بنبرة كفحيح الأفعى:

- «الليلة نقيم جلسة لتحضير روح السفاح!».

- «عن أي سفاح تتحدثين بحق الجحيم؟».

- «المُصفِّر طبعًا يا مغفل!».

- «لكن هذا غريب..».

- «ثمة فرصة لأن يكون سبب توقفه الطويل هو الموت، ربما انتحر، ولربما تعرض لحادثة أودت بحياته.. لذا سنحاول استبعاد مسألة موته على الأقل.. إذا لم تحضر روحه فهو حي في مكان ما، ونحن سنكون قد صنعنا شيئًا للتأكد!».

- «ولربما هو موقوف لسبب ما، ولربما صدمته سيارة وأصيب بالشلل، أو هو في حالة غيبوبة على سرير في إحدى المستشفيات..».

بوغت بها وهي تضحك بإفراط، فتنبه لما يحصل أخيرًا، وسدد بسبابته في وجهها قائلًا ببسمة عتاب:

- «أنتِ!».

- «أحقًّا تصدق مثل تلك القصص؟ نحس وتحضير أرواح وترهات السحر الأسود؟!».

- «يا لكِ من..».

لم يتم عبارته لسبب بسيط..

لقد قوطع وبوغت مع (ليليا) وسائر المتواجدين في المطعم بسيارة تقتحم الواجهة الزجاجية! فتحول المكان لفوضى مروعة جامعة ما بين الصراخ وبعثرة الأجساد والأشياء، وتحطيمها أو تمزيقها!

سعل (علام) محاولًا النهوض عقب زوبعة الغبار، لكنه أبصر بطرف عينه الزائغة جسد فتاته الساكن والملطخ بالدماء أسفل عجلات السيارة، في حين، خرج السائق وهو يدور حول نفسه كالسكير من أثر الصدمة..

أم تراه كان سكيرًا بالفعل؟

ردد (علام) اسم (ليليا) بضع مرات، ثم ترقرق الدمع في مقلتيه لأول مرة منذ زمن طويل..

النحس! إنه النحس اللعين الذي لطالما طارده.. لعنته الحقيقية!

(١٥)

الشبح الأسود يقف بانتصاب تمثال، لا يتزحزح بتاتًا، ولا يبدو أنه سيفعل عما قريب..

تساءل (بديع) واجمًا وهو يرقب ثباته العجيب:

ـ «وكيف مات ذاك المدعو (فليورا)؟».

أجابه (علام) مهمومًا:

ـ «صدق أو لا تصدق.. بسبب ثور!».

ـ «نطحه ثور؟».

ـ «بل سقط عليه.. من السماء!».

ـ «أستميحك عذرًا؟!».

ـ «ثور هبط عليه من السماء فقتله! كانت هنالك على ما يبدو حمولة ثيران في شحنة جوية مرت فوقنا، وتمكن أحدها من الخروج من قفصه

محدثًا فوضى عنيفة، فقاموا بفتح مؤخر الطائرة ودفع الثور للوثب في الهواء ليسقط علي..».

أطلق (بديع) صفيرًا مطولًا قبل أن يهتف:

ـ «يا لك من نَحِس بالفعل!».

التفت (راهب) صوبه بنظرة ذات زجر لم يتنبه لها، في حين دمدم (علام) من بين أسنانه بمَقْت:

ـ «شكرًا لتوضيح ما استعصى عليَّ فهمه!».

لكنه ظل يقهقه بطريقة أقرب للمرح، ثم راقب (علام) كأنما يتفحص مخلوقًا عجيبًا وهو يردف بجذل:

ـ «أعني أني آسف حقًا لموت فتاتك.. لكن هلم.. حكايتك شائقة! رباه! لم أكن أعلم بأن نذير شؤم مثلك سيكون بيننا! هذا ممتع! إن فرصنا في النجاة تتضاءل فعلًا.. لربما ينهار السقف على رؤوسنا، أو يشب حريق بسبب تسرب الغاز في المطبخ لينتهي ذلك كله بغمضة عين.. هذا ما كان ينقصنا بالفعل!».

نظر إليه (علام) بطريقة لافتة، إذ مزجت النظرة في عينيه ما بين الذهول والغضب وحتى القهر..

ثم إنه قال بنبرة عصبية كأنما يحاول إخراس ثرثرته المتواصلة:

ـ «أتصدق ما تقوله حقًا؟».

ـ «ألا تصدق أنت؟ لابد أنك تفعل، لكنك تكره الإقرار بمثل تلك الأمور.. الخزعبلات!

هل سمعت بسيدة جبل النحاس؟ يقال إن لقاء تلك المرأة ذات العينين الملونتين بلون صدأ النحاس لهو نحس ما بعده نحس، ومن يقع تحت بصرها محكوم عليه بالموت المحتم!».

ـ «لماذا؟ أتمتلك عيون ميدوسا؟ هل ستحولنا لتماثيل نحاسية مثلًا؟».

وشعر (علام) في تلك اللحظة بأنه إن تمنى أمنية وحيدة فستكون لكم هذا الزميل اللعين لكمة ماحقة في أنفه..

ولكن لِمَ التمني؟ سينهض وينفذ وعيده حالًا ودونما إبطاء!

ولكن ما إن نهض، حتى سمع صوت (راهب):

ـ «ثمة من انضم لضيفنا!».

كان سماع نبرة (راهب) يدفعهما دائمًا للصمت حتى وإن احتدم خلافهما، وعلى طريقة كلاب «بافلوف» بُرمجا على تبين الخطر أو مستجدات جديرة بالاهتمام لدى سماعه ينطق بمجرد كلمة وحيدة!

لذا، اندفعا معًا صوب النافذة، فأبصرا ـ إلى جانب شبح (فليورا) المخيف ـ فتاة ذات جمال مراهق، ارتدت ثيابًا جلدية سوداء ملتصقة ببدنها المتناسق، وقد بعثرت الرياح شعرها الأسود في منظر خلاب جدير بملصق دعائي يروج لعطر نسائي، لكن شيئًا في مقلتيها لم يكن على خير ما يرام!

لم تكن متسمرة كشبح (فليورا).. بل أخذت تنتفض قبيل تجمدها في مكانها كالمضطربة، ثم تصاعد من حنجرتها صفير عجيب، والمرعب أن صوتًا آخر صاحب صفيرها، شيء يجمع ما بين العويل المستمر بلا هوادة والهدير المتحشرج بالتضرع!

كانت الفتاة تلهث وتئن وهي تتمشى أحيانًا فوق الثلج كأنما تجاهد فوقه صعودًا وهبوطًا، لربما (تتجول) هو التعبير الأنسب، إذ بدا وكأنها تتجول حول شبح (فليورا) الأسود الواقف بثبات مشدوه كأن الأمر لا يعنيه بتاتًا، فبدا منظرًا يساعد على اجتياح الأفئدة من قبل الاستغراب والخوف والتوجس، كغزو ثلاثي نفسي بربري بلا هوادة!

- «ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟ ومن هذه أيضًا؟».

كذا همس (علام) بسحنة شاحبة، ولم يتلق ردًا من أحدهما..

ولكن، وحينما لاحظ تلك النظرة المتبدية في عيني (بديع)، تبسم بانتصار أريب وهو يتقدم ناحيته هامسًا ببطء ظافر:

- «أهي من معارفك يا زميل؟»

* * *

حدق (راهب) خارجًا بثبات..

ثم همس كديدنه دون الالتفات لزميليه:

- «ثمة خطب في مقلتيها.. كما لو كانتا.. لذئب!».

- «يا للروعة! لربما كانتا نحاسيتان! تمامًا كسيدتك النحاسية التي تحكم على الآخرين بالموت!».

قالها (علام) مستلذًّا بنبرة الانتقام الكلامي من (بديع)، ودون أن تأخذه رأفة بحاله المذعورة سأله بتشفٍّ:

- «إذن.. من تكون جميلتك المستذئبة يا زميل؟ طفلة وحشية أخرى؟ لربما فتاة عرفتها من الماضي الجميل.. خنتها؟ أم خانتك؟».

الفصل السابع

المُبدِع

(١٦)

كانت تلك ثالث زجاجة «هوليستين» يشربها (بديع)، منتظرًا بدء عرض الفيلم في قاعة السينما الخاوية على عروشها من مشاهدين سواه..

سينما عرض قديمة ذات بلكونة جيدة ومريحة المقاعد، يرفض الجلوس فيها مفضلًا الدور السفلي..

تعرضُ تلك الدار خلال الأسبوع مقتطفات قديمة من الفن السابع، وقد ناسبه ذلك، فهو يمقت عروض الأفلام الجديدة التي يُرَوَّجُ لها بصورة مكثفة، ويحبذ مشاهدة أفلام لم يسمع بها من قبل، خصوصًا تلك الآتية من بلدان غير الولايات المتحدة الأمريكية..

كان يلج لليلة الثانية على التوالي، ففيلم ليلة البارحة لم يفارق مخيلته بتاتًا، فقرر لدى غروب الشمس زيارة السينما لمشاهدته مجددًا..

الفيلم الذي لفت انتباهه كان إسبانيًّا، عنوانه: «تحدث إليها» Hable con ella، وقد تراءت له افتتاحية الفيلم حتى في أحلامه، برقصة كوريغرافية متمهلة مع امرأتين شاحبتين بأعين مغمضة، تخطوان

وتتمايلان على مسرح يعج بأثاث ساذج..

يقص الفيلم حكاية حب بين ممرض قصير ممتلئ وراقصة رشيقة فاتنة، وصحفي طويل ناحل ومصارعة ثيران تبدو كذكر! حيث يتقابل الرجلان في المستشفى مجددًا عقب صدفة جمعتهما قبلها ببضعة أسابيع، لما جلسا بجوار بعضهما في ذلك المسرح حيث بدأ الفيلم بتلك الافتتاحية الراقصة، وقد بدا الصحفي متأثرًا بذلك العرض لدرجة ذرف الدموع على عكس الممرض اللامبالي..

تحدث مصادفة عجيبة، حيث تصاب حبيبة كل واحد منهما إصابات مهنية تؤدي بهما للسقوط في حالة فقدان وعي عميقة لا يمكن للفرد خلالها التفاعل مع البيئة المحيطة به، ولا يمكنه كذلك الاستجابة للمؤثرات الخارجية.. إذ سقطتا في براثن الغيبوبة..

المرأتان تعملان كراقصتين، ولكل واحدة منهما طريقتها في الرقص طبعًا، فالأولى رقصها تعبيري مسالم، والثانية مجازف خطر..

وفي المستشفى، لكل عاشق ردة فعل مختلفة تمامًا عن الآخر، فالصحفي لا يكاد ينطق أمام فتاته التي كانت دائمًا تنصت إليه، فهو لا يرى جدوى من التحدث لشخص لا ينصت إليه، في حين أن الممرض يثرثر بلا توقف مع فتاته التي لطالما كان يراقبها عن بعد، وغالبية أحاديثه تدور عن الأفلام التي يشاهدها!

حكاية آسرة لفتت انتباه (بديع) بشدة، فظل يفكر في أحداث الفيلم طيلة اليوم التالي، حتى قرر الاستمتاع بمشاهدته مجددًا هذه الليلة، علّه ينسى هموم العمل وضغوطاته..

* * *

اشتعلت الشاشة بغتة، وابتدأ عد تنازلي لصور أرقام مهزوزة بالأبيض والأسود، مع صوت العداد المميز الذي ينطلق مع كل رقم:

١٢٣٤٥

ثم ظهرت عبارات على الشاشة من طراز كالآتي: 瀬戸の花嫁

وابتدأ العرض..

رسوم متحركة يابانية من التي يطلقون عليها «الأنمي»، لم يكن نوع (بديع) المفضل، في الطفولة ولغاية الآن..

لطالما عشق أفلام ديزني، تعاطف مع الغزالة (بامبي)، وحزن بشدة على والدة الفيل (دامبو)، واستمتع بمغامرات (روبن هود) الذي ظهر على هيئة ثعلب ماكر!

لم يرق له فيلم (بينوكيو) نوعًا، والسبب كونه كان مرعبًا، إذ لم يتمكن قط من نسيان مشهد الأطفال الذين يتحولون إلى حمير ويتم استعبادهم، ولربما اقتيادهم للمسلخ كذلك!

لاحقًا.. سيشاهد فيلم ديزني الأشهر «الأسد الملك»، وبسبب ذلك الفيلم ستتغير معتقداته كذلك!

كان يجد الرسوم اليابانية عنيفة بحق، خصوصًا تلك التي تتحدث عن آليين يطيرون في الفضاء، ويحاربون آليات وكائنات عملاقة شريرة بين المجرات..

لكن صبرًا، فالرسوم المعروضة هنا لم تكن أرحم، صحيح أن رسوم الشخصيات الآلية لا تتسم باللطف، وبها قدر هائل من العنف الدموي، لكنها على الأقل لا تخدش الحياء بهذا الشكل الشنيع!

ثمة نوع من الرسوم اليابانية يدعونه «هنتاي»، أي «الانحراف» أو «البذاءة»، وهو صنف الرسوم الجنسية الوحشية الذي لا تراه حتى في الأفلام الإباحية!

إنه الآن في مقر عمله مع يوم جديد منهك، ردة فعله كانت الصمت التام أثناء العرض، ولا شيء غيره، كديدنه في العمل تصلب بصره على الشاشة، كنحت رخامي طيلة العرض الذي استغرق ساعة إلا ربعًا..

كانت تلك المشاهدة المبدئية كونهم سيُدَبْلِجون الأصوات لاحقًا من اليابانية للإنجليزية، وبالاستعانة بموهبة فذة مثله سيقتصدون في الممثلين، إذ إنه ولوحده سيمثل ثلاثة أصوات دفعة واحدة!

كان بارعًا في عمله، فقد درس فن تمثيل الأصوات منذ نعومة أظفاره..

هو فن تقديم الأصوات لشخصيات، سواء في الرسوم المتحركة، أو في الأفلام السينمائية، أو شخصيات تلفازية أو إذاعية، أو الإعلانات التجارية، وحتى ألعاب الفيديو..

مؤدوها يطلق عليهم ممثل أو ممثلة أصوات، أو فنان أصوات.. عملهم قد يتضمن أيضًا الغناء رغم استنادهم مرات إلى مغنٍّ مختص..

من استخدامات تمثيل الأصوات عملية الترجمة، والتي يطلق عليها بين الناس دوبلاج أو دبلجة، حيث يقوم الممثل بتمثيل النص المترجم بلغته بدلًا من استخدام نصوص الترجمة المطبوعة على الشاشة..

تمثيل الأصوات المترجمة قد يكون بمحاكاة اللغة الأصلية، كما يحدث في الأفلام ومسلسلات التلفاز والرسوم المتحركة، أو يكون أمرًا غير مقيد كما يحدث في الترجمة المباشرة، فليس من الضروري تطابق الحديث

المترجم مع حركة الفم مثلًا بنسبة متكاملة، أو كما في التعليق على البرامج الوثائقية والتقارير..

قد يجمع الفنان بين التمثيل العادي وتمثيل الأصوات، إذ تتشابه عملية التمثيل في النوعين.. يقدم ممثل الأصوات أصواتًا مختلفة كما في التمثيل والترجمة، أو يكتفي بصوته الطبيعي كما في التعليق..

هو كان يستخدم طبقات مختلفة من عقيرته ببراعة، ويستخدم تمثيل الأصوات عادة للدور بلغة إنجليزية مدبلجة لليابانية..

* * *

انتهى العرض أخيرًا، وأظلمت الشاشة معلنة استغراقها الآن بعتمة النوم..

لم يُظهر أي خجل من اللقطات الفاضحة التي ظهرت أمامه، انتهى خجله منذ أمد بعيد، لربما آخر مواقف خجلة تلك التي يتذكرها من طفولته!

نبش حتى تذكر باسمًا ذلك الموقف، تلك اللقطة التي ظهرت في مسلسل كرتوني لصبي خرج راكضًا من الحمام كما ولدته أمه، عُرضت اللقطة على محطة عربية، وقد كانت والدته جالسة تشاهد معه، تذكر كيف طالعها بجانب وجهه المحتقن وقد شعر بذنب عظيم كما لو كان المتسبب في بث تلك اللقطة، ودعا الله ألا تكون قد شاهدتها..

الغريب أنها قد شاهدت، لكنها بدت منحرجة لدرجة انشغالها بتقليب مجلة موضة متظاهرة أنها لم تفعل!

شريكته في عملية الدبلجة كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها!

كانت (روزانا) أول من يحضر للأستوديو وأول من يفارقه لدى انتهاء عملها، دائمًا بشوشة ودائمًا توزع مرحها بالقِسطاس على الكل رغم قيامها بدبلجة صوت الفتاة المغتصبة طيلة الوقت، وذلك بسبب جمال صوتها ومدى إثارته حينما تنتحب!

تحضر وتغادر بمفردها مستقلة حافلة، لكن مؤخرًا صارت تغادر برفقة (بديع) في سيارته الرياضية المكشوفة..

تسمت ـ كما أطلعته ـ على اسم الممثلة الإيطالية المولودة في طرابلس الليبية (روزانا بوديستا)، وذلك كون والدتها أحبت فيلمها «هيلين طراودة» بشدة، وبالذات أداء الممثلة وملامحها الحسناء، وقد أطلعت ابنتها على سبب التسمية، ثم حكت لها عن تلك الممثلة الإيطالية التي لم تكن تتقن الإنجليزية، لكنها تلقت تدريبًا من مدرب صوتي ولغوي وقت أدائها دورها في الفيلم، مما منحها شهرة عالمية!

ـ «وهكذا قررتِ أن تحذي حذو ممثلتكِ تلك!».

ـ «مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة! ويومًا ما سأصير نجمة سينمائية مرموقة، لن أظل مستترة وراء نبرة صوتي، أريد للعالم أجمع أن يعرف ملامح وجهي كذلك عن كثب!».

قالتها (روزانا) ـ المراهقة ـ ببشاشة، ثم أخرجت نصفها العلوي من شباك السيارة المفتوح لتطلق أعتى صرخاتها وبكل جموح، ولم يكن يقلّ عنها جموحًا، فكان يزيد من سرعة سيارته كي يزيد من نسبة الانتشاء لديها!

تتصرف كأنثى ناضجة ذات طبيعة استحواذية، تُلمح بمدى رغبتها بتملك رجل، حتى وإن كان لغيرها، وبخاصة لو تبدى ذلك الرجل

منيعًا يصعب أن ينهزم تحت وطأة أي إغراء..

لكنهم ينهزمون دائمًا.. مدير استوديو تسجيل الدوبلاج الكهل خير مثال على ذلك!

ـ «هل تعلم أن التحدي بتلك الصورة يكون أمتع؟ وبالذات حين تكون زوجة ذلك الرجل جذابة؟ عندئذ يصير الامتحان أصعب وأكثر إثارة، الزوجة الوفية الجميلة والرزينة، أم المراهقة طاغية الأنوثة مفعمة النشاط؟

لكنهم ينهزمون دائمًا!».

كانت تمتلك «أنا» طاغية كأنوثتها، تستمتع أيما استمتاع بتخريب سمعة الرجل الذي يرضخ، فقد خاطر باهتزاز سمعته وخراب بيته، وهي مختطفته التي هزمت غروره وقهرت امرأته، كأنه نوع من صراع البقاء بين الإناث!

ـ «هل تعلم أن (روزانا بوديستا) تعيش برفقة مغامر حقيقي؟ صحفي ومتسلق جبال ومستكشف؟ شخص رائع يدعى (والتر بوناتي)؟».

قال في سره إنها لن تتوانى عن سرقة رجل قدوتها المفضلة كذلك باسم تحقيق الغاية ولو تبدت مستحيلة، إن «خاطفة الرجال» و«مخربة البيوت» المثيرة هذه لن تكون إلا له!

ـ «وأنتِ كذلك تمتلكين واحدًا.. أنا مغاركِ الخاص يا صغيرتي!».

ضحكت مؤمِّنة:

ـ «أنتَ كذلك فعلًا!».

* * *

كانت البقعة الكابوسية التي تزورها (روزانا) دومًا في منامها تقع حقيقة في اليابان، إذ زارتها حقًّا في مرحلة سابقة من مراحل حياتها، حيث أمضت إجازة طفولتها ـ التي تتذكرها بوضوح طيلة الوقت ـ هناك..

أخبرته عن تجربتها الأليمة، حين قامت برفقة والدها بزيارة غابة «أوكيغاهارا»، أو «غوكآي»، وتعني باليابانية «بحر الأشجار»، وهي التسمية المفضلة لدىٰ الأهالي كون الغابة تبدو كبحر شاسع مخضر من فوق، تلك المتاهة المميتة حسب أقوال اليابانيين، إذ يضل المرء طريقه داخل تلك الغابة الممتدة علىٰ السفح الشمالي لبركان «فوغيسان»، والبالغة مساحتها حوالي ٣٥ كيلو مترًا..

ـ «يقال إن الأرواح الشريرة اتخذتها مكانًا للإقامة! وأن من يدخل إليها لا يخرج منها أبد الدهر عقب توقف بوصلته عن العمل، ليموت من الجوع أو العطش، هذا إن لم تفترسه الضواري المتواجدة بوفرة داخل الغابة!».

السكان المحليون أخبروهما ـ عبر دليل سياحي ـ بأن أطفالهم يخشون التواجد هناك، علىٰ مدخل الغابة لافتة موجهة لمن يحاولون الانتحار في قلبها تقول: *«حياتك هي هدية ثمينة من ذويك، فكر أرجوك بهم وبأشقائك وأطفالك، لا تحتفظ بمعاناتك لنفسك وتحدث عن مشاكلك..»*.

كما لو كانت لافتات المرور الموجهة للسائقين بشأن عدم الإسراع لأن عائلاتهم بانتظارهم!

ـ «الغابة جميلة إلىٰ أن يقرر أحدهم تشويه جمالها بانتحاره داخلها،

حيث يلجأ من يريدون التخلص من حياتهم إلىٰ وسائل تقليدية كالشنق أو تناول السم، فيما يلجأ آخرون إلىٰ الحبوب المهدئة بكميات كبيرة، ولربما قطع الأوردة، مخلفين ملحوظات توضح أسباب فرارهم من الحياة، مثل تلك الملحوظة الشهيرة التي تقول: *«قدمتُ إلىٰ هنا لأني لم أظفر بشيء واحد حسن في حياتي، لا تبحثوا عني!»*.

ونقلًا عن الروايات اليابانية القديمة التي خرجت من أفواه السكان المحليين:

ـ «الأشباح عديدة في الغابة، وغالبيتها لمن انتحروا فيها، ومن دخلها من الأحياء سمع أصوات بكاء في البداية تتحول تدريجيًّا إلىٰ غناء حزين، ومما لا شك فيه أن بوصلة من يتعمق هناك ستتعرض للتلف، فيظل داخل الغابة أبد الدهر.. وكأنها متاهة مضنية دون باب للخروج!».

كانت تشعر بالخوف مما قيل عن الغابة، خصوصًا لدىٰ رؤية الحبال المتدلية من أفرع الأشجار، والتي يدل تمزقها علىٰ أن السلطات قد حررت جثة لمنتحر مشنوق، أو لمح بعض الأغراض التي خلفها المنتحرون من ثياب وقبعات وأحذية وحقائب، وحتىٰ دمىٰ مُسمرة علىٰ جذوع الأشجار كناية عن الاحتقار للمجتمع من المنتحر الذي شعر باضطهادهم له، فسَمَّرَ دمية مقلوبة بالمسامير تحمل لعنة كمحاولة أخيرة منه للانتقام قبيل قيامه بالارتحال للعالم الآخر..

لكن والدها ظل يطمئنها بهمس شديد الحنو، وهو يلاطفها ويعدها بالحلوىٰ اللذيذة إذا ما استجمعت شجاعتها، متوغلًا بها في قلب غابة الأشباح المنتحرة.. أكثر وأكثر!

(١٧)

ـ «إذن.. ماذا صنعت معها يا زميل؟ بم أجرمت بحقها؟».

ارتفع صوت (علام) المستهزئ، دونما هوادة كأنما ينتقم، فرمقه (بديع) بنظرة غَضْبَى كأنما يزجره، ثم رفع يدًا مستهترة مرددًا بجفنين مطبقين دونما اكتراث:

ـ «مجرد مراهقة مشوشة عرفتها..».

ـ «مجرد؟».

ـ «أجل.. ألديك ما تود قوله؟».

ـ «بالطبع لديّ يا صاح! أنا لا أعلم حتمًا ما يدور هنا من خزعبلات، ولكن واضح أن أشباح الماضي قد أتت لجعلنا ندفع الثمن أو أي شيء لعين آخر مماثل!».

ـ «لِمَ لا تقول بأن نحسك اللعين هو السبب؟».

ـ «لا فارق.. كل المسألة أن المهمة باتت أعسر!».

ـ «أهذا كل شيء؟ كنتُ قد ابتدأت أقلق!».

ـ «حقًّا إنك لشخص ظريف!».

ـ «أترغب بالتشاجر؟».

ـ «ولِمَ لا؟».

كور (بديع) قبضته بغضب عاصف هذه المرة، فتلون وجه (علام) متخذًا وضعية الاستعداد للهجوم وهو يزمجر بظفر وغضب معا!

ـ «كفى!».

ارتفعت صيحة (راهب) لتسمرهما، ثم استرد صوته نبرة الهدوء حينما قال:

ـ «ليس الوقت المناسب ولا المكان الملائم!».

ارتخى جسد (علام)، في حين أوثق (بديع) ساعديه أمام صدره وهو ينفخ الهواء بحرارة..

عاود (راهب) التلفت، فوجد الشبح الملتحي والفتاة المستذئبة على وقفتهما الثابتة والمخيفة..

ثم لاحظ حركة بين الشجيرات..

اتسع بصره نوعًا حين خرج من بينها دب أشهب هائل الحجم، تبدى كوحش ساخط أيقظته جلبة ما من سباته، فبزغ كي ينتقم فحسب!

زمجر ملء شدقيه وهو يشق طريقه نحو الفتاة التي راقبت ملامح (راهب) قبلها..

ـ «ماذا تصنع بحق..».

دارت على عقبيها برشاقة، وانقض الدب المفزع عليها..

وشعر (راهب) بزميليه وقد انضما إليه للمراقبة، و(علام) يهتف مشدوهًا:

ـ «بحق.. الله!».

شبح (فليورا) لا يزال على ثباته وبرودته كأن الأمر لا يعنيه.. أما الفتاة فاستخرجت من جرابها خنجرًا حربيًّا هائل الحجم، ودارت برشاقة مراقصة مخالب الدب وأنيابه، والوحش الأشهب يهاجم مزمعًا تقطيع أوصالها، لكنها تباشر طعنه أثناء كل..

ـ «تلك رقصتنا!».

قالها (بديع) كأنما يشرق، مواصلًا مراقبة الفتاة بفزع وهي لا تكف عن طعن الدب في عدة مواضع من جثته الهائلة كأنها تؤدي رقصة بالفعل، حتى ارتخى حماسه، وبدا الإعياء عليه..

وفي النهاية، انثنت على ركبة واحدة، ودارت نصف استدارة، فتمكن الثلاثة من رؤية أحشاء الدب تندلق خارج جثته، قبيل سقوطه صريعًا كصخرة!

عقب مرور بعض الوقت، تمتم (علام) كالمأخوذ وهو يسدد بإبهامه للوراء محاولًا استرداد أنفاسه:

ـ «سأذهب.. سأذهب لتفقد أحوال سجيننا!».

ـ «أجل.. افعل ذلك!».

كذا ردَّ (بديع) ببصر مشدوه.. وبطريقة لا شعورية ابتدأ مضطربًا بتحسس معدته، كأنما يتأكد من وجود أحشائه داخلها!

وعقب ذهاب (علام)، التفت لراهب قائلًا له بلهجة متلعثمة قليلًا:

ـ «هذا المكان ملعون!».

* * *

تساءل (راهب)..

ـ «ما الذي وقع بينك وبينها؟».

تأمله (بديع)، ثم واصل مراقبة الفتاة التي عاودت تسكعها الرتيب خارجًا وسط عاصفة ثلجية عنيفة..

بدا وكأنه سينطق أخيرًا، عندما ظهر (علام) مندفعا وهو يهتف بسحنة متلونة:

ـ «السجين!».

ـ «ماذا عنه؟».

ـ «لقد اختفى!».

التفتا إليه في آنٍ واحد عقب تبادل نظرة سريعة، وهتف (بديع) بضحكة عصبية:

ـ «ماذا تعني بأنه اختفى؟».

ـ «كما أقول لك.. اختفى.. تلاشى، حتى أنه أخذ قيوده معه مخلفًا المقعد فقط!»

ـ «هو ليس بشبح لعين!».

ـ «ولربما كان كذلك! لربما اصطحبنا واحدًا! فنحن لم نقابل مذ ولجنا

هذا المكان الجهنمي سوى الأشباح اللعينة!».

- «إذن فقد بِتَّ تؤمن بوجود الأشباح؟».

- «لا أؤمن سوى بما تراه عيناي، وما رأيته لغاية الآن لا يعدو مجرد أشباح لعينة.. واحدة تلو الأخرى!».

- «ماذا الآن؟».

- «اصمت.. دعني أفكر!».

كاد (بديع) يرد بخشونة لولا أن قبض (راهب) على ذراعه بقصد تهدئته، فرضخ الأخير مراقبًا (علام) الذي طفق يصول ويجول في الأرجاء هارشًا رأسه بعنف..

دمدم كأنما يحادث بنفسه بصوت مرتفع:

- «نحن نخطئ طيلة الوقت ولا نكاد نتعلم شيئًا من أخطائنا! قد مررتُ بعشرات المواقف العصيبة والمنحوسة، لكني كنت أتمكن من تجاوزها حسب قواعد الكتاب.. دائمًا!».

أمال (بديع) وجهه متسائلًا بوجوم:

- «وماذا لو كان العدو يلاعبنا بقواعد غير مدونة في أي كتاب أساسًا؟»

- «الخطأ وارد، والتعلم منه سريعًا قاعدة الذين يكرهون الفشل، لسنا ضعفاء، لكننا لا نتعلم من الخطأ، نحن نخوض اختبارًا لعينًا!».

وتحولت حركاته للعصبية الزائدة وهو يتنقل بسرعة أكبر، ويده لا تكاد تكف عن هرش عنقه حتى أدماها:

- «حسب قواعد الكتاب.. الكتاب!».

وتوقف..

- «يا لنا من حمقى!».

- «ماذا؟».

- «السؤال هو: لماذا.. لماذا نحن حمقى؟ والإجابة هي: لأننا كعملاء كان يجب أن نبصر أبعد من أنوفنا، إن هذا المكان لملعون حقًّا!».

- «لقد توصلتُ لهذه النتيجة العبقرية قبلك بفارق زمني لا بأس به!».

- «إنه يلاعبنا! هذا المكان يلاعبنا.. ولكن ليس بقواعد بعيدة عن الكتاب، صحيح أنها سبل خوارقية، لكنها متواجدة كذلك في الكتاب!».

- «عن أي كتاب تهرف بحق جهنم؟».

لطم راحته اليسرى المفتوحة بسقف راحته اليمنى مجيبًا:

- «فن الحرب! كتاب فن الحرب الذي ألفه قائد الجيوش الصيني (سن تزو)!».

- «هذا طريف.. لقد قرأتُ هذا الكتاب!».

اتسعت حدقتا (علام) وهو يهتف بظفر:

- «قرأته؟ ماذا عنك أنت؟».

ونظر إلى (راهب) الذي أسرع يجيب:

- «وأنا أيضا!».

صفق (علام) جذلًا وهو يرفع رأسه متأملًا أرجاء المكان، وبضحكة

مرحة هتف كأنما يخاطبه:

ـ «عبقري! فعلًا عبقري هذا الملجأ! آليات دفاعية من الدرجة الأولى لا يمكن تصديقها!».

همس (بديع) بقلق:

ـ «هل أنت بخير؟».

ـ «أنا على خير ما يرام يا صديقي! وكما أخبرتك، ثمة قاعدة لكل شيء، وكل شيء يدور هنا حسب قواعد واردة في الكتاب!

والآن.. ما الشيء المشترك بين ثلاثتنا والذي اكتشفناه توًّا؟».

تطوع (راهب) لتقديم الإجابة:

ـ «ثلاثتنا على اطلاع بكتاب فن الحرب..».

أشار له (علام) بمعنى «أصبت»، ومن ثم استرسل متحمسًا:

ـ «لذا، لاعبنا هذا الملجأ اللعين حسب قواعد الكتاب، الكتاب الذي طالعناه ثلاثتنا بحكم عملنا كعملاء في حالة استنفار!

تذكرا فصول الكتاب، بنود الاستراتيجيات الصينية في الفنون السرية للحرب، استراتيجيات المواقف اليائسة.. وقيساها مع ما أصابنا لتظفرا بالنتيجة.. حسب قواعد الكتاب!».

رفع (بديع) يده بشك وكأنه تلميذ يطلب الإذن من مدرّسه للإجابة:

ـ «لقد ابتدأ الموقف مع تلك الغجرية العجيبة، التي رآها كل واحد منا من منظوره الخاص!».

أسرع (علام) يقول بلهفة خشية من انقطاع حبل من حبال أفكاره الجنونية:

«**إستراتيجية الحسناء اللعوب أو الفخ الجذاب**: أرسل امرأة جميلة إلى معسكر العدو لتسبب الفوضى والاضطراب بين صفوف رجاله.. تعمل تلك الإستراتيجية على ثلاث مراحل، الأولى: وفيها يصبح الحاكم مفتونًا بالأنوثة فينشغل عن واجباته ويبدأ حذره في الخفوت، الثانية يبدأ فيها الرجال بالتعامل بخشونة وفظاظة مع أقرانهم مما يوقع العداوة والبغضاء في الصفوف، فينتج عنه ضعف روح التعاون والمعنويات، الثالثة: وفيها تبدأ النسوة في الشعور بالغيرة والحسد، فيكيلون المكائد ويمكرون، ما يؤدي إلى مزيد من التدهور في الجبهة الداخلية للعدو..

بالطبع لا يمكن تحقق المرحلة الثالثة هنا نظرًا لعدم وجود نسوة بيننا، لكن المرحلتين الأولى والثانية وقعتا معنا!».

همس (بديع) وقد بدا عليه الاهتمام أخيرًا:

ـ «ثم وقع هجوم الثلاثي المستذئب لمدة قبيل توقفه!».

«**إستراتيجية البوابات المفتوحة أو القلعة الخاوية**: عندما تصير في حكم المتأكد من ميعاد دخول العدو عليك، قم ساعتها بإخفاء أي مظهر من مظاهر الاستعداد للقتال، وتصرف بشكل طبيعي جدًّا، ما لم يكن العدو على علم بجبهتك الداخلية عقب علم دقيق بالخارجية، فتلك الحال من التراخي ستجعله يشك في الأمر، ويتمهل ليتحرى، فإذا حالفك الحظ فلربما عدل عن الهجوم عليك..».

ـ «بعدها.. شككت أنت بأن أحدهم قد دسَّ لك ـ أو لنا ـ الزرنيخ في القهوة!».

«إستراتيجية زرع بذور الفتنة: قلل في الخفاء من قدرة العدو على القتال من خلال زعزعة الثقة التي بينه وبين رفاقه وحلفائه ومستشاريه وعائلته وقادته وجنوده وشعبه، وذلك عبر العملاء المزدوجين والمؤامرات المدسوسة، بينما ينشغل عدوك بالمشاكل الداخلية التي سببتها له، ستقل قدرته على الهجوم أو الدفاع..».

ثم اختتم حديثه الجنوني بأن قال بجذل ناظرًا إلى (بديع) بالذات:

- «تذكر ما أخبرتك به مسبقًا عن التفكير كمحترف، أنا لا أعلم ماهية الآلية الدفاعية المستخدمة في هذا الملجأ ضدنا، قد تكون مادة كيماوية مسببة للهلاوس أطلقت علينا كغاز عديم الرائحة مثلا بمجرد ولوجنا، وقد تكون أي شيء آخر.. المهم أن كل ما يدور من وقائع وإن تبدت جنونية تدور حسب قواعد الكتاب!».

كاد (بديع) أن يصفق وهو يقول بحماسة:

- «يا لك من شيطان داهية!».

في حين تساءل (راهب) باهتمام:

- «إذن، ماذا يتوجب علينا فعله الآن؟».

أجاب (علام) متفحصًا خزينة طلقات سلاحه:

- «إيجاد Z بالطبع! دعونا نبحث عنه حالًا..».

صاح (بديع) مستنكرًا وهو يؤشر بذراعه المفرودة:

- «خارجًا؟!»

- «في أرجاء الملجأ يا ذكي.. الأبواب موصدة إلكترونيًا، فلا يمكن أن

يكون قد خرج إلا لو عرف تركيبة الأرقام السرية!».

جردا سلاحيهما علامة الموافقة، ثم تفرق ثلاثتهم، فالتزم (علام) و(بديع) الطابق السفلي، في حين، سارع (راهب) بارتقاء درجات السلالم على عجالة قاصدًا الطابق العلوي..

الفصل الثامن

Z

(١٨)

لم يكن (نيكولاي تيسلا) شخصًا عاديًّا، بل بدا آتيًا من بُعد آخر غامض.. من عالم آخر إن صح التعبير!

قد ساهم المخترع الأسطوري بما امتلك من معرفة هائلة في توليد الكهرباء من مياه الشلالات، والكابلات الطويلة لنقل الطاقة، بنى مولد شلالات نياغرا للطاقة الهيدروكهربائية، كما قام بإنارة معرض شيكاغو الدولي، وشيد أنظمة تيار متناوب في مناجم كولورادو للفضة، وساهم في تطوير ١٣٠ منجم أمريكي عن طريق صنع أدوات تعتمد على الكهرباء، وذلك الاختراع تحديدًا أضاف لأمريكا ثروة تقدر بعشرين تريليون دولار، ومليون فرصة عمل للشعب الأمريكي، في حينها حتى يومنا هذا!

طوَّر المحرك الكهربائي، ما ساهم في تطور أمريكا بالنسبة للسيارات والسفن والطائرات، بالإضافة للقوة العسكرية..

ويوجد الآن على شاهد قبر هذا الرجل العظيم وفي كل صرح علمي

لوحات تخلد ذكراه، وقد كتب على إحداها باللغة الإنجليزية:

«لا زالت الأمة الأمريكية تجني ثمار اختراعاتك يا سيدنا!»

كان الرجل الأسطوري مخترعًا وفيزيائيًّا ومهندسًا ميكانيكيًّا كهربائيًّا، ولد في كرواتيا ونال الجنسية الأمريكية فيما بعد، عُرِفَ بسبب مساهماته الثورية في مجال الكهرومغناطيسية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين..

يعتبر (تيسلا) «أبو الفيزياء»، ويطلق عليه لقب «الرجل الذي اخترع القرن العشرين»، و«القديس الراعي للكهرباء الحديثة»..

عمل كمهندس هواتف في براغ وباريس، وابتكر نوعًا جديدًا من المحركات بدون عاكس للتيار كتيار مباشر، وقد كانت المحركات تعمل على مبدأ دوران حقل مغناطيسي تنتجه تيارات تناوب ذات مراحل متعددة، وهو الطراز أو النموذج الأصلي للمحرك الكهربائي الذي يعمل على التيار المتناوب..

لكنه لم يجد اهتمامًا بما يصنع في أوروبا، فهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث عمل لبعض الوقت مع المخترع الأشهر (توماس إديسون)، قبل أن ينفصل عنه، ويؤسس مخبره الخاص..

ثم تتوالى ابتكاراته التي حصل من خلالها على براءات اختراعات كثيرة، ومن ثم تعرف على (جورج ويستينغهاوس)، الذي اشترى منه براءة اختراع الموتور متعدد المراحل مقابل مليون دولار!

دخل (تيسلا) في مواجهة مباشرة مع غريمه (توماس إديسون)،

حيث كان كل منهما يدافع بشراسة عن ابتكاراته في مجال الكهرباء، (إديسون) الطامع كان يحاول تحصيل دعم الحكومة البريطانية لأبحاثه بغرض المادة، وقد سأله أحد الوزراء عن فائدة تلك الكهرباء للناس، فأجابه: «لا أعلم بصراحة، لكني واثق من أن الحكومة البريطانية ستقوم بفرض ضرائب على استخدامها مستقبلًا!».

وبينما كان (إديسون) يحاول إقناع الناس والحكومات بجدارة وكفاية تياره الكهربي المباشر، كان (تيسلا) يبرز أوجه التفوق في التيار الذي ابتكره وأسماه التيار المتناوب، وقد نجح بالنهاية في جعل التيار المتناوب مقبولًا ومعتمدًا كنظام للطاقة الكهربائية على مستوى العالم!

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ارتفع (تيسلا) إلى مقام المشاهير، بالمقارنة مع انتشار (إديسون)، وذلك بفضل وسائل الإعلام التي رفعته إلى ذلك المستوى المستحق، وقد استطاع اختراع وتطوير أدوات كهربائية بناءً على الإمكانيات الهائلة للتيار المتناوب والتيار عالي التردد، فابتكر الراديو، والإنارة عالية التردد، والأشعة السينية، بالإضافة إلى وسائل العلاج بالكهرباء..

عقب معاناته من احتراق معمله ـ ويقال إن (إديسون) من قام بإحراقه ـ، قام بإعادة بنائه في بقعة جديدة في كولورادو سبرينغز، ثم أنشأ جهاز إرسال ضخم مكبر، كما أجرى تجاربه في مجال الطاقة الكهربائية اللاسلكية، والراديو والرنين الأرضي..

ثم درس البرق، واستطاع بعدها صنع برق اصطناعي! بعدها عاد إلى نيويورك بتشجيع من مموله (جي بي مورغان)، ليقوم بتطوير نظام عالمي للبث الإذاعي للطاقة الكهربائية باستخدام أجهزة إرسال مكبرة، وابتنى

برجًا ضخمًا لتقوية الإرسال في وارد ينكليف لونغ آيلند، باعتبارها أول محطة في النظام الكهربائي العالمي الجديد..

وبعد أن استلم ما يكفي من مموله (مورغان) لإخراج المحطة إلى الوجود وإكمالها، توقف التمويل فجأة، وانهار المشروع تمامًا!

* * *

استمر (تيسلا) في الاختراع، لكن ابتكاراته الجديدة كانت قليلة الأهمية مقارنة مع الاختراعات الأولى التي كانت كالسيل الجارف، والتي بلغت حوالي ٧٠٠ اختراع على مستوى العالم بأسره، بعدها، أغلقت وسائل الإعلام أبوابها في وجهه، باستثناء المؤتمرات الصحفية التي كانت تقام في يوم ميلاده..

تنبأ (تيسلا) بظهور المايكروويف، وتقنيات حزمة الأشعة [illegible]، ومحرك يعمل على الأشعة الكونية، والاتصالات بين الكواكب، و[illegible] التداخل الموجي التي دعيت باسمه منذ ذلك الوقت..

وقررت الأكاديمية السويدية للعلوم عام ١٩١٦ منح (توماس إديسون) و(نيكولا تيسلا) جائزة نوبل للفيزياء مناصفةً لجهودهما في مجال الفيزياء التجريبية، لكن (إديسون) رفض تقاسم الجائزة مع (تيسلا)، كما رفض (تيسلا) مشاطرة الجائزة مع (إديسون)، فحجبت عنهما معًا!

في الثلاثينيات من القرن العشرين شارك في مشاريع الطاقة اللاسلكية في كويبيك، وقد كان آخر حضور له عام ١٩٤٠ في مؤتمر صحفي..

في عام ١٩٤٣ صدقت المحكمة العليا في أمريكا على أن (تيسلا) هو مخترع الراديو، وليس الإيطالي (ماركوني)!

وقد استخدم عدد من انجازاته لدعم العلوم الزائفة، مثل نظريات الأجسام الغريبة الطائرة، والإيمان بالقوى الخفية..

تجاوزت سمعة (تيسلا) سمعة أي مخترع أو عالم آخر في تاريخ أمريكا وثقافتها الشعبية، لكن كونه غريب الأطوار جعل أفكاره غير قابلة للتصديق في كثير من الأحيان، وأدى ذلك إلى نبذه لاحقًا واتهامه بالجنون المطبق!

وبعيدًا عن أعماله في الكهرومغناطيسية والهندسية، ساهم (تيسلا) في اختراع الإنسان الآلي «الروبوت»، وأجهزة التحكم عن بعد «الريموت كنترول»، والرادار، وحتى علوم الكمبيوتر، والتمدد البالستي، والفيزياء النووية والنظرية!

توفي للأسف فقيرًا عن عمر ناهز ٨٧ عاما! في غرفة فندق في نيويورك بدون سبب واضح..

[illegible] حجز كثير من الأوراق الخاصة به، بما فيها نسخ من [illegible] من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لتظهر بعد عدة سنوات في متحف (تيسلا) في بلغراد في يوغوسلافيا، ولم ينشر المتحف من هذه الملاحظات سوى مقتطفات بعنوان: «ملاحظات ينابيع كولورادو».

خلد اسم (تيسلا) إلى جانب اسم (إديسون)، حيث أطلق اسم كل منهما على مَعلمين هامين من معالم جغرافية القمر، والمؤرخون يعتبرون التقدم العلمي قد مر بثلاث مراحل: الأولى هي ظهور الآلات البخارية، والثانية هي اختراع الكهرباء، والثالثة هي ظهور النظرية الإلكترونية المادية..

من اختراعات (تيسلا) المفقودة: محرك القرص التوربيني الدوار، مضخّم الطاقة الكهربائية، أنظمة الإنارة عالية التردد، المرسل المكبر الطاقة الكهربائية اللاسلكية، وجهاز استقبال الكهرباء الحرة..

ويقال.. بأن هنالك الكثير من اختراعاته التي ظلت على الورق، فلو تم تنفيذها لانهارت العديد من الشركات الاحتكارية الكبرى المستفيدة من إبقاء الوضع على ما هو عليه حاليًا!

(١٩)

ـ «سأتفقد مجددًا الغرفة حيث سَجَنّا Z، لعله لا زال مختبئًا فيها أو عاد إليها للاختباء تمويها لنا..»

رفع (بديع) إبهامه لعلام علامة التأييد وهو يقول:

ـ «سأتفقد المطبخ..».

تفرقا.. وواصل (بديع) سبيله بفوهة سلاح متحفزة.. ومرتعشة نوعًا!

ازداد خوفه عندما تخيل أنه معزول عن العالم الخارجي بسبب عاصفة ثلجية هوجاء، وبداخل هذا المكان الشيطاني الذي بات يمقته بحق.. قد يدفن ببساطة وسط الثلوج والظلام والأشباح، في هذا القبر المتجمد المسمى ملجأ.. يا لها من سخرية!

لم يبتسم، عوضًا عن ذلك تذكر مسألة الأشباح التي تنتظرهم خارجًا إلى جانب المرتزقة المذؤوبين، فأطلق شتيمة شديدة البذاءة، وهمهم لنفسه حانقًا:

- «وكأنها ترنيمة عيد الميلاد اللعينة!».

لم يكن يرغب بالنظر، لكنه فعل على أية حال..

كشف بفضول وخوف ستارة النافذة التي مر بها حين ولج المطبخ كي يتفقد أوضاع الأشباح التي بالخارج.. بالأحرى الشبح الذي أتى خصيصًا لأجله..

وجده.. بالأحرى وجدها واقفة وحدها.. (روزانا)!

لم يكن شبح (فليورا) موجودًا وكأنه رحل لحال سبيله، أما عنها هي فقد كانت تخطو فوق الثلج مترنحة كالثمالى!

ألصق وجهه بزجاج النافذة متمعنًا، ثم وكأنها شعرت بمراقبته دارت على عقبيها مواجهة إياه بتعبير وجه لا يمكن تصديقه.. فتراجع خطوة للوراء شاعرًا بذعر لا متناهٍ!

كانت راحة يدها ملطخة بالدم، قابضة على معدتها وهي تترنح، وتمكن (بديع) من رؤية بعض أحشائها الخارجة من هناك!

كتم فمه بجزع.. يبدو وأن معركة فتاته الراقصة مع الدب الأشهب لم تنته لصالحها تمامًا!

تبدت أحشاء (روزانا) متدلية من بين أصابع يدها الملطخة، وكأنها تحاول قدر الإمكان إبقاءها في جوف معدتها المفتوح على مصراعيه!

ويبدو أنها تحملت لفترة طويلة من الزمن، إذ تهاوت أخيرًا منغمسة في الثلج، إلى جوار جثة الدب!

هنا، قام (بديع) بصنع شيء أرعن، بل شديد الرعونة.. لو علم به

(علام) لما تردد بقتله دونما هوادة، إذ خف مسرعا ناحية باب المطبخ، وحل شِفرة قفله الإلكتروني ليفتحه منطلقًا للخارج نحوها!

أخذت أسنانه بالاصطكاك في مزيج ضارٍ من الرعب والعصبية المستعرة بمساعدة من خلاصة الأدرينالين، واندفع الهواء البارد المشبع بذرات الثلج ملاطما وجهه حتى تمكن من بلوغها، فدسَّ السلاح في حزامه، واحتمل جسدها، ثم دار ليعود أدراجه داخل الملجأ كبطل أحمق لفيلم رعب!

تعثر بضع مرات، كان يشعر بالبرد وقد نخره، لكن مظهرها الشبيه بجثث المشرحة أشعره بوجيب في قلبه، كانت مزرقَّة.. صغيرته الأثيرة الضئيلة مزرقَّة وباردة بقساوة!

دلف أخيرًا إلى المطبخ، وأوصد الباب بقدمه..

رفع الجسد ليضعه على مائدة إعداد الطعام لاهثًا، ثم تركها ليحكم إقفال الباب بشِفرة القفل الالكتروني، وليدعمه بالمزاليج الثقيلة الشبيهة بما يوضع على أبواب الزنازين في المعتقلات..

همهم بلهفة راجفة مستشعرا نشوة الدفء ونشوة استرداد فتاته أخيرًا:

- «لا عليكِ يا صغيرتي.. سأنقذكِ.. فأنا هو بطلكِ!

أنا مغامركِ الخاص يا صغيرتي!».

- *«أنتَ كذلك فعلًا!»*.

تسمر في محله شاعرًا أن الدماء قد جفت في عروقه..

نظر للوراء ببطء، قبيل اكتشافه أن المائدة خاوية.. لقد اختفت!

ثم تسمر..

«إستراتيجية إصابة النفس: للتظاهر أنك مصاب فائدتان محتملتان، الأولى أن تغري العدو فيتراخى ويقلل من درجة استعداده لك، إذ أنك لم تعد تشكل خطرًا ظاهرًا عليه..

والثانية أنها وسيلة لتملُّق عدوك، بأن تدفعه للظن بأن من فعل هذا بك إنما هو عدو مشترك لكما، على طريقة عدو عدوي هو صديقي!

عندما فطن الجاسوس الياباني (كاي غوزو) لانكشاف أمره لجأ إلى حيلة ذكية للنجاة بحياته، إذ طلب من «الشوغن» معاملته كمحارب وتركه يموت الميتة اليابانية النبيلة.. «الهاراكيري» أو بقر البطن!

وعقب موافقة الشوغن ذهب (غوزو) مع الحراس إلى الغابة، وجلس على الأرض ممسكًا بالخنجر، ثم طعن نفسه به، ومرر نصله بعرض بطنه حتى اندلقت أحشاؤه وسقطت على الأرض، بعدها، خر (غوزو) جثة هامدة..

أقبل الحراس على جثته، فحملوها ثم ألقوها في الخندق المحيط بالقلعة..

بعدها بقليل، سبح (غوزو) إلى البر، ولاذ بالفرار وقد لفَّ بطنه بأمعاء ثعلب ميت، حيث تتشابه مع أمعاء البشر، فالتبس الأمر على الحراس، ولم يفطنوا لحيلة المحارب الداهية التي أنقذت حياته!».

لم تكن تلك حتمًا أحشاء (روزانا).. وإذا كان لا بد من التخمين، فهي ولا بد - أحشاء الدب الأشهب الذي صرعته بخنجرها!

تمامًا كما قال (علام).. القواعد تلعب حسب الكتاب، وإن كانت خارقة للعادة!

أنصت (بديع) لصوتٍ تردد فوقه، صدىً مريع ينبعث من السقف، بل من أمامه! هنا، هناك.. يمين، يسار!

تنفس بعمق محاولًا التماسك.. إرادة الحياة تغالب بداخله كل الدوافع التي تحاول إقناعه برفع فوهة السلاح ودسها في حلقه! فمضىٰ قدمًا للأمام..

لا بد من رباطة الجأش!

افترض أول مرة أن غريمه سيحاربه بالطريقة نفسها التي يحاربه بها، بطريقة نبيلة بعيدة كل البعد عن الغدر!

تلك كانت غلطة شنيعة برأيه..

وعندما استرجع الماضي استطاع رؤية ما كان عليه فعله بالضبط.. كان عليه أن يضع نفسه موضع خصمه، فلو عمل حسابًا لتحركاته وسكناته وملاحظتها كلها ودراستها، فباستطاعته رد كيده إلى نحره!

عمل يوما كبطل خفي منح الإدارة العامة لمكافحة المخدرات صورة مشرفة ومشرقة للغاية..

بداياته لدىٰ الانخراط في سلك الشرطة كانت واعدة مقارنة بعمله الآخر في الدوبلاج، وعمله الجديد اللعين كعميل مرتزق.. حيث تحول

من مهمة مساعدة بلده بتخليصها من الجرائم للاغتيالات وبأبشع السبل المستخدمة كما لو كان سفاحًا متسلسلًا، وذلك للتمويه لا أكثر!

لم يفهم ما يصنعه بالضبط، التجارب القاسية التي عانى منها، المزج الغريب ما بين تنفيذ مهمة والاستمتاع بتنفيذها مع سماع الموسيقى أو أثناء رسم لوحة، موهبة تقليد الأصوات التي استفاد منها في الدوبلاج، وبالإيقاع بخصومه، وحتى بعشيقاته!

ترك سلك الشرطة إثر قضية أولى وأخيرة، قضيته تلك كانت كفرصة اغتنمها بثقة رغم صغر سنه، وببسالة نادرة خدمة للوطن فحسب.. حينها تمكن من الإيقاع بتاجر داهية عرض بيع كمية من الماريغوانا المخدرة عليه وهو متخفٍ، حيث وردت معلومات عن حيازة شخص يحمل جنسية دولة آسيوية على كمية كبيرة منها يحاول ترويجها بين طلبة المدارس خارج أسوارها، فأعدت إدارة المكافحة المحلية كمينًا لضبط الرجل مكلفة (بديع) بالتواصل معه، فابتلع التاجر الطعم وعرض عينة من سلعته عليه، قبيل مباغتته من قبل رجال المكافحة الذين أطبقوا عليه بعد توثيق عملية البيع، فداهموا شقته ليعثروا على كمية كبيرة من الماريغوانا ملفوفة في عدة أكياس بلاستيكية ولفافات مخفية في حشية الفراش..

قبض عليهما معًا ـ التاجر و(بديع)، وذلك لكي لا ينكشف تخفيه طبعًا ـ ، فتمت ترقية الثاني، وإحالة الأول للجهات القانونية المختصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة بشأنه، عقب توجيه تهمة حيازة المواد المخدرة والمؤثرات العقلية بقصد ترويجها، والاشتباه في تعاطيها كذلك!

الرأس الكبيرة.. ثمة دائمًا رؤوس كبيرة تحاول الحكومة بترها، ولو كلفها ذلك تسليم شرطي صغير وشجاع بكشف غطائه للرؤوس

الكبيرة التي ترغب بافتراس كبش فداء.. أي كبش!

ذلك هو الظاهر، أما الباطن ففساد لا يمكن تصديقه.. كذا أخبروه وهم ينهالون عليه بالضرب باستخدام قضبان معدنية، وقبيل طعنه أطلعوه على الحقيقة، الأذرع الأخطبوطية عبارة عن رؤوس «هيدرا»، اقطع رأسًا ينبت محله آخر وبسرعة لا تصدق!

وحين استفاق، وتأكد بأنه لا يزال على قيد الحياة بمعجزة، قرر أنه إذا استمر كذلك فسينضم لمعسكر آخر، معسكر أقوى لا يتهاون، ولا يمت نهائيًا بصلة لشعارات الكشافة اللعينة!

وعن طريق ذلك المعسكر الجديد، وعبر تدريباته ومهامه المخيفة التي تسلمها، تحول وبكل بساطة إلى وحش..

ـ «*لا زلتَ.. ساذجًا.. كطفل!*»

جفل مطلِقًا طلقة عشوائية من سلاحه لم تصب هدفها..

ارتجف متلفتًا يمنة ويسرة.. الصوت الأنثوي الذي تردد كصدى بدا لشبح!

صرخت أعماقه أن لا.. لستُ كذلك!

لكنه لم يملك إلا أن يفكر مرغمًا.. ثمة فرق واهن بين الطيبة المحببة والسذاجة الطفولية..

وهو كان ساذجًا.. كطفل.. يصدق أي شيء وكل شيء!

ـ «*أنتَ أخبرتني بذلك.. أتذكر؟*».

لم يكن يصمت.. قد أخبرها حقًا كل شيء.. كان كثرثار لعين لا يكاد

يصمت بتاتًا، لدرجة أنه لم يصدق أنه كان يومًا يعمل شرطيًا متخفيًا!

لعن ثرثرته الدائمة.. وواصل دربه..

حين كان في العاشرة أجريت له جراحة تطلبت حلق شعر رأسه بالكامل، عقبها، خاف من العودة للمدرسة حين أبصر نفسه في المرآة، حيث التقطيب المنفر لرأسه واضح كأشعة الشمس، فتوسل لوالديه كي يسمحا له بالبقاء في المنزل لحين نمو شعره بسبب مظهره المثير للاستهزاء، خصوصًا أن مدرسًا لديهم هوايته صفع الرؤوس الحليقة!

لكنهما أصرا على ذهابه، وقالت والدته أنها على يقين بأن الأولاد في المدرسة لن يقولوا شيئًا، ولكن إن فعلوا، فكل ما عليه فعله بالمقابل هو الصمت وعدم توليتهم أي اهتمام!

أما بالنسبة للمدرس، فهو مزاح أبوي ـ أو تربوي ـ لا أكثر!

بعض الناس الذين صادقهم (بديع) يوم كانوا مغمورين، بلغوا اليوم أرفع المراتب عبر وكلاء أشداء تنازلوا لهم بالكثير، إنه لمن المفيد جدًا معرفة شخص نافذ كي يساهم بحل مشكلة من مشاكلك!

فحين يبني أحدهم علاقة مهنية معينة، يترك طاقة أو بابًا شبه موارب كي يدلف منه ذلك الشخص الخاص والنافذ، بابًا للطوارئ كما كان رفاقه القدامى يسمونه!

وحتى الباب الذي طرقه، باب ما يحب تسميته فنًا، كان عالمًا متفردًا بكل القبح والوساطة وتقدمة الخدمات البغيضة!

لم يعلم لمَ جالت كل تلكم الخواطر المبهمة في باله إلا لدى شعوره بأن أحدًا يراقبه.. شعور طبيعي قطعًا!

كان يشعر بتوجس لا حدود له، ولكي يدفع ذلك الشعور الكريه بعيدًا عنه أخذ يفكر بأمور تدفعه للتناسي، إلا أن ذلك لم يفلح معه..

تذكر (روزانا) فسكن..

كانت مراهقة، مجرد مراهقة مرحة رغم جرأتها اللامتناهية ووقاحتها، وقد قام باستغلالها أبشع استغلال، كما صنع والدها معها قبلًا في قلب غابة المنتحرين اليابانية.. كان والدها نفسه من أبواب تلكم العوالم المتفردة والقبيحة، فاستغل حاجتها للأبوة!

ثم أتى (بديع) ليستغلها هو الآخر..

حدثته ذات ليلة عن توصلها لطريقة تمكنها من التوازن برأسها ورقبتها على كتفها أثناء دروس الباليه التي تلقتها مذ كانت في الرابعة من عمرها، أرادت أن تبهره بمدى ليونتها، أحيانًا كان يسايرها فيراقصها، لكنه كان نافد الصبر متعجلًا في تلك الليلة، فقبض ذراعها وأجلسها على الأرض بعنف مواصلًا استخراج الأدوات.. الإبر ومحتواها من سموم..

عقب الجرعة الأولى دمدمت كالمأخوذة:

ـ «كنتُ معتادة على غسل شعر دميتي بالماء والشامبو، ومن ثم أستخدم السشوار لتجفيفه، بعدها، كنتُ أقوم بربطها على الخزانة في وضع مقلوب!».

وبعد الثانية همست بوهن:

ـ «كان والدي هو أول شخص أسلبه بعدما سلبني.. سلبته من والدتي البلهاء! دفعته لابتياع آلة غزل شعر البنات السكري رغم اعتراض والدتي، لكنه لم ينصت لها وأنصت لي مقابل أن أكون لطيفة معه

وأنفذ ما يرغب به.. والدتي كانت تسرد لي أجمل القصص عن (روزالا بوديستا)، والدتي هي من صنع طموحي، لكني سلبتها رجلها!».

وجد نفسه يهدأ، فاستمر يسترجع ذكرياته معها، خروجهما سويًا، النزهات، الدبلجات الفضائحية المشتركة، سهرات الشرب أمام نار المدفأة في شقته.. العبث الذي تلا ذلك من جرعات مخدرة وجنس جامح.. ثم التهرب الذي تلاه حين أخبرته عقب سنة من علاقتهما..

ما قام به عقب ذلك كان حقارة تنافس ما قام به معها قبلًا!

منذ زمن أثبت كفاءة غير معتادة، وتبجح في مرة أمام إحدى الشعب الأمنية التي طلبته في استشارة مهنية أنه الرجل الذي يتخلص من عواقب أعماله دون الوقوع في شرها بتاتًا!

كان بإمكانه قتلها وببساطة متناهية دون أن يكشف أمره، لكنه اختار اللهو بها كالدمية عوضًا عن ذلك!

في كل ليلة، كان يتصل بالفتاة الساذجة التي تحسب نفسها تمتلكه، في كل ليلة يختار صوتًا، يهددها بالتعذيب والقتل على طريقة متنمري الهواتف، يجعلها ترتاع وتهرع إليه فيقابلها بكل برودة وجفاء!

استخدم صلاته الأمنية للاستيلاء على حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعية، واستغل ذلك أبشع استغلال.. حصل على كل الفيديوهات الصوتية المتعلقة بأصدقائها وأفراد عائلتها، جعلها تطلق تغريدات شائنة بشأن الكل، ورفع على موقع «يوتيوب» جميع مقاطع الفيديو الشائنة والفاضحة لأسرارهم التي احتفظت بها!

ثم عاود الاتصال بها مقلدًا أصواتهم واحدًا تلو الآخر، كاد يضحك

حين سمعها تجهش بالبكاء وتقسم أنها لم تفعل شيئًا مما حصل، فكان بالشتم ويتوعد ويهدد، ومن ثم يقوم بإقفال الخط في وجهها!

لم يعد يرغب بمواصلة العبث مع تلك الطفلة الغريرة، وبذات الوقت لم يشأ أن تحمل في أحشائها جزءًا منه!

تمادى في لعبته أكثر، كانت أقصى آماله أن تقصده مقررة ما أراده سلفًا.. الإجهاض، ومن ثم إما مواصلة العبث أو الانفصال..

لكنها اختارت خيارًا ثالثًا..

في ذلك اليوم الذي أتى عقب أسبوع من عدم حضورها للأستوديو، وعدم ردها على مكالماته متغيرة النبرات التي لطالما أجراها من عدة كبائن مختلفة للهواتف، زارته الشرطة..

فما إن رآهم حتى شعر بأن الأسوأ قد حل!

نظر للأعلى حيث سقف الملجأ، فأبصر ومضة من نور تبدت له منبعثة من أحد الشقوق.. يا له من ملجأ مغشوش!

خيل له الارتفاع ببدنه هناك، كأن الجاذبية معدومة، شعر بنفسه في بقعة مضاءة بلون أحمر قانٍ، وقد استبد به يأس عميق..

شعر بيد توضع على كتفه بترفق لتوقظه من ذكرياته الحالكة، فلم يجفل هذه المرة.. تبًّا لعلام ولنظرياته السخيفة المتعلقة بقواعد الكتاب..

هذا المكان ملعون!

لم يتساءل كيف دخلت مكانًا شديد الإحكام أمنيًا كالملجأ، أجل.. هو من أدخلها من باب المطبخ! يا له من أحمق تائه العقل!

ولم يكترث لمخالبها الحادة التي انغرزت قليلًا في كتفه لتسيل دماؤه ببطء!

شعر فقط بالضآلة والتفاهة وبكل الخواء المتواجد على وجه الأرض..

ثم همس بنبرة متخاذلة مستسلمًا للتالي:

ـ «سامحيني.. لم أكن أقصد!».

* * *

أزاح (راهب) باب غرفة النوم العلوية ببطء شاهرًا سلاحه بحذر..

ولما أبصر ذلك الجسد الضخم جالسًا على طرف الفراش تحفز أكثر..

ـ «بإمكانك خفض سلاحك.. لا أعداء لك هنا!».

لكن (راهب) لم يخفضه..

ظل على ثباته وهو يهمس بشك:

ـ «هما يبحثان عنك!».

ـ «دعك منهما.. لديهما ما يشغلهما عني حتمًا!».

ـ «لا أظن.. هما محترفان، وحتمًا سيقومان..».

بوغت بمسدسه يهتز بين يديه كأنما أصابه مس..

وفي الثانية التالية، تسرب المسدس من بين أصابع (راهب) رغم تشبثه القوي به، منطلقًا كالصاروخ نحو يد Z الذي التقطه ببساطة كالحاوي!

بدا التعبير على وجه (راهب) خليطًا من الصدمة والجمود على نحو داع للضحك! ما دعا Z لإطلاق قهقهة قصيرة بالفعل!

ورمق الجو الثلجي العاصف بعنف عبر النافذة قبالته قائلًا وهو يلوح بالمسدس:

ـ «أحاديث الأطفال هذه لا تجوز هنا يا بني.. الآن كلكم سواء في هذا الموقف العصيب، أشك أن يفيد السلاح كذلك.. ولنقل أن للقدر اليد العليا حاليًا!».

ـ «لطالما كان كذلك!».

ـ «ليس بالصورة التي تخيلتها! هنا كل الاحتمالات واردة، المهم هو ما تحاول التحضر له، ومدى قابليتك لتقبّله!».

ثم قذف بالمسدس لـ(راهب) معيدًا إياه، فالتقطه الأخير ليدسه في حزامه بريبة..

ومن ثم تمتم متسائلًا بشيء من رهبة:

ـ «من أنت؟ حقًا؟»

التفت Z أخيرًا إليه، ليرمقه بنظرة طويلة وباردة كالصقيع خارجًا!

(٢٠)

أجهزة علمية مصنوعة منذ عام ١٩١٠، ثم تم إعادة تصنيعها في ١٩٣٠، ومجددًا في ١٩٩٥/ ١٩٩٧

تتكون تلك الأجهزة من لوحة مفاتيح، كبسولات اتصالات نحاسية، وعدد من المولدات المتنوعة..

التجربة دائرة وفقًا لمخطوطات (تيسلا) المرسومة منذ العام ١٩١٠، والهدف استعادة الظروف التي تحدثت عنها أولى التجارب السرية لتلك المخطوطات، التي لا تذكر ما إذا كانت تلك التجارب التي أجريت ناجحة أم لا..

* * *

١٤ آب ١٩٩٧

ظهرت الأعراض قبل بضعة أشهر فحسب من بدء التجربة..

في البداية، كان مجرد شعور عابر من الدوار لا يختلف عن شعور

مصاب بارتفاع في ضغط الدم.. استمر لدقائق معدودة فحسب..

ثم أتى الصداع مع ظهور بعض الصور المتفرقة، جنبًا إلى جنب، مع شعور «ديجافو» يخالج المرء أنه قد عايش هذه الظروف من قبل!

لن أخوض حتى في هواجس..لكن، هل كان لديك بأي وقت مضى تجربة فردية ما لمعرفة ما الذي سيحدث في اللحظة القادمة؟

أتوقعت نهاية فيلم لم تشاهده من قبل؟

سيكون أمرًا رائعًا ا إذا سُمح لنا بالتنبؤ للفوز بلعبة الورق مع الشلة، بأرقام اليانصيب أو مضاربات البورصة، ولكن للأسف الكون لا يسير بذلك الشكل الطريف.. حسبما تعلمناه على الأقل أثناء ترعرعنا على هذه الأرض!

المسألة غير موثوقة، وذات نتائج وخيمة بكل تأكيد، فهي أقرب لأسلحة الدمار الشامل..

لكنها لعنة البشر الأزلية التي أسهمت كذلك في تطورها، فالإنسان هو الكائن الوحيد من بين جميع الكائنات على سطح الأرض الذي يمتلك وعيًا وعقلًا متطورًا ومقدرة على التفكير الدائم، ما ساعده على تكوين حضارة تكنولوجية متطورة إلى حد ما، ولا زال يسعى بمشقة واستماتة للمزيد!

مع الشلة سينتابهم السأم منك، فأنت تخمن كل الأوراق الرابحة في كل لعبة، لذا، فاللعب معك ممل ونتائجه وخيمة تجلب الخسارة الدائمة، فلو كنتَ مقامرًا في «لاس فيغاس» فسيطلب منك مدراء الكازينوهات المغادرة، حتى ولو لاحظوا فوزك بلا حِيَل، ولربما تخلصوا منك بالطرق

البدائية الأولىٰ علىٰ طريقة العصابات، كالدفن حيًّا في الصحراء عقب تهشيم أوصالك!

ربما لو استخدمت تلك المقدرة كمشعوذ يتنبأ لطفل في حفلة عيد ميلاده..

أو لو فتحت عيادة نفسية.. يبدو ذلك أكثر أمانًا وعملية!

ثمة العديد من الضحايا السذج علىٰ استعداد لابتلاع أية ترهات تجعلهم يؤمنون، فما بالك لو تحققت تلكم الترهات؟

دعوني أسترجع ذكريات البداية مع تلك التجربة التي أحدثكم عنها..

نحن فئة من طاقم علمي خاص، تفرد في العلوم والمناهج الزاعمة بأنها علمية، حيث تنطبق عليها خصائص ومواصفات العلم رغم أنها لا تتبع طرق المنهج العلمي.. يطلقون عليها «العلوم الزائفة»، أو «أشباه العلوم»، ودائمًا ما تلقىٰ معارضة الإجماع العلمي، فالعلوم الزائفة يمكن أن تبدو علمية، لكنها في الواقع لا تخضع لقواعد قابلية الفحص المشروطة في المنهج العلمي..

علم الفراسة وظاهرة نهاية العالم في ٢٠١٢ حسب تقويم شعوب المايا والإسقاطات النجمية هي خير أمثلة علىٰ ذلك، التفكير غير العلمي أو المتوافق مع العلوم الزائفة شرحه علم النفس وعلم النفس الاجتماعي.. إنه الميل البشرىٰ نحو التصديق بدلًا من الدحض والتفنيد، أو النقد، والميل نحو اعتناق معتقدات مريحة، والميل نحو التعميم باستخدام مصطلحات غير مألوفة لأشياء مألوفة لإحداث اللبس، مثل الإشارة إلىٰ المياه باسم ثنائي هيدروجين أحادىٰ الأكسدة، ووصفها بأنها جزء من تركيبة أغلب المحاليل السامة!

المجتمع العلمي يتوقع من مؤلف البحث أن يقوم بعرض البيانات الضرورية لتقييم قيمة بحثه، فالفشل في توفير البيانات الكافية للباحثين الآخرين لكي يعيدوا إنتاج الإدعاءات المستنتجة لهو أمر يفتقر إلىٰ الشفافية..

هنالك الاعتماد الزائد علىٰ الشهادات الشخصية أو القصص النادرة، مثل تشبث العامة بالقصص الخوارقية عن الشياطين التي مست أقرباءهم، فالشهادات الشخصية أو القصص النادرة من الممكن أن تستخدم في بداية اكتشاف فرضية جديدة تخضع للاختيار، ولكن لا تستخدم كدليل علىٰ تلكم الفرضيات..

أما الاستخدام الانتقائي للأدلة بتقديم المعلومات التي تدعم ادعاءاتهم، بينما يقومون بطمس ورفض وتجاهل المعلومات التي تتعارض مع ادعاءاتهم فهو أسلوب أقرب للسفسطة..

من الأمور الأخرىٰ غير المدعمة للعلوم الباردة أو الزائفة: الفشل في العمل وفق مبدأ الاقتصاد، بمعنىٰ آخر هو الفشل في وضع تفسير يستخدم أقل عدد ممكن من الفرضيات..

افتقاد الشروط المحدِدة، فمعظم النظريات العلمية القوية تمتلك شروطًا محدِّدة لوقوع أو عدم وقوع الظاهرة المتوقعة..

استخدام لغة ظلامية غامضة، وإساءة استخدام المصطلحات التقنية لمحاولة إضفاء شكل علمي هو سطحي في الباطن..

والافتقار إلىٰ ضوابط فعالة لدىٰ وضع النماذج التجريبية..

لكن ذلك كله كان سيتغير معنا، إذ ليس من المعقول أن تكون بين

أيادينا مخطوطات قد تفتح آفاقًا رحبة في فضاء العلم فنكتفي بالتخمين، يقول عالم الفيزياء الشهير (بوهر): «*علينا أن نعي أننا لسنا مشاهدين بل ممثلين على مسرح الحياة التي منحتنا العقل لكي نفكر فيها!*».

عوضًا عن فرض النظريات باستخدام الفلسفة، قررنا التحرك وفق نسق علمي وضعته أسس التجريب، والسبب كان قويًّا ومحفزًا وشديد الإغراء للغاية!

* * *

كان عيد ميلادي في يناير كانون الثاني عام ١٩٩٥، وقد تلقيت في ذلك اليوم أغرب هدية على الإطلاق..

في ذلك اليوم رن جرس الباب، وكم كان زائرا غريبًا بحق!

توقعتهم شهود «يهوه» كالعادة، فهم لا يكلون وعظهم التبشيري الدؤوب ـ واللحوح ـ في الذهاب إلى أصحاب المنازل، وعرض دروس بيتية مجانية في كتابهم المقدس الذي لا يؤمن بالثالوث، ولا بشفاعة القديسين، ولا بنار الهاوية كوسيلة لتعذيب الأشرار، ويبدو أن مصطلح اليأس مفقود من قاموسهم، فالجميع على علم بالحادي المعلن، وجماعتهم لا يكفون عن زيارتي لتلاوة الموعظة على عتبة باب داري، حيث يؤكدون لي أن الأوان لم يفُت، وبأن الملكوت هو حكومة سماوية برئاسة السيد المسيح شخصيًّا، وبأن بقية الأشخاص الصالحين سيعيشون في فردوس أرضي، إذ سيرثون الأرض، ويتمتعون بالعيش للأزل بفضل تلك الحكومة السماوية العادلة!

كلام جميل، لكنني أعتبرهم ثلة من الحمقى الذين أجادوا استخدام

اللغة الشعرية، فهم على سبيل المثال يُحرمون عملية التبرع بالدم بسبب قدسيته، فكل إنسان ـ حسب معتقداتهم ـ يمتلك حياته في دمه، فلا يجوز أن تنتقل تلك الحياة لإنسان آخر حتى ولو كان مشرفًا على الموت ويحتاج لتبرع بالدم، وإن الدم الوحيد القادر على الإنقاذ هو دم المسيح فقط، غير أنهم يقبلون بالبدائل الطبية للدم!

فتحتُ الباب متبرِّمًا من إلحاح الجرس مزمعًا طردهم، لأجد نفسي أمام رجل عملاق معتدل الهندام ويرتدي نظارات طبية، فكان انطباعي الفوري عنه بأنه مدير بنك!

لكنته أقرب للروس، وقد أقلقني ذلك كثيرًا، خصوصًا عندما قدم نفسه لي باسم (إيجوفا) ليزيد بذلك من جرعة توجسي نحوه، فاسمه بالروسية هو لفظة «يهوه» أحد أسماء الله في العهد القديم التي حُرم على اليهود نطقها..

حسب معتقداتهم، يُسمح لرئيس الكهنة بنطقه أثناء تلاوته للتوراة في يوم الغفران فقط، كونهم يعتقدون أنه الاسم السري لإله اليهود، وسبب حظرهم ومهابتهم من ذكر الاسم يعود إلى سوء فهم وصية إلهية تقول: «*لا تنطق باسم يهوه إلهك باطلًا*»، فخاف الناس من نطقه بالفعل، رغم أن المعجم العبري يوضح أن المقصود ألا ننطق الاسم دون سبب، أو باستخدام غير صحيح!

الوصية لم تمنع التلفظ باسم الله، بل منعت فحسب الاستخدام غير اللائق لاسمه، ولكن منذ ذلك الحين استبدلت لفظة «يهوه» بـ «أدوناي» العبرانية الحديثة، و«هاشِيِّم» بالأشكنزية، و«شيما» بالعبرية السامرية!

المهم.. سرد لي (إيجوفا) هذا أغرب قصة، لديه تعليمات صارمة من

أجداده، يجب تسليم ما لديه من وثائق ومخطوطات لي شخصيًا، وسيتم ذلك في يناير كانون الثاني من عام ١٩٩٥، يوم مولدي، وفي هذه الساعة تحديدا!

تلك الوثائق المرفق بها بعض التعليمات كذلك، تركها له أسلافه قبل حوالي ٨٥ عامًا!

بوجود (إيجوفا) وتحت إلحاحاته فتحنا معًا تلكم المغلفات، فوجدنا رسومات تخطيطية لكم هائل من الأنابيب، تشكل آلة غريبة من المولدات والكابلات لتبدو في صورتها النهائية أقرب لآلة طابعة عملاقة، ثم قصاصات صحف عتيقة تتحدث عن إجراء تجربة مُحرمة، وأخيرًا تلك التعليمات المبينة لكيفية تجميع تلك الآلة مبهمة الوظائف!

قال (إيجوفا) إنه سيرحل ولن نتقابل مجددًا، لقد أتم مهمته وصار له كل الحق بالمضي في حياته، ولن يستاء إذا ما علم يومًا أنني ألقيت ما أعطانيه في سلة المهملات أو قمت بإحراقه..

لم يهتم لشيء سوى معرفة اسمي، فلم يسألني عن وظيفتي، شعرت بشيء من الاستياء لبرودة ذلك الرجل كما لو كان عليمًا بكل ما يدور، فلو كنت محله لتراكمت عشرات الأسئلة في ذهني، ولأصبت بأرق طويل أعلم أنني لن أشفى منه قبل معرفة كل شيء!

* * *

عقب تفحص تلك الأوراق، وجدت أنها أثرية ومستحقة لموضعها في متحف ما..

تجاوزت مرحلة «مزحة يوم الميلاد» كوني على شيء من الوحدة، فلا

أنيس لي سوى هِرّي (إديسون)! فقررت التسلي بدراسة تلك الأوراق مباشرة..

شعور «ديجافو» اللعين طاردني قبل وبعد تلك التجربة، عقبما قابلت (إيجوفا) مباشرة، دائمًا ينتابني شعور أن كل ما حصل قد حصل سابقًا!

تتحدث الوثائق أو الأوراق عن آلات علمية مصنوعة منذ عام ١٩١٠، ثم تم إعادة تصنيعها للمرة الأولى في ١٩٣٠، ومرة أخرى في عامي ١٩٩٥/١٩٩٧

هنا، توترت معيدًا مطالعة تلك الفقرة أكثر من مرة للتيقن..

إذ هل قصد كاتب تلك الأوراق أن الآلات ـ أم هي آلة واحدة؟ ـ قد تم إعادة صنعها أو تجميعها في ١٩٩٥/١٩٩٧ بالفعل؟ أم سيتم ذلك كما لو كان يتنبأ بالمستقبل؟

لكني قطعت دابر الشك باليقين عندما شاهدت توقيع كاتب تلكم الأوراق تحت مسمى: (نيكولاي تيسلا)!

* * *

الطاقم الذي استجلبته ساعدني على إنهاء العمل باكرًا، فقمنا بتجميع القطع المطلوبة وتصنيع قطع أخرى، ثم تركيب كل قطعة على حدة..

خلال العمل تعرضت بعض القطع للتلف، فكان التسلسل الدقيق للآلة يدفعنا لتفكيك كل شيء والعودة لنقطة البداية!

بين الفينة والأخرى كنت أعود لمذكرات من قاموا بمحاولة تصنيع تلك الآلة كون وثائق (تيسلا) وصلتهم كما وقع معي، كنت أطالع

بشغف كما لو كانت رواية شائقة من روايات الخيال العلمي، ولكن دون أدنى معرفة بالنهاية لكل ذلك!

* * *

في عام ١٨٨٩، نشر أحد أصدقاء (تيسلا) ويدعى (صموئيل كليمنس) ـ والمعروف أكثر باسمه الأدبي المستعار (مارك توين)! ـ رواية تحت عنوان: «يانكي في بلاط الملك آرثر»، ويمكن اعتبارها أول رواية تتحدث عن السفر عبر الزمن!

ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه في تلك الرواية، ثمة ذكر للكهرباء المستخدمة في الإنارة!

بعد حضور واحدة من محاضرات (تيسلا) في إنجلترا، هرع المؤلف الشاب المدعو (هربرت جورج ويلز) ليشرع في تأليف روايته الأشهر: آلة الزمن!

كأن (تيسلا) لم يكتفِ بالتأثير على العالم علميًّا، بل أثر فيه كذلك أدبيًّا!

في عام ١٩٠٩، منحت جائزة نوبل للفيزياء للإيطالي (ماركوني) لاختراعه الراديو، وقد ضايق ذلك (تيسلا) كثيرًا كون (ماركوني) قد قام بسرقة اختراعه، ولحسن الحظ أن ذلك قد اتضح عام ١٩٤٣ من قبل المحاكم الأمريكية، وباعتراف من (ماركوني) شخصيًّا!

ومن بعد تلك الحادثة، اهتم (تيسلا) أكثر بتفاصيل تسجيل براءات اختراعاته الواحدة تلو الأخرى، بعدما كان مهملًا لذلك تمامًا..

لكن حادثته مع (ماركوني) حركت قريحته للانتقام، كان ذلك قبل ظهور حقه، وفي ذلك اليوم كان مستاءً من عدم أمانة المخترعين، فسافر

للمعرض العالمي في بروكسل كي يقدم للجنة سرية منعقدة هناك اختراعه الصاعقة: آلة الزمن!

سنة ١٩١٠ توفي صديقه الأديب العظيم (مارك توين) الذي أهداه رواية «يانكي في بلاط الملك آرثر»، ويبدو أن (تيسلا) أراد إثبات شيء من إمكانية ما ذكره صديقه المبدع الراحل في عمله المتخيل، وكذلك أن يضرب ضربة قاصمة للمخترعين جميعًا انتقامًا من (ماركوني) وأمثاله، وبذلك يضرب عصفورين ـ بالأحرى عشرات العصافير ـ بحجر واحد!

* * *

تجربة الزمن الأولى:

الفريق الأول: ١٤ أغسطس ١٩١٠

تجمع آلة (تيسلا) الغامضة بين المجالات المغناطيسية المتعددة، وذلك لفتح ثغرة قد تكون عشوائية في خط الزمن!

ثقب صغير أسود في الواقع، مخلق بواسطة الطاقة السلبية من لا شيء، وكبسولات الوقت هي أسطوانات النحاس المرسومة والمطلوبة في المخططات، التي تنص على أن الأسطوانة هي الشكل الأمثل لآلة الزمن، حاليًّا، تلك النظرية عبارة عن توحيد ميكانيكا الكم مع النظرية النسبية، وأجري بحثها من قبل العالم العظيم (ستيفن هوكينغ)، وقد اقترح (هوكينغ) شكلًا مخالفًا لآلة الزمن، مؤكدًا أنها يجب أن تكون مركبة منطلقة بسرعة لا تصدق..

تخالف نظرية (تيسلا) ما ذكره (ألبرت أينشتاين) بشأن جزء من

نظرياته، بأن سرعة الضوء تحديدًا ليست حدًّا لا يمكن التغلب عليه..

في فبراير ١٩٩٤، نجح اثنان من الباحثين في جامعة ييل في إنشاء الطاقة السلبية دون تعويض إيجابي البوزيترونات، من خلال الاعتماد عليه من العدم، فجعل ذلك السفر عبر الزمن ممكن بدنيًّا من الناحية النظرية!

تلك الطاقة الخطرة بإمكانها منع ثقب أسود من الانهيار، والمحافظة على بوابة من عصر لآخر، وهذا ما يعرف لدى العلماء بمبدأ كازيمير..

في عام ١٩٠٦، أرسل الأستاذ (كورن) أول صورة مستقبلية عن طريق الموجات الإذاعية، ولم تتم معرفة ما إذا نجحت التجربة أم لا..

ثم تم إرسال ثلاثة من العناصر الصغيرة - غير معروف ماهيتها بالضبط - في عام ١٩١٠، في أولى التجارب لتصميم آلة (تيسلا)، وفي رحلة مستقبلية لخمس سنوات قادمة، أي عام ١٩١٥، كانت التجارب عبارة عن تخبط وفوضى، لا أحد يعلم ما يتم إرساله وهل يصل أم لا ولمن بالضبط، المهم أنه يختفي داخل الآلة!

كانت تعليمات الأستاذ (فرانسوا) القائمة على التجربة منذ بدايتها بعدم لمس آلة (تيسلا) حتى ١٤ أغسطس من عام ١٩١٥، للأسف لم يستطع التنبؤ بأن الحرب العالمية الأولى من شأنها منع التجربة من الحدوث، وسيجري تدمير أجزاء حيوية من الجهاز إبان الحرب، ولكن سيعاد بناؤها جزئيًّا في ١٩٣٠ في وقت باكر لحل مشاكل الزمكان، من إرسال واستقبال على حد السواء..

ثم قمنا بحل جزء من أحجية آلة (تيسلا).. الدمج!

دمج الموجات الإذاعية لتلقي رسالة من المستقبل تفيد بأن رسائل أو

طرود الماضي المرسلة إليهم قد وصلتهم، وتم العمل على ذلك في حماسة، وقد فوجئت جدًّا في الواقع لدى تلقي رسالة من عام ١٩٩٧، جنبًا إلى جنب مع تفاصيل الاتصال الخاصة بي!

للأسف، أتت الرسالة مشوشة، لم نكن متيقنين من مكان البث، كل الإشارات تبدت بالغة التشوش.. كذا أذهاننا!

التخمين الأولي أن الرسالة التي وصلتنا آتية من قبل سليل لي في المستقبل، وبالتالي قد يحدث ذلك نوعًا من التغيير في الماضي، الأمر الذي قد يؤثر فيَّ أولًا وقبل كل شيء..

تعديل بسيط: ذلك التغيير قد يحدث لسليلي في المستقبل كذلك، لكني غير متيقن من شيء لغاية الآن!

* * *

الفريق الثاني: ١٤ أغسطس ١٩٩٧

نجتمع هنا الليلة في المختبر لمحاولة الاتصال بفريق من العام ١٩١٠!

كنا نظن الدروب طويلة وشاقة حول تنفيذ هذه التجربة، وقطعًا لا تخلو من خطورة، وبصرف النظر عن التناقضات التقليدية المشاركة في السفر عبر الزمن - وهو موضوع بُحث مطولًا في أدب الخيال العلمي - شعرنا أن هنالك مخاطرة تغيير نسيج من ماضينا، أو الانزلاق في بعد مخالف للتاريخ..

مع ذلك، في نهاية المطاف، يجب أن نعرف ما إذا كنا نستطيع تحذير البشرية من الأخطار التي تشكلها الوحوش البشرية من أمثال (هتلر) و(ستالين) و(شاوشيسكو)، ثم ربما بإمكاننا تحسين الأمور خلال هذا القرن الماضي لأجل غير معلوم!

نحن بالتأكيد سذج نوعًا، أو ربما نحن فقط نبحث عن ذريعة للعب دور الساحر المحترف.. أو حتى دور الإله!

لذلك، دعونا نفعلها.. دعونا نعيد تشغيل آلة (تيسلا) الغامضة لمعرفة كنهها، وهل تعمل حقًا أم هي مجرد خزعبلات!

الصفحة وسط هذه المجلة من المعرض العالمي ١٩١٠ ـ المؤرخة ٢٠ آب ـ تبين لنا خارطة للمعرض في بروكسل، ما يسمح لنا بتحديد المكان الذي وقعت فيه تجربة (تيسلا)..

لا توجد أي إشارة عما إذا كان لدينا تجربة نجاح أو فشل، سوف تكون هنالك حاجة لنا لمتابعة البروتوكول الذي وضعه فريق عام ١٩١٠.

التواصل معهم تجربة غريبة ومثيرة بحق، فبالنسبة لهم، نحن لم نولد بعد!

نحن نعلم أنهم سيفاجئون كذلك، لكنهم علماء، لديهم العقليات المناسبة كذلك لاستيعاب ما حدث، أوليس العظيم (تيسلا) من عصرهم؟ وهو من بدأ كل شيء بآلته العجيبة تلك؟

كل شيء يعمل بصورة جيدة، سينتج عما قريب ثقب أسود دقيق، ونحن بصدد إظهاره للمرة الأولى!

وفيما يلي أسماء العظماء الذين يشاركونني التجربة الرهيبة:

(بينوا دراغر): الفني الذي قام باستعادة الآلة بتركيبها قطعة تلو أخرى بصبر مثير للإعجاب..

(أنطوان ساليمباير): عالم الرياضيات للفريق..

ومساعدي الخاص: (ستيفنز نيكولا)، الذي سيقوم بدور المراقب المستقل والخارجي للتجربة..

لدينا كذلك مؤرخ متخصص لا أستطيع ذكر اسمه كونه فضل ذلك، وهو يراقب مع (ستيفنز) من بعيد ما يحدث..

بداية، أطلقنا على المشروع تسمية «كرونوس»، كان هذا قبل أن نجدها تسمية مباشرة ومرتبطة إلى حد كبير بتشبثنا بالعلوم الباردة ذات الأسماء والمصطلحات الشاعرية، فـ(كرونوس) هو إله الزمن الذي قتله ولده الإله (زيوس) في الميثولوجيا الإغريقية..

هكذا، تم تغيير اسم المشروع لاحقًا إلى «نقطة أوميغا»، نسبة للفرنسي (بيير تيلار دي شاردان)، للدلالة على حالة تطور الكون بحيث يصل إلى أقصى تعقيد بجانب التمركز..

بحسب (تيلار)، نقطة «أوميغا» هي تلك التي يصبح من خلالها الكون في حالة التعقيد المنظم أو بجوار التمركز، بحيث تكون مادته غير منتشرة وبنفس الوقت غير متفردة..

تخيل (تيلار) كون «الأوميغا» كمجرة حلزونية واحدة، نواتها ذاتية التعاكس ـ أي متجهة نحو ذاتها ـ، وتلعب دور المراقب الواعي، وتدبر أو تتحكم ببقية المجرات عبر الكم الميكانيكي..

في الوقت الراهن، تقوم البشرية بدور المراقب الواعي متصرفة

كالمسيح الجماعي، وبما أنها وصلت حدها في التنظيم المعقد، فإن البشرية ستقوم بنقلة إلى درجة أعلى من التفرد عن طريق الموت، وتفويض كل قدراتها على تدبير الكون إلى الفرد الواحد الناجي، والذي سيترقى تلقائيًا لمرتبة المسيح المتفرد!

وعندما يتم التحكم بالكون بواسطة المليارات من المراقبين البشريين، يصبح الكون غير متماسك، عندها يتواجد كل جزء في حد ذاته، وبعد أن يتحكم إنسان مراقب واحد كمسيح متفرد بالكون، سوف يتخلى الكون عن تنافره متحولًا إلى الجسد الكوني للمراقب!

عمومًا وبطبيعة الحال، وبعيدًا عن مزيد من التعقيدات.. تصنف تجربتنا هذه تحت بند «سري للغاية»!

* * *

تجربة الزمن الثانية:

واحد على الجهة اليسرى من الجهاز يتلقى برقيات من المستقبل، وواحد على اليمين يرسل برقيات للماضي..

كل شيء يعتمد على نوع من الكبسولات المستخدمة، تفعيل الجهاز في تمام الثالثة بعد الظهر، تم الإبلاغ باكرًا لحسن الحظ عن اهتزاز طفيف في كبسولة على اليسار (والتي كانت فارغة من العناصر أو الرسائل قبل تشغيل الآلة)، عناصر التجربة المرسلة عبارة عن قطع من الرخام والزجاج الملون..

خمس دقائق في وقت لاحق، دون مقاطعة تشغيل الجهاز، وضعنا قطعة رخام في الكبسولة اليمنى، وعندها اختفت إثر التشغيل مباشرة..

ولكن، لا شيء يصل عبر الموجات الإذاعية..

تجربة فاشلة إذن!

١٥ أغسطس ١٩٩٧

الآن ـ ونحن على قيد الحياة! ـ، سأحاول أن ألخص تجربتنا الناجحة والكارثية!

عقب تسلمنا رسالة أخيرًا من العام ١٩١٠ تشرح لنا امتلاكهم آلة (تيسلا)، وبأنهم تسلموا بعض رسائلنا والمواد التي قمنا بإرسالها، انتابتنا حماسة أقرب للجنون، ولشهر ظل التواصل بيننا وبين الماضي قائما وبنجاح..

بدأنا من خلال اختبار الأجهزة المختلفة للآلة، ومن ثم ربطها وفقًا للبروتوكول.. المطلوب إحالة إحداثيات جهتي التواصل، تاريخًا ومكانًا، وتاريخ ومكان تجربة الآلة، فضلًا عن اثنين من الأحداث التاريخية التي وقعت في العام ١٩١٢، أي بعد سنتين من التجربة..

قمنا بمجازفة متهورة للغاية، إذ أبلغنا عن إمكانية غرق السفينة تايتانيك (١٤ أبريل ١٩١٢)، وحقيقة أن في ١٤ أكتوبر ١٩١٢ سيحاول المدعو (جون شرانك) اغتيال الرئيس الأمريكي (روزفلت)!

تم الاقتراح كذلك لوضع حلول للقضاء على (أدولف هتلر) قبيل بدئه مخطط الحرب على أوروبا! إنهم لا يعرفون من هو حتى الآن، ولكن الأمر يستحق رصاصة واحدة دائمًا مقابل ملايين الأرواح البشرية!

تعرضت الآلة لعطب جديد إثر إرسال عملة نقدية قديمة.. المعدن يؤثر بالآلة كثيرًا..

وعندما انقشع الدخان، حسنٌ، لنقل أن العملة التي أرسلناها قد ظهرت في جرائد الماضي!

وأين وكيف ظهرت؟

أوضحت الجريدة أنها حادثة شنيعة في معرض بروكسل العالمي، فقد تعرض المعرض لحريق هائل إثر انفجار آلة (تيسلا) التي تمت تجربتها هناك، مساء ١٤ آب عام ١٩١٠، فتم تدمير مكتب المفوض العام، وقسم الكهرباء، ومن ثم المعرض بأكمله!

عقب تلك الحادثة توقف التراسل بيننا [illegible]، وعاودنا طرح حسابات جديدة لمعرفة ماهية الخلل في إرسال المعادن، و[illegible] سوى بإرسال الرسائل رغم تدمر آلة الماضي، وذلك على أمل أن [illegible] إصلاحها..

ثم بدأ ذلك الجزء من الجهاز العمل مرة أخرى، وظهرت رسالة غريبة من زمن غير زمننا لم نتمكن من تحديده:

«أوقفوا التجارب! الآلة مدمرة!»

* * *

تجربة الزمن الثالثة:

تركتنا تجاربنا حائرين محبطين عقب الإثارة، إذ لا رد يتم على رسائلنا المتسائلة لوهلة..

قمنا بعملية تنشيط للآلة كي تعمل أسرع في حدود خمس دقائق، وعاودنا إرسال قطع رخامية من اللونين الأبيض والأسود، وذلك فقط لمعاينة التعديلات الجديدة التي خففت من حدة اضطرابات عملية الإرسال للماضي، ومشاهدتها تختفي أمام أبصارنا..

الالتماعة الفضية الصادرة عن الآلة باتت الآن أقرب لضوء أزرق خلاب لسبب غير معلوم!

أثناء ذلك، أتانا مساعدي (ستيفنز) مهرولًا وهو يتعثر، كان يصرخ كمن فقد عقله حاملًا عددًا من الأوراق..

لقد أجرى بحوثًا أكدت جدية ما نقوم به، فعلى سبيل المثال سفينة التايتانيك غرقت، لكن مالك السفينة (بيربونت مورغان) رفض الذهاب على متنها في اللحظة الأخيرة..

الطريف أنه كان صديقًا لنيكولا تيسلا شخصيًا!

[illegible] أخرى تخبرنا أن الحرس الخاص لـ(روزفلت) حاولوا درء [illegible] عليه إثر تحذيرات وصلتهم من مجهول، تعاملوا معها بجدية تامة، لكن المحتوم وقع رغم كل شيء!

أما (أدولف هتلر) فقد نجا من محاولات كثيرة لاغتياله، ولكن لا يوجد دليل على أن أي شيء ما تغير في تاريخه عن طريقنا، لكن ما جمعه (ستيفنز) من أبحاث تاريخية ألهب مخيلتنا تمامًا جاعلًا حماستنا أضعافًا مضاعفة!

لكن الآلة لا تزال تعمل بصورة جزئية.. وهذا ما يجب أن يتغير!

* * *

تجربة الزمن الرابعة:

بطبيعة الحال، حاولنا معرفة أرقام اليانصيب الفائزة، وقوائم سوق الأوراق المالية، وذلك من خلال إرسالهم إلى أنفسنا من المستقبل للماضي!

هذا لا يعمل، لأن الأرقام ظلت تتغير باستمرار، ولم تتكرر بتاتًا!

عالم الرياضيات لدينا يعتقد أن هذا يرجع إلى الاختلاف في نظرية تأثير الفراشة، في نظرية الفوضى.. أي تغيير في الواقع ـ مهما كان صغيرًا ـ قد يغير الواقع تمامًا!

الصداع النصفي لا يزال يصيبنا عقب التجارب، وقد عزونا ذلك للموجات الصادرة عن الآلة عقب كل إرسال، المهم أنها تتلاشى عقب مدة من انتهاء كل تجربة..

* * *

الأربعاء ١٠ مارس ١٩٩٩

أهنالك آلة أخرى مخبئة في مكان ما؟

لربما بنى (تيسلا) نموذجًا يعمل حقًا، لكنه أخفاه نظرًا لخطورة نتائج استخدامه..

في اليوم الذي توفي به في يناير كانون الثاني عام ١٩٤٣، اقتحم وكلاء مكتب التحقيقات الفيدرالي ـ على الأقل هذه هي الطريقة التي عرفوا بها عن أنفسهم! ـ شقته، فاستولوا على ما وجدوه من مخططات ووثائق ونماذج تجريبية لديه..

يجب أن نتخذ احتياطات أكثر جدية.. فمن يدري؟

(٢١)

أطلق Z تنهيدة عابرة كأنما استرد ذكرى مؤلمة، وهو يحدق في قدميه الضخمتين الحافيتين..

في حين، تساءل (راهب) باهتمام:

ـ «آلة زمن؟!»

هنا، صمت Z وقد تصلبت ملامحه، فعاود (راهب) التساؤل بإلحاح:

ـ «أهذا ما نتحدث عنه هنا؟».

فردَّ عليه هذه المرة:

ـ «لأصدقك القول لستُ على يقين من شيء، لكنه رهان.. فهل أنت على استعداد لقبوله بدل التخبط بأنصاف الأفكار أو أرباعها كرفيقيك؟».

ـ «لكنه تخبط فعلي، وهو يخيفني!».

ـ «ويخيفني كذلك، لكني لا أعلم الغيب!

ما أعلمه أن الآلة أرسلتني للوجهة المضبوطة! كما لو كان دورًا مكتوبًا لي خصيصًا وعليّ تأديته بكفاءة، بتلك الطريقة علمت أنك الشخص المناسب لهذه المهمة الخطرة، وعلمت كذلك دورك ودور رفيقيك، وبالذات دور أحدهما متناهي الخطورة، والذي يتوجب علينا إيقافه.. صدقني.. الآلة تعلم!

لا توجد مصادفات، هنالك أمثولات تتحقق بما يشابه المعجزة في هذا العالم، حين تسمع بها لا يمكن أن تصدقها، بل وتسخر منها، لكنها تقع بالفعل..

لديك الكرواتي (فرانك سولاك)، مدرس الموسيقى الذي نجا من حوادث طائرات وقطارات وسيارات كان متواجدًا فيها كلها.. في الحادثة الأولى عام ١٩٦٢ كان في قطار قتل نتيجة حادثة مروعة داخله ١٧ شخصًا، وخرج هو منها بكسر في ذراعه فحسب!

وفي الحادثة الثانية كان على متن طائرة عقب حادثة القطار بسنوات، وقد قتل جراء حادثة انفجار الطائرة ١٩ ضحية، لكن حظه أوقعه على كومة قش، ليجد نفسه بعدها بأيام داخل المستشفى!

وفي الحادثة الثالثة عام ١٩٦٦ كان يستقل حافلة سقطت في النهر بعنف مخلفة عددًا من الضحايا، لكنه خرج حيًّا كالعادة..

وفي الحادثتين الرابعة والخامسة كان في سيارته، الأولى تمثلت في انفجار محرك السيارة بعد أن تركها بالصدفة، والثانية بعدها بثلاث سنوات عندما اشتعلت سيارته مرة أخرى، وخرج منها فاقدًا جزءًا من شعره فحسب!

في المرة السادسة صدمته حافلة على الطريق العام، ولم يحدث له شيء سوى إصابات طفيفة..

وفي المرة السابعة صدمت شاحنة سيارته، فترجل منها متسلقًا شجرة ليرى سيارته تنفجر وهو بالأعلى دون أن يصاب بسوء..

وبعد ذلك كله، ربح (سولاك) مليون دولار في اليانصيب عام ٢٠٠٣ ليصبح الرجل الأكثر حظًا في العالم!

ـ «حكاية غريبة.. تذكرني بنحس (علام)!»

ـ «ليست أغرب من حكاية عالم النفس الإسترالي (كين آندرسون)، الذي وقع في متزامنة مدهشة أثناء محاولته تأليف كتاب عن طبيعة المتزامنات نفسها! ففي إحدى المرات كان يرتب مكتبه، فعثر على رسالة بعثها شخص يدعى (غلين كوبر) يروي فيها مصادفة غريبة وقعت له، وقد راقت القصة لآندرسون فقرر ضمها إلى الكتاب... لكن الرسالة لم تكن تضم رقم هاتف، فقرر الاتصال بالاستعلامات والاستفسار عن رقم (غلين كوبر) كي يستأذنه لاستخدام قصته تلك..

وحين طلب الرقم من عامل الاستعلامات سأله الأخير مستغربًا: *«ومن يريده؟»*.. استغرب (آندرسون) من السؤال الذي اعتبره تدخلًا شديد الفظاظة من عامل الاستعلامات، فتجاهله وكرر طلب الرقم، إلا أن عامل الهاتف أصر على موقفه وسأله مجددًا: *«من يريده؟ فأنا الشخص المطلوب.. أنا (غلين كوبر)!»*.

أيضًا، هنالك حادثة سردها المؤلف الأمريكي (تيموثي جود) في كتابه «مصادفات أغرب من الخيال».. وهي حادثة رائجة في الشرق الأوسط

الفصل التاسع

الراهب

كنكتة طريفة عن الصياد الذي وجد في بطن السمكة التي اصطادها خاتمًا، لكنهم لا يعلمون أنها ليست نكتة، وبأنها حادثة حقيقية!

سيدة تزوجت حديثًا، فذهبت مع عريسها برحلة في نهر المسيسيبي، وأثناء قيامها برش الماء على زوجها بقصد المداعبة سقط خاتم زواجها في النهر، فحزنت لفقدانه طبعًا، ولكن بعد عدة أعوام ذهبت مع أطفالها في رحلة لصيد السمك، فاصطاد ابنها الصغير سمكة تقاربه في الحجم..

وفي المنزل وأثناء تنظيف أحشاء السمكة، عثرت السيدة على خاتمها القديم بداخل تلك السمكة!»

رمقه (راهب) بريبة قبيل تساؤله:

- «من تراك حقًّا؟»

تأمل Z ملامح (راهب) بثبات، ثم همس متسائلًا بتهكم:

- «أتريدني أن أسترسل في ذكرياتي الخاصة التي لا يمكن أن تثير اهتمامك؟».

ظل (راهب) صامتًا.. فواصل Z رمقه بتلك النظرات الثابتة، وقد برقت عيناه وهو يتساءل بشغف:

- «ماذا عنك أنت؟ أتعلم يقينًا من تكون؟ ما هي حقيقتك؟».

(٢٢)

الرحلة طالت كثيرًا، وحماسة الركاب فترت إلى حد بعيد..

صاح راكب كهل وقد فقد القدرة على مزيد من التحمل:

ـ «أمتأكد من أنه الدرب الصحيح؟»

أجاب السائق مجففًا عرقه بمنديل:

ـ «إنه صحيح ١٠٠٪ بالنسبة إليّ!».

لم يلفت ذلك الحوار السريع انتباه (راهب) بتاتًا..

عيناه لا تكفان عن تأمل الطريق المجهول، صارت الإثارة أكبر الآن ما دام الكل يتذمر، لا يعرف كنه الشعور الذي يخالجه بالضبط، لا يعرف وصفه..

حين أفاق عقب نوم بدا له طويلًا تخللته مجموعة متباينة من الأحلام المبلبلة، وجد نفسه بين حقول خلابة..

كان مرهقًا، مرهقًا بصورة غير طبيعية..

رمق فقط الجمال الطبيعي الخلاب حوله، ومن ثم سقط أسير سلطان النوم مجددًا..

ولما أفاق، اختلف المنظر..

ثمة بقايا ذاكرة في ذهنه، وجوه وأحداث عجيبة.. ذكريات أم أحلام؟ لا يعلم حقًا.. لكنه لم يتمكن من فهم أو تذكر شيء بصورة كلية، كل ما تذكره هو تلك الحقول وقد تبدلت الآن لطريق مقفر..

شعر هذه المرة أنه اكتفى من النوم الطويل، فتململ فوق مقعده..

الحافلة أتت وتوقفت في محطة مجهولة، والسائق التقطه دون الرغبة بسماع أي شيء..

ـ «هلم اركب، فليس لدي اليوم بطوله؟».

ـ «إلى أين؟».

ـ «اصعد واصمت!».

ففعل بريبة وحيرة معًا!

العرق يتفصد من الجلود الواهنة، والمرأة الوحيدة بينهم تقول بصوت قبيح مرتفع كزفاح القردة:

ـ «أأنت خائف على مكيف الهواء؟ لِمَ لا تشغله؟»

يرد السائق بعصبية بالغة:

ـ «معطل..».

ـ «اللهم أدمها علينا نعمة واحفظها من الزوال!».

ـ «اهدئي قليلًا، الجو مكهرب بما فيه الكفاية!».

فتصمت المرأة متبرمة، وتواصل القافلة التعيسة مسيرتها..

* * *

عندما آلت الشمس للمغيب صار الملل توجسًا، وصار الضيق شكًّا..

راكب شتم «العيشة»، وزعق الكهل بضوضاء بهيمية، وهلل عدد لا بأس به من الركاب بهيجان..

ساد الهرج والمرج، ولم تفلح محاولات السائق في تهدئتهم، حتى تهديداته بإنزالهم في العراء لم يأبَهْ لها أحد..

زعق السائق فلم يردعهم زعيقه، البعض يطالب بالرجوع، في حين استمر الكهل ـ ومن يماثلونه في التمرد ـ بشتم كل الظروف التي أوصلتهم إلى هنا!

ـ «كفى!! كفى يا أوباش!».

النحيب يزداد، والصراخ يرتفع، والمرأة تكاد تصاب بعَتَهٍ من كثرة الصراخ وسماعه..

ـ «وصلنا!».

ارتفع بها صوت السائق، نطقها بمزيج من الارتياح والغضب!

صمتوا لينظروا من النوافذ، فوقعت أبصارهم على فيلا نائية..

ـ «أمتأكد من أنه الدرب الصحيح؟»

كذا نطق الكهل بنبرة واهنة..

* * *

الفيلا من الخارج محاطة بسور خرساني، والبوابة ذات فولاذ صدئ، تحرسها كلاب يلجمها بمشقة رجل ضخم الجثة مخيف الهيئة..

زرع الحديقة عبارة عن الورد الجهنمي، في كل ركن من جنانها..

توقفت الحافلة في ساحة الفيلا، وهبط السائق على عجل وهو يبصق بتوتر سيجارته من شفتيه، في حين هتفت المرأة بخلاص:

- «أخيرًا!».

وهبطت هي الأخرى.. نبح أحد الكلاب بجنون، فأجفلت وهي تسبّه وتسبّ أباه، ثم تحسست صدرها الضامر لاهثة، العرق يتسرب تحت الإيشارب الخمري الذي انسدل عن شعرها الحنائي المعقوص، والحارس الضخم يدنو منها ومن السائق الذي رفع يدًا تطلب الهدنة من كلابه الشرسة..

* * *

اقتادهم الحارس إلى داخل الفيلا، حيث استقبلتهم امرأة ذات مؤهلات جسمانية مفتولة، ومقومات أنثوية شبه منفرة رغم ضخامتها، ذات بشرة قمحية تتغلغل بين حبيبات السمار المسيطر على اللون ككل.. تلف شعرها على هيئة قبة، وتشبك بيديها وراء ظهرها المشدود كأنما تواجههم بوقفة عسكرية، ثيابها قطنية مريحة، مقتصرة فقط على لونين، البني الداكن والرمادي الفاتح..

قالت أول ما قالت بأمر عسكري صارم:

- «أقل من ثلاثين سنة على اليمين، والبقية على اليسار!»

ولما تلمست ترددًا، صفقت بيدين حازمتين صائحة:

- «هلمّوا هلمّوا هلمّوا!».

نفذوا الأمر على مضض لتلك المعاملة، فزينت بسمة الرضا ثغرها أخيرًا..

- «ممتاز! الآن ستأتون معي يا شباب، السيدة ستذهب مع السكرتيرة لفوق!».

وظهرت من باب مجاور مفتوح امرأة، لكنها بدت لطيفة وهي تطلب بتهذيب من السيدة ذات الإيشارب الصعود معها للدور الأول، أو أنها كانت تصطنع اللطف كي لا تسمع اعتراضًا..

بدت الطريقة ناجعة، لكنها لم تفلح مع مرور بعض الوقت، إذ ارتفعت أصواتهم بهمهمات اعتراض غير منتهية، فعاودت المرأة الخشنة التصفيق قائلة بخشونة:

- «هلمّوا هلمّوا هلمّوا!».

صاح صائح منهم بعقيرة شابها السخط:

- «إلى أين يا سيدة؟».

- «لا أسئلة، اتبعوني حالًا..».

* * *

في قاعة سينما متوسطة المساحة اتخذوا مقاعدهم..

جلسوا متجاورين كأنهم يلوذون ببعضهم البعض، في حين تركتهم المرأة «البشعة» بعد أن أمرتهم بالجلوس وحسن المتابعة..

ما إن خرجت حتى تصاعدت الهمهمات، ثم صارت أصواتهم أوضح

وهم يتبادلون الآراء ـ والسجائر ـ حول ما يحدث..

ـ «يا لها من رحلة!».

ـ «عجيبة، أليس كذلك؟».

ـ «كل هذا لأجل مقابلات عمل؟».

ـ «أي عمل تراه؟ أوليس الأمر متعلقًا بحراس أمن؟».

ـ «أجل! بالضبط!».

تدخل (راهب) عقب تردد، فقال:

ـ «لا أظن.. لديهم جيش من الحراس هنا!».

قال الكهل وهو ينظر إليه:

ـ «ولا أنا أظن ذلك، الموضوع أكبر وأخطر!».

فانتابه الارتياح نوعًا لهذا التأييد..

ـ «صمتًا! وأطفئوا السجائر حالًا.. أين تحسبون أنفسكم؟!».

كذا هدرت المرأة المخيفة مفاجئة إياهم بعودتها المباغتة!

ثم اشتعلت الشاشة بغتة فصمتوا، وابتدأ عد تنازلي لصور أرقام مهزوزة بالأبيض والأسود، مع صوت العداد الذي ينطلق مع كل رقم:

١ ٢ ٣ ٤ ٥

* * *

انتهى العرض أخيرًا، وأظلمت الشاشة معلنة استغراقها الآن بعتمة النوم..

أضيئت القاعة، فبزغت لهم المرأة المخيفة كالبعبع!

قالت لهم باسمة بلزوجة:

ـ «أتمنى أن يكون ما شاهدتموه قد راقكم!».

كأنها لم ترتكب جرمًا..

وهتف الكهل بغيظ شديد ويده تروح وتجيء كرقاص الساعة:

ـ «ما هذه المسخرة؟! هل هذه طائفة لعينة ما؟ لا أرغب بالتورط في مثل هذه القصص!».

تجاهلت تعليقه مديرة ظهرها لهم قائلة بأسلوبها الجنرالي الكريه:

ـ «اتبعوني..».

نهضوا بوجوه شاحبة.. ثمة ما يخيف في الراشدين حينما تكون تصرفاتهم شاذة، إذا ما شاهد صبي راقصة شرقية على التلفاز، وابتدأت والدته بتقليدها طالبة منه الانضمام لها في الرقص، فلا يمكن نعته بسوء التصرف لأنه لم ينفذ ما طلبته!

صحيح أنهم ليسوا صغارًا، لكنهم بدءوا يشعرون بأنه قد تمت معاملتهم على أنهم كذلك!

وتفكر (راهب) هنيهة بالعرض الذي شاهدوه.. الجميع يرتدي أثوابًا بيضاء ويلوحون للكاميرا بسعادة، والحديث الذي بلغ حد التأليه عن زعيمهم وقائدهم المبجل الذي لم يذكروا اسمه، لكنهم أعلنوا صراحة أنهم يتبعونه حتى الموت!

لقد أدمن المطالعة كثيرًا عن مثل تلك الجماعات المخبولة، وشاهد

عددًا لا يستهان به من الأفلام الوثائقية الصادمة عنهم.. أخوية معبد الشمس التي زعمت أنها تروج للمفهوم الصحيح للسلطة العالمية، ومساعدة الإنسانية من خلال المرحلة الانتقالية الكبرىٰ عبر التحضير للمجيء الثاني للمسيح، باعتباره إله الشمس الأوحد..

أخوية (جيمس وارن جونز) أو (جيم جونز)، الذي أسس معبد الشعوب في سان فرانسيسكو، والدته كانت تؤكد أن ابنها هو المسيح المنتظر، رغم أنه كان يعذب الحيوانات منذ الصغر لدرجة طعن القطط بضراوة..

(شوكو أسَهارا) زعيم منظمة «آووم شنريكيو» أو «الحقيقة المطلقة»، وقد زعم أنه التجسيد الحي للإله الهندوسي «شيفا»، وبأنه سيقود جماعته في حرب «هرمغيدون» الفاصلة وسينتصرون..

الشيء المشترك بين أولئك كان النهايات المفجعة دائمًا، في عام ١٩٩٤ قتلت أخوية معبد الشمس طفلًا معتقدة أنه المسيخ الدجال، ثم أقامت طقوس العشاء الأخير لينتحر بعد ذلك أفرادها بالسم والرصاص، وقد وجدت الشرطة بعض الرسائل التي تركوها، يتحدثون فيها عن مدىٰ بغضهم للحياة، وقرارهم الجماعي بالهرب من تعاسة العالم..

طائفة (جونز) راح ضحيتها ما يربو عن الـ٩٠٠ شخص من بينهم ٢٠٠ طفل، ففي عام ١٩٧٨ شرب الجميع الماء المخلوط بسم السيانيد، إضافة إلىٰ قتل خمسة آخرين بالرصاص قرب مدرج للطائرات، من ضمنهم عضو كونغرس أمريكي أتىٰ لتقصي حقيقتهم..

أما (أسهارا) فلم يرحل بهدوء قبل أن يأمر عام ١٩٩٥ أعضاءً من طائفته بتنفيذ هجوم في مترو أنفاق طوكيو باستخدام غاز السارين، فأدىٰ

ذلك إلىٰ مقتل ١٢ شخصًا وتأثر الآلاف من آثار الغاز، وإثر تلك العملية الشنعاء اعتقل عشرات المنتمين للجماعة وتم إيقاف نشاطاتها نهائيًّا، كما حكم علىٰ زعيمها (أسهارا) عام ٢٠٠٦ بالإعدام..

خرجوا من القاعة وراء دليلتهم السياحية المنفرة..

كانت تقتادهم في الممر مجددًا، عندما توقف الكهل فجأة صارخًا:

ـ «لستُ مرتاحًا.. أريد العودة!».

توقف رفاقه لينظروا إليه بحيرة مازجتها الشفقة، وتوقفت هي الأخرىٰ قبل أن تقول بازدراء مستهزئ:

ـ «لمشاهدة العرض مجددًا؟»

ـ «للمنزل!».

ـ «هممم!».

ـ «لم أعد راغبًا بوظيفتكم، كل شيء هنا داعٍ للريبة!».

ـ «هممم!».

ـ «أين طريق الخروج؟!».

ـ «هممم!».

ازدادت نظراتهم شفقة، فشعر بأنه قد عاد صبيًّا من جديد!

ودنت المرأة منه لتمس كتفه، فدفعها بغلظة..

لم تأبه، بل رمقته بجمود هامسة:

ـ «أنت بحاجة لهذه الوظيفة، ثق بي!».

تأملها بدهشة، والغريب أنه أومأ برأس منكسة مستسلمة!

* * *

تبدت القاعة قريبة من ملعب لكرة السلة، مجهزة ببضع أدوات مثيرة للاهتمام، حيث وضعت أجهزة أشبه بالمتواجدة في صالات الرشاقة أو رفع الأوزان الثقيلة، لكنها متطورة أكثر..

ثمة واجهة عملاقة عبارة عن مرآة، تحتل جدارًا كاملًا يقابل القاعة، المداخل والمخارج خاضعة لحراسة رجال أشداء يرتدون بدلات بيضاء ونظارات معتمة، ويتمنطقون بمسدسات لا يواورنها بتاتًا..

ولحق الطابور البائس من أولئك الذين أتوا بالحافلة بالمرأة البعبع، حيث تقدمتهم ككولونيل يدير معتقلًا، في حين يتلفتون يمنة ويسرة كي يرمقوا ذاك السيرك المجهز أمامهم باستغراب وحيرة بالغين!

صاح أحدهم فتردد صداه مطولًا في أرجاء القاعة العجيبة:

ـ «ما هذا بالضبط؟ اختبارات بدنية لتحديد مستوى اللياقة؟»

بزغ توتر على وجه الكهل، ولم ينطق بكلمة مراقبًا ببصر متسع الأجهزة والمعدات الموزعة بعناية في أرجاء القاعة..

فبين ثنايا أضلعه يرقد قلب واهن واحد من صماماته الرئيسية معطب، حيث لا يعمل كما يتوجب، ومعنى ممارسته جهدًا رياضيًا عنيفًا أن..

تنحنحت المرأة قبيل قولها بصرامتها الكاسحة المعتادة:

ـ «كما شاهدتم في العرض.. أنتم هنا بناء على مطلب من قائدنا المبجل، ملك الحقيقة المطلقة!».

تفكر (راهب) بملامح خاوية.. دائمًا ثمة شخص مخبول دجال يظهر زاعمًا أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، ومن ثم يتوج نفسه ملكًا على عرشها!

ـ «ولأن العالم الأرعن قد رفض مبادئه القابلة للتطبيق بيسر، المفسرة لأهم القوانين الأساسية للحياة، المبينة أسباب تصرف الإنسان بطريقة ما دون سواها، والراسمة لما هو أفضل، فقد قرر الرحيل عن هذا العالم الضال وأخذنا جميعا معه!».

وتبسمت بازدراء لما تبينت ردود الأفعال المرتاعة في وجوههم، فقالت كأنما تبصق:

ـ «لا تقلقوا.. ستظلون هنا ملتصقين على القار الأرضي العفن كالديدان، بل وستكسبون كثيرًا مما بإمكانه إرضاء جشعكم ونهمكم للمال الزائف لتستمروا بعيش حياتكم الزائفة، كل واحد منكم سيظفر بعشرة آلاف دولار نظير بقائه للإشراف على عملية الرحيل!».

تبادلوا نظرات غير مصدقة، نظرات تتقاطر جشعًا تمامًا كما أكدت المرأة المخبولة..

وتساءل الكهل وبسمة صفراء مبتهجة تعلو ثغره:

ـ «ومتى يكون رحيلكم المزعوم هذا؟»

ـ «سيتم اطلاعكم على الميعاد، وهو ـ بالمناسبة ـ قد بات قريبًا جدًا!»

ـ «في حدود.. أيام؟».

ـ «أقل..».

تبادلوا العبارات الهامسة وبسمات راضية تلوح في تقاسيمهم، فتأملهم

(راهب) كالمصدوم وهو يرفع راحة يده عاليًا..

ـ «ماذا؟».

كذا تساءلت المرأة بتأفف، فتساءل هو الآخر مهمومًا:

ـ «أين المرأة التي كانت معنا؟».

ـ «ستكون مهمتها التكفل بالأطفال، ولربما الخادمات كذلك!».

ـ «أطفال؟!».

رمقته بنظرة جعلته يصمت، وجد أن مناقشتها ستكون مضيعة للوقت ولربما مخاطرة أيضًا، عليه بالمسايرة حاليًا..

ـ «ألديك تساؤل آخر يا هذا؟».

ـ «أجل.. لاحظتُ أنكم تمتلكون حراسة مشددة.. لستم بحاجة إلينا!».

ـ «ملاحظة بمحلها.. لكنهم جميعًا من أتباعنا المخلصين، وسيرحلون معنا.. كلهم.. عليكم بالبقاء والتأكد بأن الكل قد رحل بلا تخلف!».

ـ «وماذا لو غير أحدهم رأيه؟».

ـ «الكل.. دونما استثناء، من تخلف فقد خان عهد القائد المبجل ووجب أن يظفر بالعقاب!».

ـ «الموت.. الذي أنتم سائرون إليه بكل الأحوال كمكافأة من نوع ما!».

ـ «ماذا تقصد؟».

ـ «لا شيء!».

وصمت (راهب) مقررًا ألّا يُكابر أكثر، سيراقب الوضع عن كثب..

* * *

ساعات النهار تمضي بسرعة جنونية، وساعات الليل تسير برتابة رقاص الساعة..

(راهب) صامد دون تعب، كأن ما نامه سابقًا قد كفاه، إذ لا يكاد يشعر بالنعاس كسائر البشر..

سهاده ساعده في تبيان الأحوال الجديدة لتلك الفيلا التي يتصرف أصحابها بكل غرابة، ناهيك عن أحداث دفعته للتحفز والتيقظ كذلك..

الأمور ليست طيبة.. ليست طيبة على الإطلاق!

في الليلة السابقة، انتحرت طفلة ذات ثمانية أعوام ورداء أبيض.. إذ صعدت للطابق العلوي من الفيلا، ورمت بنفسها من إحدى الشرفات.. رغم أن ميعاد الرحيل الجماعي لم يحن بعد!

كان يراقب الخادمات ـ وعلى رأسهن المرأة ذات الإيشارب القرمزي التي رافقتهم في الحافلة ـ وهن يخرجن جثة الطفلة الملفوفة بمفرش مطبخ متسخ بالشحوم والدماء، يراقب عملية دفنها في الحديقة، يفكر في أن الورد الجهنمي سيقتات الآن على سماد طبيعي ١٠٠٪!

يتذكر، يتذكر الصراخ.. لقد مزق صراخ الأطفال الجدران، تردد عاليًا حتى سمعته الكلاب خارجًا فنبحت!

لكنهم لا يكترثون، لا يأبهون، هؤلاء سادة العالم رغم خبلهم الظاهر!

يصنعون ما يبغون، والصغار البؤساء عبيدهم بالإخضاع والذل، كذلك من أتوا معه بالحافلة لكن عن طريق المال، وأولئك الخدم كلابهم التي تنتظر قطع اللحم الملوثة بدم الصغار كي يقتاتوا عليها بشغف وانتشاء!

هل سيرحل الجميع حقًّا؟

انتحرت طفلة، ثم توفي طفل بسبب سكتة قلبية حسب كلام المرأة البعبع.. ما لم تذكره أن البائسين قد قضيا من شدة الفزع!

لقد صمد الأطفال بسبل غير منطقية، استسلموا ورضخوا لممارسات لم يروها حتى في أسوأ كوابيسهم، الطفل المتوقَّى كان شيئًا ضئيلًا قابلًا للتهشم بسهولة، لو نفخت عليه لسقط من فوره مبعثرًا..

أهي تنشئة ذلك القائد المزعوم لهم؟

في الحمامات، يتم اقتياد الصغار من قبل الخادمات وتطهيرهم بعناية كل يوم.. فحسب حديث المرأة البعبع لا بد أن يبقوا كذلك استعدادا لمرافقة ذلك القائد ـ اللعين ـ المزعوم للسماء!

أحيانًا كانت الخادمات القبيحات يضربن الأطفال بقسوة وغلظة كي لا يتحركوا أثناء فركهم بالليف الغارق بالصابون، يصرخن مطالبات أياديهم بأن تظل مرفوعة لفوق وكأنهم نالوا عقابًا في الصف..

والغريب حقًّا أن كل ذلك يتغير عندما يحين ميعاد النوم، إذ تظهر سيدات شديدات الرقة كممرضات ملائكة الرحمة لتغطية الأطفال ولطبع قبلات على جباههم دونما استثناء، ومن ثم تجلس واحدة على مقعد يتوسط الأسرة لتسرد ذات الحكاية ككل ليلة.. حكاية الأميرة (بياض الثلج) والأقزام السبعة التي يبدو أنها تروق للأطفال!

وقبل البدء، تسألهم عمّا إذا كانوا راغبين في سماع «النسخة المعدلة» من الحكاية، فيجيبون بـ «بنعم»، تسألهم «ولماذا؟»، فيردون: «لأنها أكثر إثارة»!

وعندئذ، تشرع بسرد حكاية مفعمة بتفاصيل جديدة، لربما من ابتكارها، فتارة تجعل الحكاية أكثر رومانسية، وتارة أخرى تجعلها أكثر شناعة ودموية..

قد كانت تمتلك موهبة قصصية لا بأس بها، أو أنها تسرد فحسب نسخة مدونة ومعدلة بقلم قائد الحقيقة المبجل شخصيًّا!

* * *

في صباح يسبق يوم انتحارها، جلس (راهب) إلى جوار تلك الطفلة الرقيقة ذات الثمانية أعوام على مائدة الإفطار..

يطعمونهم أفخر أنواع البيض والعسل والمربى والحليب، يعدونهم لليلة تلو الأخرى، الحليب + البيض + المربى + الزبدة = البروتين + الكربوهيدرات + الكالسيوم..

سألها برفق:

ـ «أتعلمين ما يحدث هنا بالضبط يا عزيزتي؟».

تذكر نظرتها الخاوية إليه.. منتفخة الأجفان مجعدة الجبين، صارت ذابلة، شاحبة، ممتقعة..

لكنها نطقت، إذ قالت كمن يُسَمِّعُ نشيدًا حفظه عن غيب استعدادًا لاختبار:

- «القائد الجميل سيصحبنا معه.. للسماء.. سيأخذنا في أحضانه المموجة إلى مكان أفضل!».

وهنا، تصفق المرأة البعبع بحزم أن «امنعوا الكلام وواصلوا الطعام»، وهي ترمقه بنظرة صارمة كي تدفعه للنهوض..

* * *

لم يفكر بالهرب..

بات كل همه إيجاد وسيلة لتحرير أولئك الصغار، ولو بدوا مرحبين بما يحصل معهم بسبب غسيل الأدمغة الوحشي الذي تعرضوا له..

سمع صوت جلبة، فنهض من فراشه في الغرفة التي منحوها له، وما إن دنا من فرجة الباب شبه المواربة حتى سمع صوت ضحكات..

تسمر مترددًا، وانتظر حتى اقترب الصوت أكثر..

وعندئذ، مرت أمام بصره خادمة وهي تركض ضاحكة كالبلهاء، وقد تسترت بشرشف أبيض.. لكنه صعق عندما مرَّ أيضا طفل من الطائفة بردائه الأبيض وهو يركض وراءها ضاحكًا هو الآخر، وقد تمَّ صنع ماكياج مهرج لوجهه باستخدام أدوات زينة نسائية!

خرج مقررًا اللحاق بهما، فلم يتنبه بأنه هو نفسه ملاحق!

لم يتنبه سوى لدى محاولته فتح الباب التالي حيث توارى الطفل المهرج والخادمة الوضيعة، ولما تلفت، بوغت بضربة فائقة الضراوة من كعب بندقية على فكه!

هوى أرضًا محاولًا - بذعر - مغالبة تسرب وعيه منه، لكنه لم يفلح

سوى برؤية زميله الكهل - الوغد! - ببصر مقوض وهو يعدل بندقيته، وينثني على ركبة واحدة مدمدمًا:

- «عذرًا.. أخبروني أنك تسعى للمتاعب! وأنا بحاجة ماسة لذلك المال!»

كان ذلك آخر ما تمكن (راهب) من التقاطه بأذنيه.. قبيل غيابه عن وعيه تمامًا..

الفصل العاشر

الملجأ

(٢٣)

قبل تساؤله أين موقعه بالضبط.. لاحظ شخصًا مسنًّا يقف أمام واجهة حانوت ما وهو يرمقه مأخوذًا!

حاول النهوض، في حين سارع المسن بالهرولة إليه متلفتًا يمنة ويسرة، ولما بلغه أسرع يهتف بحماسة منقطعة النظير:

- «قد كان على حق!».

- «من؟».

- «هو دائمًا على حق وقلما يخطئ.. قال إنك ستكون هنا.. في الخامس عشر من أغسطس يوم الأربعاء.. تمام الساعة السابعة صباحًا!».

- «أمر داعٍ للطرافة!».

ونفض (راهب) الغبار عن ثيابه، في حين عدل المسن شبيه (آينشتاين) عويناته الطبية الضئيلة فوق منحنى أنفه، مردفًا بانبهار:

- «أنت تائه!».

ـ «وأنت ذكي!».

ـ «تائه ومشوش الذهن.. ولربما الذاكرة كذلك!».

توقف (راهب) عن نفض الغبار ليرمق المسن بحيرة بالغة..

* * *

معًا دخلا تلك المكتبة العامة التي يديرها ذلك المسن..

أخبره أنه الآن في «سميلجان» الكرواتية، لكنه لم يسمع أساسًا بها!

ـ «هي مسقط رأس العبقري (نيكولا تيسلا)!».

ـ «لم أسمع به..»

ـ «لم تسمع بـ(تيسلا)؟! يا لشباب هذه الأيام! ترى من أي زمن أتيت بالضبط؟».

لحق بأمين مكتبة «سميلجان» الذي كان يسير بخطوات سلحفائية، وانتظر قيامه بفتح باب خلفي في نزله الداخلي داخل المكتبة بمفتاح عتيق وصدئ، ليظهر أمامهما قبو تؤدي درجاته الحجرية لأسفل..

ـ «إلى أين؟».

ـ «ثمة من يود مقابلتك!».

كان يتحدث متقدمًا إياه لأسفل، فلحق به (راهب) بصمت هذه المرة..

في قلب القبو وجد المكان على قدر غير سيئ من التنظيم، إذ ثمة صناديق متراصة لتشكل طوابق متوازية، وشاشة عرض، ومجموعة من رزم الجرائد الموثقة..

وفي منتصف القاعة كرسي معدني مثبت للأرض بمسامير فولاذية، عليه، جلس شخص ضخم متأنق الهندام ذا عوينات طبية منحته مظهر مدير بنك.. كان Z بذاته! وقد عكف بقلم رصاص على رسم «بورتريه» بارع لوجه تبدئ مألوفا، كان يبدو نسخة متقنة من وجه (راهب)!

نهض ليتبدئ عملاقًا مهيبًا، وتقدم مادا راحة يده المشعرة طلبا للمصافحة..

صافحه (راهب) بريبة، في حين دمدم أمين المكتبة منسحبًا ببطء:

ـ «ها هوذا يا (إيجوفا).. تمامًا كما توقعت!».

ـ «أعلم ذلك يا (حمزاتوف)، كما أعلم أنك ذاهب لتحضير القهوة لنا!».

غادر أمين المكتبة المكان دونما اعتراض، فعاود (راهب) تأمل مضيفه متسائلًا بحذر:

ـ «والآن ماذا؟».

ـ «الآن تنصت إليّ وبتركيز تامٍّ، صحيح أنني لا أعلم عنك الكثير، من تكون ومن أين أتيت بالضبط، لكنك ستساعدني، لقد رأيت ذلك، أعلم أنك ستساعدني، وبالمقابل سأساعدك!».

ـ «تساعدني بماذا؟».

ـ «بالمعرفة.. ولربما التذكر!».

صمت (راهب) متفكرًا، ومن ثم عاود التساؤل باهتمام:

ـ «وأساعدك بماذا؟».

سار الضخم المدعو (إيجوفا) بخطوات متثاقلة قائلًا بإنهاك:

ـ «أعلم أنك ستصمد معي هنا، وهذا مهم!».

ـ «أنت تحسب بأنك تعلم الكثير عني!».

ـ «لندع ذلك لوقت لاحق.. المهم أنه في حوالي الساعة التاسعة سيصل عميلان مهمتهما تسلمي كسجين هامّ لاستجوابي، وقد تم الإبراق لهما أنهما سيعملان برفقة عميل ثالث.. ذاك العميل سيكون أنت!».

ـ «ولِمَ تؤدي دور سجين وأنت ـ تَبَارَكَ الرحمن ـ بإمكانك توزيع الأدوار؟».

ـ «أنا و(حمزاتوف) بعيدان كل البعد عن أجهزة الاستخبارات المحاولة نيل السر الذي نحاول إخفاءه، وبذات الوقت نسعى للوصول إليه قبل أن تفعل الأجهزة الأمنية الأخرى، سيقوم أحد العميلين بتعذيبي محاولًا استخراج معلومة معينة مني، وسيتم ذلك في مكان خاص، على مرأى ومسمع منك، فلا يسعك التدخل بتاتًا.. مهمتك في ذلك المكان الخاص أهم!».

ـ «حسنٌ، لدي عشرات الأسئلة التي تجول ببالي، لكني سأحاول التركيز منذ الآن واختصار تلك الأسئلة الملحة في ذهني.. ما هو ذلك المكان الخاص بالضبط؟».

ـ «ملجأ آمن كما تعتبره أجهزة أمنية من طراز استخباراتي خاص، على هذا الأساس نحن ذاهبون إليه، لكنه ليس بملجأ عادي، بل هو مكان على درجة عميقة من الأهمية، بناه (نيكولاي تيسلا) شخصيًّا!».

ـ «الشخص الذي تكررون اسمه برهبة عجيبة وبكل تبجيل..».

ـ «اختراعه الأهم والأخطر يقبع في ذلك الملجأ، هناك سنذهب، حيث يتم استجوابي لمعرفة اسم زائف للتمويه!

لا تشغل بالك مع زميليك، سأضيع وقتهما بالإنكار، ولدي القدرة على ذلك، أريدك فقط ـ حين يحين الوقت ـ أن تساعدني على تشغيل الآلة التي صممها (تيسلا) ومنع أي شخص آخر من استخدامها..».

ثم إنه استخرج من طيات ثيابه مسدس «ويبلي» ٤٥٥ ملم عادي طويل الفوهة كان مستخدمًا إبان الحرب العالمية الأولى والثانية، صِنفه بريطاني من نوع خزان الطلقات الدوار ذات الرصاص الصلب غير المغلف، وتبسم قائلًا:

ـ «سيزودك (حمزاتوف) بهذا السلاح حين تحضر مع زميليك، وبإمكانك الاحتفاظ به عقب انتهاء المهمة لبيعه بمبلغ هائل!».

ـ «أهو ثمين لهذه الدرجة؟».

ـ «ولربما لا يقدر بثمن.. استخدمته في حقبة عتيقة لقتل شخص سيئ للغاية، أطلقت على جبهته الرصاصة الأخيرة للتيقن من هلاكه، كنتُ وقتها إنجليزيًّا يدعى (أوزوالد ثيودور راينر)، لو رأيتني لما تعرفتني نهائيًّا، إذ كنت أنحف وحليقًا وخفيف شعر الرأس للغاية! وكنتُ أعمل كعميل لصالح الاستخبارات البريطانية الخارجية في روسيا أثناء الحرب العالمية الأولى، ولاحقًا صرت مراسل «الديلي تلغراف» في فنلندا عقب أن وضعت الحرب أوزارها..

كنتُ أجيد اللغات الروسية والألمانية والفرنسية ولا زلت، وقد اشتركت في لحظة تاريخية عام ١٩١٦ في مخطط الاغتيال النهائي ضد الشخص الذي أخبرتك عنه، شخص رهيب يحسب له ألف حساب، إذ

كان يتعامل مع قوى الظلام! واستغل نفوذه لإجبار آل (رومانوف) على سحب جيوشهم من الحرب ضد الألمان لتساقط مليون ونصف المليون من جنودهم..».

تأمله (راهب) لوهلة، ثم تساءل مهمومًا مغيرًا دفة الموضوع دون ذرة فضول لمعرفة كنه ذلك الشخص الرهيب:

ـ «لِمَ الحماسة الزائدة للتعرض للتعذيب كي تشغل آلة ما؟ ماذا يحدث إن لم تشغلها؟».

ـ «سيتم تشغيل الآلة حتمًا، ومن المهم أن يتم ذلك على النحو الصحيح وإلا..»

ـ «وإلا ماذا؟».

ظهر (حزاتوف) في تلك اللحظة جالبًا القهوة، فتوقف (إيجوفا) عن التجوال هنا وهناك، قائلًا وهو يعود لمقعده:

ـ «لنقل بأنني أحاول إنقاذ هذا العالم البائس من خطر مروع يتوعده، وليس بإمكاني فعل ذلك من دونك..

والآن، دع (حزاتوف) يأخذك لتناول وجبة جيدة، وبعد ذلك سيشرح لك ما عليك فعله بالضبط، متى وكيف يتوجب عليك لقاء زميليك!».

(٢٢)

ـ «أين الآلة يا (إيجوفا)؟».

نهض من مكانه رافعًا بصره نحو (راهب)..

[illegible] اتجاهه مغمغمًا بهدوء:

ـ «[illegible].. الممر السري المؤدي إليها سينكشف لنا إذا ما قمنا بتعديل توقيت الساعة، وبإضافة المفتاح للوحة!».

وأظهر من بين أصابعه مجسمًا ضئيلًا للغاية لعلم فضي، فتأمله (راهب) مليًا قبيل تساؤله بشيء من استغراب:

ـ «أهذا هو المفتاح؟».

ـ «لا يبدو كواحد.. أليس كذلك؟».

ـ «واللوحة؟».

ـ «يبدو أنك بدأت تجهد نفسك يا صديقي! إياك والاستسلام الآن..

لا يوجد غيرها، لوحة غويرنيكا ل(بابلو بيكاسو)!».

ثم تحرك صوب الباب هامسًا بحسم:

ـ «إذا انطلقنا الآن فستمكن من النزول دون أن يلاحظ زميلاك ذلك.. هما مشغولان الآن مع كوابيسهما الخاصة..».

* * *

لم يقاطع أحد هبوطهما للدور السفلي تمامًا كما ذكر (إيجوفا)!

توجَّهَا حيث تقبع اللوحة والساعة، فانتقى (إيجوفا) من اللوحة موضعًا كثقب الإبرة يصلح لدس مفتاح «العلم» هنالك، ثم اتجه للساعة وعدل عقاربها لتشير لتمام الثانية عشرة..

أطلقت الساعة ثلاث دقات منتظمة، ثم انزاحت اللوحة..

بالأحرى انزاح الجدار برمته، فكشف عن سلالم حجرية مؤدية للأسفل!

لحق (راهب) بمرشده، فهبطا تلكم السلالم حتى وجدا نفسيهما في مكان دفع الأول لإطلاق شهقة..

بدا للوهلة الأولى كقاعة متحف أثرية، المدخل نقشت عليه الأحرف التالية:

יהוה

وهو مصطلح «تيتراغراماتون» الرامز لاسم الرب العبراني «يهوه»!

ثمة على الجدران نقوش لأحرف بالشكل التالي:

ἁγιασθήτω τὸ ὄνομά σου

كانت تلك الأحرف يونانية، مأخوذة عن الإصحاح السادس والعاشر من إنجيل متى، وترجمتها: *«ليتقدس اسمك»*..

أما البلاط فكان مصقولًا كالمرآة، وقد رسم عليه دائرة تمثل الشكل التالي:

☯

وهي دائرة «الين» و«اليانغ» الرامزة لكيفية عمل الأشياء، فالدائرة ترمز لكل الأشياء، في حين يرمز اللونين الأسود والأبيض داخلها للتداخل ما بين طاقتين متضادتين!

على الجدار الأيمن صورة لرمز الصليب، واليسرى لنجمة داوود، وبالمنتصف ثمة هلال عليه حجر دائري كرقاص قابل للتحريك، ما إن تقدَّما منه حتى وجدا عليه نحتًا بأحرف إنجليزية كالتالي:

GODISNOWHERE

ـ «اخلع نعليك.. فأنت في المحراب المقدس!».

فعل (راهب) كما أمر مرشده حافي القدمين، ثم تبعه لداخل تلك القاعة المبهرة متمعنًا في كل تفصيلة برهبة..

طلب (إيجوفا) من (راهب) جلب معول يستند لتلك الأرفف الخشبية، وعندما ناوله إياه شمر عن ساعديه، وشرع يضرب أرضية

القاعة في الزاوية بغية حفرها، إلى أن بزغت أنابيب نحاسية مدفونة بطول ٦٠ سنتيمترًا كنوع من الإمدادات الصحية، ويبدو أنها تتفرع من شيء أكثر ضخامة!

نظر (راهب) لإيجوفا غير فاهم لشيء، فهمهم الأخير متحمسًا النقش:

ـ «آلة الزمن.. التي كان المسعى منها شيئًا أكبر وأهم!».

ـ «ألا وهو..؟!».

تنهد (إيجوفا) مردفًا بتقطيبة:

ـ «قل لي.. هل تؤمن بالله؟»

ـ «أجل!».

ـ «قلت أجل وذلك جيد، لم تقل بالطبع أو يا له من سؤال، وهذا سيئ، والأسوأ أن تقول لا!

لكنك قلت أجل.. ذلك جيد جدًّا!».

ـ «وما علاقة ذلك بأي شيء؟».

ـ «له كل العلاقة! والآن أخبرني.. هل تؤمن بقانون المصادفة؟».

ـ «لا أعلم.. ربما!».

ـ «كما أخبرتك سابقًا.. لا توجد مصادفات، بتاتًا! ستذهل حين تعلم كيف يسير الأمر، نحسب بعض الأمور مجرد مصادفات، لكنها ليست كذلك، كل شيء معد حسب سيناريو إلهي متقن لن تصدق وجوده،

ولحسن الحظ أن شذرات منه تلوح لنا من حين لآخر في الأفق كي نتفكر..

الثورة الفرنسية على سبيل المثال كانت بداية ظهور (نابليون بونابرت) عام ١٧٨٩، في حين، وقعت الثورة الألمانية التي أنجبت (هتلر) عام ١٩١٨، والفارق الزمني بين الحادثتين هو ١٢٩ عامًا..

كل منهما لم يولد في المكان الذي حكمه، إذ ولد (نابليون) في جزيرة كورسيكا وحكم فرنسا، أما (هتلر) فولد في النمسا وتزعَّمَ ألمانيا، واعتلى (نابليون) عرش فرنسا عام ١٧٩٩، في حين، تسلم (هتلر) حكم ألمانيا عام ١٩٢٨، والفارق الزمني هو ١٢٩ عامًا أيضًا!

وقد بدأت حملة (نابليون) على روسيا عام ١٨١٥، أما حملة (هتلر) لغزو روسيا فبدأت عام ١٩٤١، والفارق ١٢٩ عامًا!

خسر (نابليون) معركة واترلو عام ١٨١٥، وفتحت الجبهة الثانية بنزول الحلفاء على شواطئ فرنسا في عام ١٩٤٤، وهو الحدث الذي كان بداية هزيمة (هتلر)، والفرق بين الحادثتين هو ١٢٩ عامًا أيضًا وأيضًا!

كلاهما حاول غزو روسيا وفشل، وكلاهما هزم من قبل بريطانيا!

غرائب عديدة منحناها مصطلح الصدفة كي لا نشغل أذهاننا بالتفكير بها.. ماذا عن رئيسي الولايات المتحدة الأمريكية الراحلين (أبراهام لينكولن) و(جون إف كينيدي)؟

يتكون اسم (لينكولن) من سبعة أحرف باللغة الإنجليزية، كذا اسم (كينيدي).. وكلاهما كان الابن الثاني الذي سمي تيمُّنًا باسم الجد ـ من جهة الأب ـ لدى ولادته..

كان لكل منهما صديق مقرب يدعى (أدلاي ستيفنسون)، ومدرسًا يدعى (غراهام)، ومساعدًا يدعى (تشارلز تافت)..

انتخب (لينكولن) في الكونغرس عام ١٨٤٦، وانتخب (كينيدي) في الكونغرس عام ١٩٤٦، والفارق الزمني بينهما مائة عام..

ثم انتخب (لينكولن) رئيسًا للولايات المتحدة عام ١٨٦٠، وانتخب (كينيدي) عام ١٩٦٠، والفارق الزمني بينهما مائة عام..

(آندرو جونسون) نائب (لينكولن) ولد عام ١٨٠٨، و(ليندن جونسون) نائب (كينيدي) ولد عام ١٩٠٨، والفارق الزمني بينهما مائة عام.. سكرتير (لينكولن) ولد في عام ١٨٣٩ وكان اسمه (جون كينيدي)، وسكرتيرة (كينيدي) ولدت عام ١٩٣٩ واسمها كان (إيفيلين لينكولن)، والفارق الزمني بينهما مائة عام كذلك!

كلاهما ـ (لينكولن) و(كينيدي) ـ كان متعاطفًا مع الحقوق المدنية للسود، وكلاهما اغتيل يوم الجمعة برصاصة في الرأس وبرفقة زوجته.. وقد خلف كلًّا منهما نائبٌ يدعى (جونسون)، وكلا الخلفين (آندرو جونسون) و(ليندن جونسون) كانا قد نصحا الرئيسين ألا يذهبا حيث اغتيلا، وكلا الخلفين كان عضوًا في مجلس الشيوخ.. كلا الرئيسين كذلك اختاره الحزب الديمقراطي من جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وزوجة كل منهما فقدت ولدًا وهي تقطن البيت الأبيض.. أمين سر (كينيدي) كان اسمه (لينكولن)، وأمين سر (لينكولن) كان اسمه (كينيدي).. نائب الرئيس (لينكولن) آندرو جونسون يتكون اسمه الأول من ستة أحرف، ونائب الرئيس (كينيدي) ليندون جونسون يتكون اسمه الأول من ستة أحرف أيضًا..

قاتلا (لينكولن) و(كينيدي) قتلا قبل أن تتم محاكمتهما، وبالنسبة للقاتلين فـ(جون ويلكس بوث) قاتل (لينكولن) ولد في عام ١٨٣٩، و(لي هارفي أوزوالد) قاتل (كينيدي) ولد عام ١٩٣٩، والفارق الزمني مائة عام، ويتكون اسم قاتل (لينكولن) من خمسة عشر حرفًا، في حين يتكون اسم قاتل (كينيدي) من خمسة عشر حرفًا أيضًا..

وقد أطلق قاتل (لينكولن) النار عليه داخل مسرح وهرب إلى مستودع، بينما قاتل (كينيدي) كان قد أطلق النار عليه من مستودع وفرَّ إلى مسرح.. أي العكس! ولمزيد من الطرافة، (لينكولن) اغتيل في مسرح اسمه فورد، و(كينيدي) اغتيل في سيارة نوعها لينكولن وصنعتها شركة فورد..

وقبل أسبوع من اغتياله كان (لينكولن) في «مونرولاند»، أما (كينيدي)، فقبل أسبوع من مقتله كان مع (مارلين مونرو)!».

لم يتمكن (راهب) من كبح جماح دهشته، وحين لاحظ (إيجوفا) ذلك دنا أكثر من الرقاص قائلًا وهو يبتسم:

ـ «سألتني سابقًا عمن أكون.. ماذا قصدتَ بالضبط؟».

ـ «قصدتُ.. من تكون؟ بالضبط؟».

ضحك بمرارة قبيل استرساله:

ـ «من أكون حقًّا؟ اسمي وذكريات طفولتي؟.

حين هاجمني شلل الأطفال كنتُ في التاسعة من عمري، الأطباء ذكروا أنه الشلل البصلي أشر أنواع الشلل قاطبة..

أخطرَ الأطباء والداي بأنني على الأرجح لن أعيش، ذكروا أن الأعمار

بيد الله، لكن على حالي تلك قد أفارق الحياة في الصباح!

وبالنسبة إليّ فقد كنت طيلة الليل فاقدًا لوعيي، وقد بلغت حرارة جسمي ٤٤ درجة مئوية، وضعوني في مياه مغطس يحوي ثلجًا لخفض الحرارة..

بعدها، تم نقلي لجناح يحوي عددًا لا بأس به من الحالات المماثلة لحالتي، رأيتُ عددًا من المرضى على كراس متحركة طيلة فترة إقامتي هناك، كان ذلك مدعاة للإحباط بشدة.. وقد ألحق الداء ضررًا بأجزاء متفرقة من جسدي، لكن الأذى الأسوأ طال العمود الفقري قرب العنق، فبتُّ عاجزًا عن رفع رأسي عن الوسادة..

ثم أبلغ الأطباء والدي أنني قد أتمكن بعلاج مكثف من استعادة القدرة على استخدام ذراعي وقدمي، فتمكن من تحصيل موافقة طبيب متخصص بالعضلات كي يعيدني لمنزلنا شريطة زيارته اليومية لنا، حيث أمرني بالاستجابة لكل ما يطلبه مني، وبكل ما أوتيت من قوة..

وصباح كل يوم، كان أخصائي الجهاز العضلي يعرج علي ليمرن عضلاتي وبخاصة الرقبة، حيث ناشدني مرارًا ألّا أكثر من استعمال الكرسي المتحرك، طلب مني ذلك وهو يحملني بنفسه لدخول الحمام، أو للتمتع بأشعة الشمس في الحديقة..

أثناء تلك التمارين كنتُ أتألم بشدة كأنه عذاب أزلي، خصوصًا أن إحدى عضلات الرقبة الرئيسية قد ضمرت، فتوجب عليّ تقوية سائر العضلات الأخرى على سبيل التعويض، تمكنت بعون الطبيب المعالج من إبقاء رأسي مستقيمًا، ما أعانني على عملية تناول الطعام، إذ كانت تسبب لي العملية معاناة أثناء البلع..

في تلك اللحظات ظهر قدري جليًّا، كنتُ على يقين من أنها معجزة إلهية شفتني ودفعتني لأن أكبر وأصير عالمًا!

في تلك اللحظات ظفرت بمقدرة جذب المواد المعدنية لجسمي، تمامًا كالمغناطيس! اكتشفت ذلك مع ملاعق الأدوية التي كنت أتناولها، وكلما كان حجم الشيء المعدني أكبر كانت قوة جذب جسمي له أكبر! لم أخبر والدي أو معالجي بداية، أخفيتُ مقدرتي الجديدة عن الكل، لكن أهلي لاحظوا بفرح يفوق الوصف تماثلي السريع والمفاجئ للشفاء!

ثم عرفت دروب قدري لدى مشاهدتي مع والدي برنامجًا تلفازيًّا عن القدرات المغناطيسية لطفل صغير، وإذ به يتفاجأ بي أصنع ذات الشيء أمامه.. كان مهتمًّا للغاية بالبرنامج، ويعدد الأمور الرائعة التي سيصنعها ذلك الطفل المغناطيسي، فشعرتُ بغيرة غير مبررة، وأظهرتُ لوالدي قدراتي!

لاحظ والدي أن مقدرتي تكون أكبر في المساء عندما أكون هادئًا ومركزًا، وأنها أقوى في الجزء العلوي من جسمي، حيث بإمكاني جذب معادن بوزن ١٣ كلغ.. حاليًّا أستطيع جذب معادن تفوق بوزنها المائة كلجم! وقد تم ذلك بسبب دراستي لتلك الظاهرة، وقيامي بتطويرها سنة تلو سنة، إذ كنتُ أمتلك الوقت!».

ونظر (إيجوفا) لـ(راهب) باسمًا.. ثم أردف:

ـ «أترى؟ عادة يسرد أشخاص حكايات من هذا النوع كي يقولوا لك: فنبذنا الله وتبنينا العلم، وذلك كونه خدمنا، استجاب لنا، في حين لم يستجب لنا الله.. لكنني لم أقل ذات قولهم أو أصنع ذات صنيعهم، تشبثت أكثر بفكرة أن الله قد زرع بداخلي تلك المقدرة كي أنهض وأبحث عنه!

أحسب أن (تيسلا) صنع ذات الشيء.. فحين صنع آلته لم يكن يبحث عبر الزمن والسفر خلاله، كان يبحث عن الله.. حرفيًّا!

وفي رحلة بحثه اصطدم بعدد من معجزاته التي كشفها، كالكهرباء مثلًا، لكنه لن يبوح بذلك أبدًا، وبخاصة أمام باقي العلماء والمخترعين، لقد ولد (تيسلا) على المذهب الأرثوذكسي، لكنه لم يكن يمارس شعائر ديانته.. العلم يعتبر الدين هرطقة، والأديان اليوم باتت سمعتها سيئة بحق، فلكل ديانة الآن مخلوق ناطق رسمي باسم الخالق! وجامع تبرعات لا يكاد يتزحزح عن عتبة دارك، وجواب لكل سؤال مهما كان معقدا، لكن الإجابة عادة على غرار (أرسطو) حين حَدَّثَ بدوران الشمس حول الأرض، وقيام كوكبنا على ظهر صدفة سلحفاة عملاقة تسبح في الفضاء!».

وتلمس (إيجوفا) نقوش الرقاص مردفًا بنبرة أقرب للهمس:

ـ «لقد رأيت كل شيء، وعدت لكي أصحح الأوضاع، إن وضع الأحرف بمكانها غير الصحيح خلق تداعيات لا قبل لي بشرحها، كل ما أستطيع قوله إن عالمنا لم يعد كما كان، كل شيء تغير للأسوأ، والأسوأ شيء كابوسي ليس بإمكانك تخيله مهما بلغت بك ملكة الخيال..

الناس حسبت أنها عائشة في يوتوبيا، فقد انقرضت الأديان وظل العلم.. العلم ولا شيء غيره!

في رأيي لا يجب أن يسيطر العلم على الدين، أو حتى العكس، سيطرة أحدهما التامة على الآخر تحدث خللًا فوضويًّا مريعًا، لا بد من الوسطية والاعتدال، فحين استلم العلم البَحْت زمام الأمور انقلب الحال، وتبدلت السلطة الدينية بأخرى دنيوية بحتة، باردة متزمتة تزعم العملية

في الحياة، تسعى لتحويل الكل إلى آلات مستعبدة، فنجحت في ذلك أيما نجاح.. لستُ في حل من ذكر سلسلة التداعيات التي أدت لذلك، لكن هذه الآلة بدأتها، والسبب هو انتقاء هذا الرقاص للأحرف الخاطئة!

هنالك تلك الحكاية، وقد وقعت في المكسيك، عقب أحد أسوأ زلازل القرن الذي وقع عام ١٩٨٥ مدمرًا جزءًا هائلًا من عاصمتها، فخلف ٧٠٠٠ قتيل و٣٠٠٠٠ جريح و٥٠٠٠٠ بلا مأوى..

في تلك الحكاية، كانت الحشود قد اصطفت باحثة عن الموتى من الأقارب والأعزاء، الحكومة بدأت بإعداد لوائح بأسماء الموتى، آخذة بصمات الجثث تمهيدًا لدسها في أكياس بلاستيكية لدفنها في مقبرة «لورينزو تيزونوكو»، وقد استدعى الأمر عشرات من حفاري القبور لإتمام المهمة..

في اليوم الخامس عقب الزلزال، كانت إجابة رجل دين للصحافة التي سألته عن رأي الدين فيما حدث، وأين كان الله حين وقعت تلك المأساة:

«في هذه المأساة وضعنا الله جميعًا في مقام واحد، ففي دقائق، حينما ارتجت الأرض، أتاح لنا الله أن نفقه شيئًا من عظمته ومن نكون نحن بالضبط.. اليوم ندرك أننا لا نملك شيئًا في دنيا الفناء هذه!».

وعاود النظر لراهب باسمًا بشفقة..

ـ «دعني أطلعك على شيء هام، لقد سافرتُ عشرات المرات لمختلف الأزمنة، وقابلت أمثالك عشرات المرات، أنتم الظاهرة الأكثر حيرة وإخلالًا للقواعد العلمية، حتى (تيسلا) نفسه لم يتمكن من تفسيركم..».

تساءل (راهب) بشك مرتاب:

ـ «نحن؟ من نكون نحن؟».

أجابه بشيء من تصميم:

ـ «متسكعو الزمن! أو الذين تشردوا عبر الزمن! أولئك الذين يتيهون خلال الثغرات الزمنية، منذ الطفولة التعسة المبللة بالدمع، وحتى سن الرشد المتخمة بالجراح والآلام..

حياتكم عبر الزمن كمية من التناقضات المتحشرجة والمؤدية للجنون، تكونون فكرة أو مجموعة من الأفكار عبر الزمن، قد تكون جيدة، وقد تكون السوء بأم عينه.. ثمة من يهش الذباب وثمة من يتعايش معه، أنتم الصنف الثالث غير المعلوم، أولئك الذين يتعايشون مع الذباب لبرهة قبيل قتله بكمية أكبر من ذي قبل عندما يحتشد!

الزمن بالنسبة لكم هو صفر، دائما صفر! حديثكم شحيح، أعمالكم طاغية لا تصدق، متأرجحة ما بين الخير والشر، فلسفتكم شبه مشتركة.. فلنتقاسم الفكرة مع الأغراب ومن ثم نتعايش معهم، وأخيرًا فلنقتلهم!

أنا أعتبر لقائي بك امتيازًا، لكني أكذب عليك لو اعتبرته مسرة لي أو مسألة مشرِّفة، هي ليست كذلك، ولأصْدُقك القول خشيت كثيرًا على عقلي ووجداني من اختراقات متحشرجة تزعزع يقينه وأفكاره!

ـ «تتحدث وكأنني آتٍ من كوكب آخر!».

ـ «أنتم تطمحون للتواصل كالكائنات الفضائية، لكنكم تفعلونها بطريقة قلما أن يكتب لها النجاح، فهي تنجح بصورة ظاهرية، فتنتابكم اللامبالاة بدل اليأس أو الظفر!

والاتصال الكلامي بينكم وبين البشر الذين يتابعون حياتهم عبر الزمن بصورة طبيعية يكاد يكون منعدمًا، فالأحاديث الساذجة مثلًا، تلك التي تدور بينهم أثناء حفل ساهر أو أي لقاء من أي نوع كان غير متواجدة في قاموسكم، فإذا ما أجريتموها كان ذلك للغاية الكبرى التي تبتغونها..».

همس (راهب) شاعرًا ببلبلة ذهنية بلا هوادة:

ـ «ما الذي تحاول قوله؟ صحيح أنني لا أذكر بالضبط من أين أتيت، لكني أمتلك ذكريات، أعرف وجوهًا التقيت بأصحابها وتفاعلت معهم، وشعرت بالأسى والألم تجاههم..».

ـ «أحقًا صنعت؟ أحقًا شعرت بالأسى والألم تجاههم؟ أم تحب الاعتقاد بأنك فعلت؟».

ـ «أنت تحاول التلاعب بعقلي فحسب.. تستغل تشوشه!».

ـ «ولِمَ لا تكون مشوش العقل بالفعل؟ بل إنك من النوع الذي يشوش عقول الآخرين كذلك!

حين تسترجع ذكرياتك الشحيحة، أحقًا تجد ذاتك نقية غير مذنبة؟ أتجدها ساعية لقضية عادلة؟ ماذا لو كانت الحقيقة سوداوية لدرجة محاولة ذهنك إنكارها بصورة شبه كلية؟ لِمَ لا؟ فالزمن كفيل بمحو السوء الذي وقع، والعقل سيتكفل بترميم الأجزاء المذنبة محولًا إياها إلى أجزاء تليق ببطل من نوع ما، في حين هو أقرب لمريض نفسي خطر!».

ابتدأت نبرة (راهب) تجنح للعصبية هذه المرة عندما نطق بتعنُّت:

ـ «أنت تهرف بما لا تعرف.. لقد ركبتُ تلك الحافلة! ركبتها ومن ثم.. ذهبنا إلى.. إلى تلك الفيلا!».

لقد نجا لاحقًا وبأعجوبة من تلك الطائفة المخبولة، تركوه على قيد الحياة في ذات المحطة المقفرة التي التقطته منها الحافلة.. أو أن ذلك ما يذكره!

لكنه نهض من فقدان الوعي الذي تسبب به ذلك الحارس الكهل، وهرع لذات السبيل الذي انطلقت به الحافلة سيرًا على الأقدام.. فقط ليبصر من بعيد دخانًا يرتفع من بقايا فيلا نائية تم إحراقها بالكامل!

لم يسقط على ركبتيه كبطل درامي، بل رمق الأنقاض المحترقة ببصر مشوش مبلبل، الحراس الذين انتخبتهم الطائفة صنعوا ذلك حتمًا كي يمحو كل أثر لها، وللجثث قطعًا!

استعاد ذهنه عشرات الحكايات الساردة للموت ومعجزات البقاء وسط الخرائب الداخنة، وتساءل ما إذا كانت سارينات فِرَق النجدة وسيارات الإطفاء والإسعاف تبلغ هذه البقعة المجهولة والمهجورة.. خيل له سماع أصوات صافراتها بالفعل، وخيل له رؤية رجالها ينتشرون ويتصايحون لانتشال الجثث، فيعثرون على عدد لا بأس به من الأحياء، كلهم من الصغار..

صرخات الاستغاثة تبدت واضحة لمسمعه.. ربما كانت لأشباح!

أبصر ـ لجزء من الثانية ـ وجها متألمًا لطفلة ضعيفة ذات نبرة واهنة أسفل الأنقاض، تجاهد بعسر لالتقاط الهواء برئتين ضعيفتين، فتسمر بصره على الأنقاض الهائلة السوداء التي كانت فيلا ذات حديقة غناء بالورد الجهنمي يومًا..

ثم تنهد، واستدار على عقبيه في لا مبالاة، وانطلق كالهائم لا يلوي على شيء!

(٢١)

كان (إيجوفا) يلتفت في تلك اللحظة لراهب عندما.. دوى صوت الطلقة بعنف في أرجاء القاعة!

تأمل الرجل الضخم صدره بملامح غائرة، ولم يسعفه القدر سوى لأن يتهاوى جثة هامدة دون النطق بحرف!

دار (راهب) بملامح شاردة، لكن صوتًا مهددًا صرخ به كالزئير:

ـ «ألقِ بسلاحك أيها الخائن! كان يجب أن أشكّ بك قبلًا!».

ألقاه (راهب) على الفور، قائلًا في لا مبالاة وهو يرفع بكلتا يديه عاليًا:

ـ «اهدأ يا (علام)!».

ـ «أنا هادئ يا زميل! والآن ابتعد رجاءً عن الرقاص!».

صنع كما أمره زميله، فتقدم الأخير من الرقاص مطالعًا إياه بنظرة متلهفة..

ثم ردد باستهزاء مداعبًا إياه بسبابته الأخرى الحرة:

ـ «أترى ما يصنع العلم؟ أراهنك على أن ملجأ (تيسلا) بأشباحه اللعينة مبني بأسره طبقًا لنظرياته العبقرية! خط دفاع يستتر بالسحر لحماية السر الأعظم.. هذا! سلاح تحدي الزمن حتمًا، لا البحث عن الله كما ذكر شريكك الأحمق!».

ـ «لا أعتقد أن (إيجوفا) كان أحمق..».

ـ «اصمت! لكم يتفوه أمثالكم بالتُّرَّهات الغوغائية! إذا أخبركم العلم بجزع لا يقبل الشك أن كويكبًا لا يتعدى قطره كيلومترًا واحدًا سيصدم الأرض، وبأن قوة الصدمة ستنتج طاقة توازي مائة ألف ضعف قوة مولدة عن قنبلة تساوي قوتها ما يعادل ميغا طن واحد فلسوف تكذبون الأمر حتمًا، أو تسخرون منه.. فإذا ما أبصرتم الكويكب قادمًا وتمكنتم من مشاهدته بأعينكم اللعينة المجردة، فلسوف تهرعون كالخرفان نحو الله بالدعوات الحارَّة كي ينقذكم!

أمثالنا من يخبركم أنه لن يفعل، لأنه غير موجود! لكنكم تأبون الإنصات لصوت العقل!».

كان بالفعل يتحدث كالعلماء المجانين، خصوصًا بمظهره المرهق، وبشعره المنكوش وذقنه التي باتت نامية!

ظل (راهب) صامتًا يراقبه، فلم ينطق إلا عندما بدأ (علام) بتحريك الرقاص..

ـ «لا أنصحك بفعل ذلك!».

ـ «اذهب للجحيم!».

ـ «أرى أنك بتَّ مؤمنًا به!».

أطلق (علام) ضحكة وهو يعابث الرقاص محركًا إياه، ثم قال بجذل لما لاحظ التماعًا فضيًّا مريبًا كالشرر بين ثنايا النقوش:

ـ «لا تسئ فهمي، فأنا مؤمن بوجود الجحيم، لكنه على الأرض، بين البشر! الغلبة في الجحيم الأرضي لمن يصمد بصورة أطول، أما من يرحل فيرحل دونما رجعة، مجرد هباء منثور، ومثل هذه الأشياء، الاختراعات، الاكتشافات، لهي الشيء الحقيقي الوحيد.. سأدعك تعيش فقط لترى ذلك بأمّ عينك!».

لم يحاول (راهب) التزحزح، لكنه تساءل:

ـ «أين (بديع)؟»

ـ «تحول لأشلاء! لا بد أن ماضيه قد صنع ذلك به عبر آلية (تيسلا) الدفاعية ذات خصائص السحر الأسود! الظاهر بأن فتاته كانت غاضبة بحق، لقد مزقته إربًا!

لكني أقوى من ماضيّ وبمراحل! فالنحس ترابط مع مغيري الأقدار الرتيبة، ولطالما لازم علماء وأطباء ومكتشفين ومخترعين عظماء! أنا سأحذو حذو أولئك العظماء وأواصل دربي متغلبًا على أشباح الماضي اللعينة برُمَّتها!».

لكن (راهب) ردد ساهمًا:

ـ «مات (بديع)؟»

ـ «ألهذه الدرجة تأثرت؟ أكنتَ تعرفه؟ أعني حق المعرفة؟

كفَّ عن عواطفك الزائفة أيها الخائن! وإذا كان ثمة عزاء له فلا بد أن

أشلاءه ستعود للأرض كي تنبت كغذاء للمواشي التي تلتهمها الضواري بدورها.. تمامًا كما ذكر هو في معتقداته الطريفة.. دائرة الحياة!».

وضحك (علام) وقد شده بصره للالتماعة الفضية التي باتت الآن أقرب لضوء أزرق خلاب..

ولما فرغ من تحريك الرقاص، كان قد شكل العبارة التالية:

GOD IS NO WHERE

عندئذ.. تألق المكان بصورة لا تطاق كإنذار، وانبعث حجاب دخاني كثيف، ثم شرعت القاعة بالترجرج المخبول كأن زلزالًا قد حلَّ!

ظهر إلى جوار الرقاص وعلى الجدار بأكمله شق طولي ابتدأ بالتوسع.. كما لو كان مصعدًا يفتح بابه على مصراعيه!

وأخذ الضوء الأزرق يشتد لدرجة اضطر (راهب) معها لحجب بصره بساعده..

في حين، واصل (علام) قهقهته اللامبالية، ملوحًا بقبضة مرتفعة وهو يصرخ كالمخبول:

ـ «أيها العالم الجديد الخالي من الخرافات! هأنذا قادم إليك!!».

* * *

استخرج الرجل منديلًا شرع يجفف به عرق مؤخر عنقه، وهو يجيب بلدغ محمرّ واخز:

ـ «أتت جلبة من إصطبل الخيل سمعه أحد العمال، فهرع لطلبنا وقد بدا عليه الذعر، وأتينا مسرعين بدورنا لتبين الأمر..

وجدناه هناك في المستودع! شخص مخيف يرتدي ثيابًا شديدة القذارة! وقد تمدد دون اكتراث لأضواء فوانيسنا المرفوعة لتبين وجهه!»

ـ «وماذا كان يصنع؟».

ـ «كما أخبرتك يا جناب القومندان، كان يجلس كالنائم لكن بجفنين مفتوحتين، يراقبنا غير آبهٍ بنا! سترئ بنفسك..».

ـ «هل من شيء آخر؟».

ـ «هنالك شيء وإن ترددتُ بذكره..».

ـ «إياك والتردد بذكر شيء!».

ـ العامل، يقسم طيلة الوقت أن ضوءًا أزرق قويًا قد بزغ قبل ظهور الجلبة وذلك الشخص الغريب!».

رمقه القومندان بنظرة جانبية سريعة، قبل أن يردف بسحنة مكفهرة:

ـ «سنقوم باستجوابه في كل الأحوال!».

كانوا يلجون الآن الممر المتوسط لإصطبل الجياد، وقد وقف حارس في آخره على الباب، تأهب باحترام للقومندان وللسادة المسلحين الذين أتوا برفقته، فولجوا لتطالعهم وجوه العاملين الذين انتشروا هنا وهناك، ما دعا أحد الجنود المرافقين للقومندان إلى توجيه أمر مغادرتهم حالًا وانتظار أوامرهم منه خارجًا..

اقتاد حارس الإصطبل الجُنْد في الممر الطويل المارق بين الجياد المتأهبة، فما إن أشار لباب الحظيرة المنشودة حتى طولب بالانتظار، فتوقف تاركًا استكمال المهمة للرجال الأشداء، فتقدم القومندان رافعًا فانوسه الزيتي

ومُسْتلًا مسدسه، فاستل الجند بنادقهم العتيقة ذات الحراب الماضية بدورهم وأحدهم يهمس:

ـ «الرائحة كريهة للغاية!».

عقب القومندان بعينين لا تطرفان وهو يتقدمهم:

ـ «أشبه برائحة حظائر الماشية!».

ـ «هناك!!».

كذا هتف أحدهم وثقب سلاحه يرافق ضوء فانوسه المسلط إلى جسد مكوّم كالجثة في ركن الحظيرة شبه الضائق، فانضمت بقية فوهات السلاح وأضواء الفوانيس إليه، مما ساعد الجميع على نيل رؤية أوضح لِلُّغز الغريب الماثل أمامهم!

تساءل القومندان دون أن تتغير سكناته:

ـ «أهو نائم؟».

ـ «لا أعلم.. أعتقد هذا!».

قالها الجندي الواقف على يمينه، قبل أن يقترب من الجسد المسجى أرضًا، ويشرع في ركله برفق قائلًا بخشونة:

ـ «أفِقْ يا هذا!».

تحرك الجسد الساكن حركة آلية، فاعتدل نصفه العلوي، وظلَّ على حاله هناك، حيث نظر للجهة المقابلة دون أن يبدي أي انفعالات تدل على إحساسه بتواجدهم معه!

ـ «انهض يا هذا.. حالًا!».

نهض بذات الطريقة الآلية، فتبعته أضواء الفوانيس وفوهات السلاح ببطء..

ـ «ارفع يديك لفوق!».

رفعهما ببطء، في حين لم يتزحزح ضوء فانوس القومندان عن تقاسيم وجه (علام) الملوثة بالسخام والشحوم والعرق.. لم يتبين شيئًا من ملامحه، فقد غطتها خصلات مشعثة من شعره الأسود، فلم يظهر منها سوى مقلة عينه اليمنى، التي كانت تتلألأ دلالة على أنه لا يزال حيًّا وبإمكانه التحرك.. تمامًا كالبشر!

ـ «لديه سلاح!».

وسرعان ما انطلقت عدة طلقات من بنادقهم العتيقة مخترقة صدر (علام)، فتهاوى أرضًا كالقربة المثقوبة، في حين صرخ القومندان:

ـ «أوقفوا إطلاق النار حالًا!».

نفذوا الأمر، فتقدم كي يتفحص الجثة..

لكنه بوغت بها تنهض، وكأن الحياة انبعثت فيها مجددًا!

استغل صاحبها صدمتهم، فرفع مسدسه روسي الصنع عملي الاستخدام مطلقًا النار عليهم جميعًا، ومن ثم لهث متحسسًا صدره غير مصدق، جيد أنه لا يفارق سترته المضادة للرصاص!

وحين خرج من الحظيرة، اصطدم بصره بحارس الإصطبل الذي كان متسمِّرًا يرمقه كما لو كان قد أبصر الشيطان شخصيًّا!

تساءل الحارس بلغة روسية عتيقة اللهجة محاولًا الحفاظ على وعيه:

ـ «ما أنت؟!».

تجاهله (علام) متسائلًا:

ـ «أين نحن؟».

ـ «أنت.. أنت في إصطبل تابع لجلالة القيصر (نيقولا الثاني)!».

ـ «قصدت أين؟».

ـ «في مقاطعة توبول!».

ـ «وما تاريخ اليوم؟».

ـ «ماذا؟!».

ـ «سألتك: ما.. تاريخ.. اليوم؟».

ـ «إنه الأول من يناير.. من عام ١٩٠٤م!».

ثم كرر الرجل سؤاله كمن ينتحب:

ـ «من أنت؟ حقًّا؟!».

تلفَّت (علام) حوله كمن يتمعن أو يبحث عن شيء..

ومن ثم شدَّ قامته الفارعة، مدمدمًا بصوت مثير للرهبة وهو يضيق من عينيه كي يُحدث تأثير الفزع الملائم في أوصال الرجل البائس:

ـ «اسمي هو.. (غريغوري يافيموفيتش):. (راسبوتين)!».

(٢٠)

تلاشى (علام) كأن لم يكن!

ابتلعه البريق الخاطف الأزرق الذي خفت أخيرًا، مخلفًا الشق وقد أضحى مُعْتِمًا الآن..

خطفه تاركًا (راهب) يواجه وحده مأزق تزلزل القاعة.. كأن جحيمًا قد حلَّ بالأرض!

نظر محاولًا التوازن إلى ركن القاعة، فأبصر شبحًا يطالعه بصمت، لم يكن الملتحي الذي يصفع نفسه، ولا المستذئبة الراقصة.. كانت طفلة حافية في عمر الثمانية أعوام برداء أبيض!

* * *

ارتمى (راهب) على الرقاص محاولًا تحريكه وبصره يتنقل تارة بين شبح الطفلة الذي يرمقه بنظرات خاوية وهو يدنو منه، وتارة بين الأحرف..

انشق تفكيره لنطاقين، نطاق ينتحب ويصرخ بأنه لم يقصد رحيل الجميع!

أما النطاق الآخر فكان يصرخ فيه: «*عليك بترتيب الأحرف بصورة سليمة هذه المرة بالله عليك!*».

دعا الله أن يلهمه وأصابعه تحرك الرقاص بصورة جنونية..

هكذا.. تشكلت معه العبارة التالية:

GOD IS NOW HERE

تصاعد خوار الآلة بعنف، وترامت أصداء الأصوات المنبعثة من الأنابيب النحاسية في جوف القاعة، فعاود الضوء الأزرق بزوغه مجددًا، وابتدأ كذلك الشق بالتوسع..

في حين، لم تعد الطفلة واقفة وحدها!

لقد بزغ خلفها عشرات الأطفال بأثواب بيضاء، كأنهم جوقة كَنَسِيَّة أو ملائكة هبطت من السماء.. المنظر كان مذيبًا للأعصاب!

ثم - وكجوقة بالفعل - قالت الطفلة بصوت رخيم تردد صداه في القاعة:

- «يحكى أن..».

فردد الأطفال من خلفها كأنما ينشدون ببرودة:

- «*أن ثلاثة رفاق عرفوا بعضهم منذ الصغر، ترعرعوا معًا حتى كبروا ونضجوا، لتفرقهم الدنيا في مشاغلها الأزلية..*

لكنهم اعتادوا اللقاء في كل سنة شتاءً، في الكوخ الخشبي الذي قضوا فيه أجمل ذكرياتهم..

وفي كل لقاء، كانوا يستعرضون ما تعرضوا له من مواقف حياتية وكيف باتت أحوالهم، ومن ثم يستعيدون أجمل ذكريات الطفولة من مواقف طريفة حصلت معهم، فيتضاحكون، ويتناولون طعام العشاء سوية، ومن ثم يتفرقون على وعد معتاد باللقاء في شتاء السنة القادمة..».

الطفلة تهمس:

- «وفي آخر لقاء لهم..».

والأطفال يرتلون من بعدها:

- «*في آخر لقاء لهم، وبينما هم يتحادثون قرب نار المدفأة، حدث أن طرق أحدهم باب الكوخ..*

تبادلوا النظرات متسائلين عمن اقتحم عليهم خلوتهم، خصوصًا أن عاصفة ثلجية ثائرة تهب خارجًا، ونهض أحدهم ليفتح الباب، ثم شده حين وقع بصره على فتاة آية في الرقة والنحول والجمال، متلفعة بملاءة بنفسجية، وترتجف من فرط البرد القارس..

كانت دهشة الثلاثة عظيمة، لكنهم سارعوا بإدخالها دون طرح أسئلة، فقدموا لها الطعام والشراب، وأجلسوها بالقرب من نار المدفأة..

ورويدًا بدأت الفتاة باستعادة عافيتها، فشكرتهم على لطفهم معها، ثم صارحتهم بشيء غير مفهوم وغير معقول..

أخبرتهم أنها ليست مجرد شخص عادي، بل جِنِّيَّة متنكرة! فتضاحك الثلاثة معتقدين أنها تمزح أو تخرف..

لكنها أخبرتهم أنها كجِنِّيَّة شتوية وظيفتها البحث عمن يستحقون هباتها نظير الإنسانية، ومن ذلك تجالس الرفاق القدامى لسرد الذكريات المحببة، وذلك ما توسمته فيهم، ثم نهضت مزمعة الرحيل..

حاولوا حملها على البقاء نظرًا لبرودة الطقس، لكنها كانت مُصِرَّة..

وقبل أن ترحل التفتت إليهم ذاكرة أنها سترد لهم الجميل بمنح كل واحد منهم أمنية!

ثم رحلت تاركة إياهم يتأملون بعضهم بحيرة واستغراب بالغَيْن!»

- «لم يصدق أحدهم زعم الفتاة..».

- «لكن شقاوة الطفولة دفعتهم للتظاهر بالتصديق وأخذ مَزْمعها على محمل الجد، ولو بصورة ظاهرية من باب العبث لا أكثر..

لذا قرر ثلاثتهم أن تكون أمنياتهم كما يشتهون، كما لو كانت ستتحقق فعلًا!

هكذا، تمنى أولهم - وكان طبيبًا - إيجاد علاج للوباء الذي تفشى مؤخرًا دون أن يجد له الأطباء أي علاج..

أما الثاني فكان موسيقيًّا، وقد تمنى آلة وترية تدفع قلوب النساء للتعلق به كلما عزف عليها..

- «في حين..».

- «في حين، تمنى الثالث أن يغفر الله له خطيئة معينة ارتكبها، ولم يسرّ بها لرفيقيه رغم إلحاحهما الشديد عليه..

ثم تفرق الثلاثة على وعدٍ باللقاء في شتاء السنة القادمة..».

- «إلا أن ذلك اللقاء لم يتم أبدًا.. للأسف!».

- «عقب عودة الصديق الأول إلى عيادته لممارسة مهنته، اكتشف أن إحدى تجاربه للحصول على دواء ناجع للقضاء على ذلك الوباء المتفشي قد نجحت!

جن جنونه فرحًا، وسارع عقب تأكده من إعلام العالم بأسره توصله للعلاج الوحيد والفعال للقضاء على الوباء الذي أرق العالم بأسره..

لكنه لم يتمكن من كشف أسرار علاجه، فقد قتل هو وعائلته، وتم إحراق منزله وعيادته من قبل مجهول عقب سرقة أوراقه المتعلقة بأبحاثه حول ذلك العلاج..

وعقب تلك الحادثة بمدة، أعلنت جهة أجنبية توصلها لدواء بإمكانه إنقاذ البشرية، فصنع وبيع بمبالغ خيالية لا يمكن إلا للأثرياء تحملها، أما الفقراء وأصحاب الدخل المحدود فتم تركهم للهلاك..».

- «كان هذا بالنسبة للصديق الأول..».

- «أما الثاني، فقد اكتشف أنه كلما عزف على غيتاره القديم طاردته

أبصار النسوة، ومن ثم ارتمين عند قدميه مطلقات صيحات مفعمة باللوعة والشهوة..

فكان يقضي وَطَرَهُ منهن.. كل ليلة مع امرأة حسناء جديدة..

ثم عثر عليه في ليلة مقتولًا وبحضنه امرأة قتلت بدورها، واتضح لاحقًا عبر تحقيقات الشرطة أن زوجًا غيورًا قد قام بترصدهما وكشفهما، ومن ثم قتلهما معًا!».

ـ «وبالنسبة للصديق الثالث..».

ـ «فالحقيقة التي أخفاها عن رفيقيه أنه ليس بشريًا، وإنما كان ملاكًا مخلصًا! حتى جاء اليوم الذي راهن فيه أقرانه في السماء أنه أفضل من البشر، وبإمكانه قهر موبقاتهم وشهواتهم وكل حججهم السخيفة، فنزل للأرض دون إذن من ربه متخذًا شكل بشري صغير ويتيم، ملتحقًا بملجأ ترعرع فيه، ثم لم يلبث أن تم تبنيه من قبل والدين اهتمّا به أيما اهتمام!

وكان أن التقى مع رفيقيه، وكبر معهما لتتوثق بذلك أواصر صداقتهم، وكان دائما مثاليًا ومتفوقًا في كل شيء، لم يشرب أو يعاشر أو يدخن حتى..».

ـ «لكن مثالية الملاك المتنكر لم تلبث أن تلاشت..».

ـ «إذ استيقظ ذات صباح ليكتشف أنه قد فقد جميع قدراته، والأدهى أنه فقد كل امتيازاته كملاك، فلم يعد قادرًا على بلوغ السماء في الوقت الذي يشاؤه!

هنا، أدرك أن الله يعاقبه على طيشه، فارتجف وانتحب، لكنه قرر المضي قدمًا في حياته الجديدة، واضعًا ذات الهدف نصب أعينه..

ثم لم يلبث أن استخدم الغش في الامتحان النهائي، ودخن وشرب في الجامعة، وفي العمل قبل رشوة من عميل، كما عاشر فتاة متزوجة راقته فتنتها!

كان يكبر ويسقط في كل مرة، وفي كل ليلة يتذكر من هو وما صنع، فيلوذ بدار عبادة كي يصلي ويبكي ويستغفر طيلة الليل..».

ـ «وفي تلك الليلة الشتوية داخل الكوخ حين زارتهم الجنية، أدرك حقيقة مرعبة..».

ـ «هذه الفتاة اللطيفة التي تزعم أنها جني شتاء يحقق الأمنيات ما هي إلا الشيطان عدوهم اللدود!

ولم يتمكن من التدخل أو تحذير رفيقيه، فقد أدرك أن الشيطان موجود هنا لغاية من عند الله، وممنوع عليه التدخل لأي سبب!

والغريب أنه في تلك الليلة كذلك استعاد جميع قدراته كملاك.. كان يعلم أن الشيطان لا يمتلك تلك المقدرة الرهيبة، فأيقن أن الله قد عفا عنه..

إلا أنه وعوضًا عن العودة للسماء، قرر البقاء على سطح الأرض بعدما علم بما أصاب رفيقيه الغاليين..

حزن لدرجة الاكتئاب، ثم أقسم على الأخذ بالثأر لهما..

ومجددًا، فقد الملاك قدراته الثمينة، لكنه لم يأبه، بل صار في كل شتاء يعود للكوخ الخشبي كي يستعيد ذكرياته مع رفيقيه الراحلين أمام نار المدفأة..».

- «ولكي ينتظر، آملًا ظهور الشيطان من جديد كي يحقق انتقامه لهما!».

ثم إن الطفلة تقدمت للأمام، قائلة بثبات وكأنها تختتم الترنيمة الدينية:

- «حكاية جميلة، أنيقة ومنمّقة... لكنها مجرد حكاية ما قبل النوم.. لا تصلح إلا للأطفال السذج الذين يحسبون العالم مكانًا لطيفًا ينامون فيه بهناء!».

اتسع بصره حتى أعماه الضوء الأزرق المتصاعد..

وهكذا.. لم يعد لشبح الطفلة، أو لجوقة الأطفال - أو للقاعة - أي وجود!

(٠)

إذن فقد سقطتُ في غيبوبة!

كذا تفكر (راهب) متأملًا السقف بنظر شاخص..

لم يستطع تذكر ما كان يدور حوله بالضبط، اللهم سوى سماعه لصوت سيارة الإسعاف أثناء نقله للمستشفى، دون أن يدرك كيفية دخوله السيارة، وأصوات من حوله لمسعفين يتبادلان أطراف الحديث.. عن ماذا؟ عن مباراة لعينة دارت ما بين برشلونة وريال مدريد.. كالعادة!

قيل إن الغيبوبة أو حالة الإغماء قد تعتبر الحالة الأقرب إلى الموت، حالة يتأرجح الإنسان فيها على خيط رفيع بين الحياة والموت، مرحلة ينعدم فيها الشعور بالمكان والزمان، وقد ينعدم فيها الشعور بالألم أيضًا، بينما يظل ماء الحياة دفاقًا في عروق صاحبها..

شعور (راهب) بالزمان والمكان كان معدومًا، لم يشعر ببدنه مطلقًا وكأنه ليس منه، كان يتقلب في أحاسيس شعورية مختلفة وقوية أشبه بالأحلام.. أقلّته سيارة الإسعاف للمستشفى الحكومي مع مسعفين

متدربين، ما تسبب في انقطاع الأكسجين عنه، ثم اختناقه ودخوله في غيبوبة، وهو ما لن يتضح بتاتًا للأسف في أي تقارير.. لقد سقط نتيجة لإهمال أحمق من المسعفين، وليس إثر تعرضه لتلك الحادثة العجيبة نوعًا.. والتي لا يكاد يتذكر منها سوى ملامح عابرة ومشوشة للذهن!

* * *

هل يحلم سجين الغيبوبة؟

يطلعنا العلم بأن بعض المرضى يطالعون الأحلام عندما يتأرجحون بين الوعي والغيبوبة، فيكونون في حالة معينة من الوعي تجاه أنفسهم والعالم الخارجي..

ولكن ماذا عن غيبوبة كلية؟

ثمة أبحاث فرنسية استخدمت تقنية التصوير الإلكتروني لمقارنة بنية النوم في أدمغة ١١ مريضًا يشكون من خلل دماغي، ٦ منهم واعون إلى حد ما لما يدور من حولهم، و٥ في حالة جمود ولا يشعرون بمحيطهم..

مدير مجموعة علوم الغيبوبة في جامعة «ليج» الفرنسية (ستيفن لوريس) قال:

ـ «اعتمدنا فتح عيون المرضى وحركة العضلة مؤشرًا للوعي، في حين اعتبر إغماض العينين وغياب نشاط العضلة مؤشرًا للنوم..».

وأضاف (لوريس) إنه تبين أن النشاط الكهربائي يختلف قليلًا عند نوم ويقظة المرضى في حالة الجمود، لكن نوم المرضى في حال وعي بسيط كانت مماثلة للنوم الطبيعي لدى الأصحاء، كما اتضح أنه خلال النوم، فإن تغييرًا يسجل في نشاط موجة الجزء الأمامي من الدماغ، الذي يُعد

نقطة هامة للتعلم وليونة الدماغ عند المرضى الذين يعتبرون في حالة من الوعي البسيط..

وتسجل أيضًا عندهم حركة غير سريعة للعين، وموجة نوم بطيئة مرتبطة بالحلم.

وقال (لوريس):

ـ «يشير كل شيء إذن إلى أنهم يحلمون، والنتيجة هي أن بإمكاننا افتراض أنه ما زال لديهم شكل معين من الوعي تجاه النفس.. بالإضافة إلى وعي معين للعالم الخارجي..».

* * *

و(راهب) كان هناك..

لم تكن أرض الأحلام جنة خضراء ترعى بها خيول بيضاء، أو يجري خلال أراضيها نهر شفاف تتراشق الحوريات بمياهه متضاحكات..

كان المكان عبارة عن بار خفيف الإضاءة يغص بالمرضى!

جميع الزبائن يرتدون زي المستشفى الأبيض الموحد المُعري للظهر والمؤخرة، وقد ظهروا بعللهم وإصاباتهم، وبرفقة محاليلهم الموصلة إلى أوردتهم، وأقنعة الأوكسجين على أنوفهم وأفواههم، وقد جلس غالبيتهم على مقاعد متحركة للشرب أو للعب الورق، أو نهضوا على عكازات لمراقصة الممرضات الفاتنات اللواتي ارتدين أزياءً تناسب أفلام البورنو!

كل ذلك جارٍ إثر كلمات وألحان صدى خافت ومتردد لأغنية «الوحش بداخلي» لـ(جوني كاش)!

الشخصان اللذان يخدمان في البار بخلط المشروبات وصبها في كؤوس وتمريرها للزبائن المرضى كانا متأنقَيْن، يرتديان زيًّا موحّدًا عبارة عن قميص أبيض وفراشة «بابيون» فضية..

وحين أمعن (راهب) النظر، فوجئ أنهما (علام) و(بديع)!

كانا يؤديان عملهما بصمت، يخلطان ببراعة صنوفًا من الكوكتيل، ويقدمان المشروبات بحيوية لكل زبون يقصدهما، ولاحظ (راهب) ألا أحد من المرضى الزبائن يفتح فمه، فقط يقصد المريض البار، وهناك يقدمان له مشروبه من دون أن يسأل عما يرغب به بالضبط!

اتجه ناحيتهما، فما إن أبصراه حتى باشرا وصلة الخلط والتقديم، وقبل أن يمررا الكأس إليه، لوح بكلتا يديه قائلًا:

ـ «ماذا يحدث هنا بحق الله؟!».

رمقه (علام) بتقاسيم روتينية للغاية وبصمت، في حين تساءل (بديع) بتهذيب بالغ:

ـ «هل لدى السيد شكوى معينة بخصوص الخدمة هنا؟».

دمدم (راهب) بخواء:

ـ «لدي تساؤل حول نوعية الخدمة هنا!».

تبادلا الابتسامات أخيرًا، ورفع (بديع) إبهامًا لفوق مصطنعًا نبرة راقية:

ـ «أوه يا سيدي.. لدينا هنا كل شيء.. خدمة درجة أولى لكل الزبائن الأعزاء!».

ثم ردد ديباجة يبدو أنه حفظها غيبًا كي يرددها على مسمع كل زبون مشيرًا للزجاجات المتنوعة على الأرفف خلفه:

ـ «بداية، نستخدم المورفين كمادة مُسكنة، واسمح لي سيدي أن أنبهك لخطورة الآثار الجانبية في الإفراط كالقيء واحتباس البول، وأحيانًا كثيرة الانخفاض في ضغط الدم!».

ثم واصل ثرثرته:

ـ «قد تتعرض للحساسية، وأحيانًا مشاكل في مركزك التنفسي مما يؤدي حتمًا للوفاة! وفي حال حدوث تسمم بالمورفين ننصحك بعمل غسيل معدة أو تناول «النالوكسون».. أتحب أن أصب لك بعضه سيدي؟»

ـ «أوه.. لا شكرا!».

ـ «عفوًا.. نحن في خدمتك دائمًا!».

ـ «ألا يوجد لديكم.. مشروب حقيقي؟».

نطق (علام) أخيرًا:

ـ «يوجد لدينا فودكا!».

ـ «شيء أقل قوة..».

ـ «ماذا عن سيدار التفاح المقطر؟».

ـ «أهو جيد؟».

تدخل (بديع) وهو يطلق صافرة استحسان طويلة من شفتيه، ومشيرًا بإبهامه لفوق مجددًا دلالة الجودة:

ـ «يتم تجهيزه في محاليل تحتوي على ٢٥٪ من نسبة الكحول، كما يتم بعملية تقطير المنتج المخمر، وبذلك يتم تركيز نسبة الكحول، والتخلص من بعض المنتجات الجانبية لعملية التخمر!».

ـ «جيد.. أعطني منه!».

ـ «خيار موفق.. هل تعلم بأن الكيميائيين العرب كانوا أول من قام بتقطير الكحول وإنتاجه بجودة ذات نقاء خالص؟».

ـ «اصمت وناولني كأسًا منه..».

ـ «كما تشاء!».

راقب (راهب) إصبع (بديع) المصبوغ ظفره بصبغة سوداء، والذي مرره أسفل الأسماء المدونة بالإنجليزية على الزجاجات الكبيرة.. «كالفادوس»، «لامبيك».. «جين آند تونيك».. «سيدار»..

ـ «أوصي بالسيدار المخمر! نسميه كذلك بالسيدار القوي، في بريطانيا يدل سيدار على المشروب الكحولي؛ أما في أستراليا فإن المصطلح غير محدد بالضبط!».

ـ «الظاهر بأني سأهلك من الظمأ قبل بلوغ كأس هذا الـ... السيدار متناول يدي!».

ـ «حالًا حالًا!».

كان يشعر بظمأ لا حدود له بالفعل، فما إن تناول الكأس من يد البارمان ـ الذي كان يومًا زميلًا له ـ حتى ألقى بمحتواه في جوفه على عُجالة..

همس (علام) وملامحه تتعاظم كالكابوس:

ـ «هنيئًا مريئًا.. أيها الخائن!».

ومن ثم لم يعد يشعر بشيء، ولم يعد يبصر أي شيء من حوله.. كما لو كانت سكرة لعينة مباغتة!

* * *

المرأة كانت ذات مؤهلات جسمانية مفتولة، ومقومات أنثوية شبه منفِّرة رغم ضخامتها، ذات بشرة قمحية تتغلغل بين حبيبات السمار المسيطر على اللون ككل..

تعقص شعرها على هيئة قبة، وتلفّ يديها وراء ظهرها المشدود كأنها تواجههم بوقفة عسكرية صارمة..

تبدت لراهب أقرب للثعالب بأنفها المدبب وبحدقتيها الأريبتين الماكرتين، تمامًا كمشعوذات القصص الشعبية!

حدقت في طبق الفواكه البراقة الموضوع أمامها، وهي تدمدم مخاطبة الشخص الضئيل الجالس قبالتها مباشرة في الطرف الآخر من مائدة الاجتماعات، والمتستر بالعتمة على نحو مريب، متجاهلة جلوس سبعة أعضاء يتماثلون على نحو ما في أحجامهم وأعمارهم وطريقة لبسهم وحتى وجوههم:

ـ «إذن.. لدينا نسبة فوائد أقل بمراحل من معدلات التضخم، ١٥٪ لكي أكون دقيقة، هل الرسم التوضيحي الذي قدمتموه دقيق؟».

وجالت المرأة أخيرًا ببصرها من الجانب الأيسر للأيمن من المائدة مستوضحة:

ـ «(راهب)؟ (راهب)؟ (راهب)؟ (راهب)؟ (راهب)؟ (راهب)؟ (راهب)؟»

أظهروا ـ ما عدا (راهب) السارح في ملكوت الله ـ إشارات وهمهمات بعقائرهم وأياديهم المتشبثة أناملها بأقلام الحبر، تشير إلى كون ذلك صحيحًا برُمّته..

أخيرًا، أظهرت المرأة البشعة ارتياحًا، واسترسلت بوجهٍ لم يخلُ تمامًا من علائم التجهُّم ـ وإن أدرك كل من كان حاضرًا أنها مغتبطة بتلك النتيجة ـ:

ـ «إذن، فالمضاربون والمدينون سيستفيدون من التضخم الحاصل، سيحافظ أفضل عملائنا على معدلات الربح [illegible] سيسهل علينا وعليهم رفع المعدلات وزيادتها لاحقًا أضعافًا مضاعفة..

وحلت من وثاق يديها خلف ظهرها، لتلتقط باليمنى تفاحة حمراء لامعة من طبق الفواكه، تأملتها بحدقتيها الماكرتين مردفة:

ـ «سنتحجج بالتضخم ونحافظ على الأصول، وسنقول ذات الشيء للمضاربين، أما بالنسبة للمدينين فبديهي أن ديونهم النقدية مطالبة بتسديدها لهبوط قوتهم الشرائية، وتضاؤل قيمتها تبعًا لمعدلات التضخم السائدة.. إذا كانوا قد استخدموا الديون في استثمارات وملكيات ثابتة فستحافظ على قيمتها الحقيقية..».

ورفعت كلتا ذراعيها معلنة بذلك فضّ الاجتماع الرتيب، فنهضوا على استحياء ووجوههم تنطق بفخر لا شك فيه لذلك الإنجاز، حتى أنهم تبادلوا المصافحات الحارّة والهمسات المُهنّئة، في حين اكتفى (راهب) بمراقبتهم ساهمًا..

عاودت المرأة المسِنَّة رمق الشخص الغامض قبالتها بنظراتها المتجهمة، هامسة بشبه ابتسامة تلاعبت على ثغرها المجعد:

ـ «ستكون المكاسب كبيرة لهذه السنة.. تهانينا يا طفلتي!».

ودحرجت التفاحة التي كانت في يدها نحو تلك التي خاطبتها بـ «طفلتي»، في ذات اللحظة التي اشتعل بها الضوء، كاشفًا عن طفلة آية في الحسن في الثامنة من عمرها، ذات شعر أسود مصفف بطرافة، وقد طوقت عنقها الأبيض الناصع كبياض الثلج بشال ناعم عشبي، وتشبثت بدمية محشوة لدب بُني..

التقطت الطفلة التفاحة الحمراء من على المائدة وقد اتسعت بسمة شفتيها الوردية البريئة، وبأسنان لؤلؤية نضيدة قضمت منها قضمة، في حين برقت عينا المرأة وهي تدمدم جذلة:

ـ «[illegible] أن أقول: تهانينا يا ابنة زوجي الراحل؟».

تنبه (راهب) للموقف الذي تبدى له مألوفًا، والتفت نحو الطفلة بحدة وذهنه ينبهه لشيء مخيف..

في حين، لعقت المرأة الماكرة شفتها السفلى وبصرها يتابع بلؤم حركة فم الطفلة وهي تلوك قضمة التفاحة، عندما..

بدت الطفلة وكأنها أرادت قول شيء، ثمة بحّة في صوتها استحال بغتة حشرجة عنيفة.. التفاحة تسقط من يدها، سحنتها تزرق ببطء، ويدها تتحسس عنقها كأنها تقاوم الاختناق، تعتصر الشال العشبي بضراوة وضراعة معًا!

الأعضاء ـ الذين كانوا نسخًا من (راهب) ـ جميعهم يتسمرون بغير

تصديق.. المرأة تضحك بغتة، ضحكاتها مخبولة، أقرب إلى شخص فقد عقله!

هبَّ (راهب) واقفًا ليصرخ:

ـ «استدعوا الإسعاف حالًا!!».

لا أحد من أعضاء مجلس الإدارة اللعينة يستجيب، كلهم تسمروا وقد تحولت نظراتهم لخواء بغيض..

في حين، اندفع (راهب) ـ الجزع ـ نحو الطفلة، فأمسكها وأراحها على الأرض، وهي لا تكف عن الانتفاض ورغوة بيضاء مقرفة تنبعث من بين شفتيها، حتى سكنت تمامًا..

والمرأة البشعة لا تزال تضحك بانتشاء شيطاني مريع!

* * *

هل يحلم سجين الغيبوبة؟

رفع (راهب) يداه بجزع تامّ، فوجد الدم يسيل منهما بإفراط!

من أين أتت الدماء؟

أين قاعة الاجتماعات ونسخه المتماثلة؟

وأين السيدة البشعة؟؟

أين الطفلة؟

وأين هو الآن؟!

المكان ـ هذه المرة ـ عبارة عن مسرح يعج بأثاث ساذج يمنح إيحاءً

قويًا أنه مستشفى.. ووسط الراقصات الشاحبات كأشباح والمرتديات كممرضات، ظهر البارمان ـ الذي كان (علام) ـ وقد بدا كمن ينتظر شيئًا ما!

ـ «ماذا حدث بحق الله؟»

ـ «أوه.. أخشى أنك قد مت يا سيدي!».

ـ «ماذا تعني؟ هل قضت الغيبوبة عليّ؟».

ـ «بل الطبيب الذي تولى حالتك.. أنت ميت بقرار رسمي للاستيلاء على أعضائك! هم يستهدفون القلب، لكن أحسب أنهم سيستحوذون على كليتيك كذلك!».

ـ «أنت.. تخرف!».

ـ «بل هو واقع سيدي.. تفضل من هنا..».

ـ «لحظة.. لحظة..».

قالها بفزع هائل.. شاعرًا برعب قط يواجه عشيرة كلاب مسعورة..

رمق الدماء التي أغرقت بدنه، وبوهن دمدم:

ـ «هذا جنون!».

ـ «أوه لا يا سيدي! قد راح ضحية هذه التجارة الشيطانية غير الإنسانية كثيرون! آخر مريض توفي عقب ثلاثة أيام من دخوله المستشفى، وعقب أن أجريت له عمليتان تمت الأولى بنجاح، أما الثانية فقد أجريت بطلب من طبيب المستشفى بحجة استكمال العلاج، وعندئذ ضرب ضربته الموفقة.. إن رصيده في البنك في ازدياد!».

ـ «أهي شبكة لعينة لتجارة ونقل وزراعة الأعضاء البشرية بمساعدة الأطباء؟!».

ـ «والممرضات.. تفضل من هنا..».

ـ «إلى أين بحق الله؟!».

ـ «لم يتقرر ذلك بعد سيدي، فلا تَسْتَبِق النتائج.. كنتَ شخصًا لا بأس به في حياتك رغم ما تسببت به من كوارث، وأحسب أن ذلك سيحسب لك..

كن متفائلًا، فقد كان من الممكن أن يكون وضعك أسوأ ممن سبقوك!».

* * *

ـ «قمنا بعمل قياس للحرارة والضغط، ووضعنا له الأنبوبة الأنفية للتغذية.. إنه الآن تحت تصرفك!».

لم يتنبه تمامًا لما قاله الصوت الأنثوي لاستغراقه في تلك الخواطر المعتمة..

لكنه أمعن تركيزه لدى سماع الصوت الذكوري:

ـ «غلاسكو؟».

كان التساؤل عن مقياس «غلاسكو» للغيبوبة، وهو مقياس للأعصاب يسجل ويقيم الحالة الواعية للمريض وفقًا للمعايير المقررة للمقياس، حيث يستخدم للغيبوبة كجزء من عدة نظم تسجيل بوحدة العناية المركزة، لتقييم حالة الجهاز العصبي المركزي..

ـ «أعطانا الدرجة رقم ٣.. غير موجود!».

أي المريض.. أي هو!

ـ «البائس.. إنه هناك حتمًا!».

لا.. لستُ كذلك.. أنا هنا!

وفتح (راهب) بصره ليجد نفسه داخل حجرة المستشفى، فتنهد بارتياح..

ولكن، سرعان ما أحس بوجود شيء ما خاطئ.. ثمة خطأ شنيع للغاية!

نظر إلى يديه، وإلى بدنه، فوجد كل شيء غارقًا في الدماء الغزيرة!

وللأمام توجه ببصره، فوجد الطبيب يعاشر ـ وبعنف ـ الممرضة على السرير قبالته وقد تلطخا بالدماء!

كان الطبيب يراقبه وهو يتبسم متظاهرًا بالشفقة، في حين قهقهت الممرضة بوحشية، قائلة بلذة وبصرها يتمعن في تقاسيم (راهب) وسبابتها الملوثة بالدم تشير نحو بدنه المشقوق بالمباضع:

ـ «لِمَ تشع هكذا زرقة؟ إن ذلك لخلَّابًا.. تعالَ وشاركنا!».

(٥)

كاد يصرخ كالمعتوه حين وجد نفسه داخل تلك الفيلا الكابوسية التي امتلكتها تلك الطائفة المخبولة..

كان جالسا على مائدة الإفطار تلك، ذاتها يوم جالس تلك الطفلة المنتحرة، لكن المكان كان خاويًا تمامًا كقصر أشباح..

أمامه كأس وزجاجة من سيدار التفاح المخمر، وقريبًا منه وقف (علام) كرئيس خدم راق دون أن يتفوَّه بكلمة!

حجب (راهب) وجهه بأنامله، وكما لو كان ينتحب بحرقة همس متخاذلًا:

ـ «أرجوك!».

ـ «هل السيد غير راضٍ عن الخدمة؟».

ـ «أرجوك.. أرجوك!».

ـ «إذا أراد السيد تجربة شراب آخر، فبإمكاني أن..».

قاطعه ثائرًا وهو يهوي على سطح المائدة بكلتا قبضتيه:

ـ «قلتُ أرجوك!!».

وشعر بصمت طويل يعتري المكان..

لم ينظر لزميله السابق، ولو فعل لانتابه ذعر بلا حدود.. إذ تغيرت سحنته من التهذيب اللامبالي للبرودة اللامتناهية، وهو يميل برأسه قليلًا صوب أذن (راهب)، كي يهمس ببطء يثير الرجفة في الأوصال:

ـ «بل نرجوك نحن.. نرجوك بأن تتذكر..».

ـ «أتذكر.. ماذا؟!».

ـ «الحقيقة!».

ثم اعتدل مستعيدًا هيئته الأولية، قائلًا بتهذيب مبالغ به:

ـ «هنيئًا مريئًا!».

* * *

في صباح يسبق يوم انتحارها، جلس (راهب) إلى جوار تلك الطفلة الرقيقة ذات الثمانية أعوام على مائدة الإفطار..

يطعمونهم أفخر أنواع البيض والعسل والمربى والحليب، يعدونهم لليلة تلو الأخرى، الحليب + البيض + المربى + الزبدة = البروتين + الكربوهيدرات + الكالسيوم..

سألها برفق:

ـ «أتعلمين ما يحدث هنا بالضبط يا عزيزتي؟».

تذكر نظرتها الخاوية إليه.. منتفخة الأجفان مجعدة الجبين، صارت ذابلة، شاحبة، ممتقعة..

لكنها نطقت، إذ قالت كمن يُسَمِّعُ نشيدًا حفظه عن غيب استعدادًا لاختبار:

ـ «القائد الجميل سيصحبنا معه.. للسماء.. سيأخذنا في أحضانه المموجة إلى مكان أفضل!».

وهنا، تصفق المرأة البعبع بحزم، وهي ترمق الفتاة بنظرة صارمة..

قالت بنبرة صارمة كذلك:

ـ «ارفعي ذقنكِ من باب التهذيب.. حين يخاطبكِ القائد المبجل يا فتاة!»

صنعت الطفلة كما أمرت المرأة المخيفة..

في حين، رمق (راهب) المرأة البغيضة بنظرة باردة، حتى طأطأت رأسها بخضوع وابتعدت عنهما..

ثم عاود الالتفات لتلك الطفلة متسائلًا بحنوّ:

ـ «ما اسمكِ؟».

ـ «هنا لا أسماء لنا.. كلنا أطفال القائد المبجل!».

ـ «وأين أهلكِ؟ أعني والدكِ ووالدتك؟».

ـ «نبذاني!».

ـ «ولِمَ صنعا ذلك؟».

ـ «لأنني أخفتهما! جماعة القائد المبجل فهمت مقدرتي وعدَّتها هبة منه.. يكفينا أنه آوانا في داره، وبأنه كثيرًا ما يطهو لنا بيديه المباركتين أشهى الأطعمة!».

رفع يده التي كان يخفيها أسفل المائدة مواصلًا حديثه بتلك النبرة اللطيفة:

ـ «أنتِ موهوبة فعلًا يا طفلتي، ونحن قطعًا عائلتكِ الوحيدة التي تحبكِ وتكترث لكِ!».

كان يحمل دمية محشوّة لدب بُني، دفعها إليها بيدٍ مرصعة بخواتم العقيق والزبرجد متباينة الألوان، ومُربتًا بالأخرى على كتفها برفق، فتناولت الدمية بصمت..

رمقته بنظرة خاوية، ثم مَسَّت راحة يده..

لاحظ شحوب وجهها غير الطبيعي، فتساءل بلطفه المعهود:

ـ «أأنتِ بخير؟».

لم تكن تنظر إليه حين ترنمت بعقيرة عجيبة وباللغة الإنجليزية وبصرها آخذ في الشرود العميق:

ـ «*الوحش بداخلي..*

محبوسٌ بقضبان ضعيفة وهشة..

مضطربٌ نهارًا..

أما ليلًا فمهتاج غاضب صوب النجوم..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

الوحش بداخلي..

كان لا بد أن يتعلم التعايش مع الألم..

وكيف يلتجئ من المطر..

وبلمح البصر..

يجب أن يحاصر..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

أحيانًا يحاول ممازحتي..

بأنه دبدوب فحسب!

ويستطيع بطريقة ما التلاشي في الهواء..

وذاك حين يتوجب عليّ الحذر.. من الوحش بداخلي!

الكل يعلم..

فقد شاهدوه خارجًا ومرتديًا ثيابي..

غير واضح المعالم..

فإذا كانت نيويورك أو رأس السنة الجديدة..

كان الرب بعون الوحش بداخلي!

الوحش بداخلي...!»

(١)

ـ «أهو نائم؟».

ـ «لا أعلم.. أعتقد هذا!».

كان (راهب) ممددًا لكنه على وعي الآن، سمع ما قيل، ثم شعر بأحد يركل خاصرته برفق قائلًا بخشونة:

ـ «أفِقْ يا صاح!».

تحرك حركة آلية، فاعتدل نصفه العلوي، وظلَّ على حاله هناك، حيث نظر للجهة المقابلة دون أن يبدي أي انفعالات تدل على إحساسه بتواجدهم معه، المكان بدا كمستودع من نوع ما، وقد كان باردًا..

ـ «انهض يا صاح.. حالًا!».

نهض بذات الطريقة الآلية، فتبعته أضواء المصابيح وفوهات السلاح ببطء..

ـ «ارفع يديك لفوق!».

رفعهما ببطء شاعرًا بنتنٍ في تلابيبه وبدنه، في حين لم يتزحزح ضوء كشاف أحدهم عن تقاسيم وجهه، وحين اعتاد العتمة والأضواء المسلطة على وجهه، ميز على الفور الشخص الذي يقف قبالته مباشرة..

قد كان (علام)!

* * *

ظل على صمته وهو جالس على الكرسي داخل حجرة الاستجواب..

لم يرمش ولم يتحرك مذ احتجزوه في تلك الحجرة وأجلسوه على ذلك الكرسي.. في عينيه نظرة ساهمة، كما لو كان يستعيد ذكرياته الحقيقية.. وهو ما كان يحاول فعله بالضبط!

لم يُظهر (راهب) أدنى شعور بولوج أحدهم الحجرة، أما عن (علام) الذي دخل فقد أوثق بساعديه أمام صدره، وطفق يراقبه بصمت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه..

ـ «هل أنت جائع؟».

لم يردّ (راهب)، فواصل (علام) بنبرة اعتيادية:

ـ «عطشان؟ أتريد بعض القهوة؟ ما اسمك؟».

ـ ......

ـ «ألديك أقارب؟».

ـ ......

ـ «ماذا كنت تصنع في مستودع الطائرة؟ كيف وصلت إلى هناك أصلًا؟»

مستودع طائرة؟ أكان حقًّا في.. مستودع طائرة؟!

إلا أنه لم يكن مستغربًا إلى ذلك الحد..

ـ ......

ـ «عليك بالتحدث في نهاية المطاف وإلا..».

لم ينطق (راهب)، راقب (علام) مسترجعًا موقفه في قاعة الآلة، وقيامه باستخدامها عقب قتله لـ(إيجوفا)..

وعندئذ تحرك!

* * *

في الثانية التالية.. وثب (راهب) كحيوان ضارٍ على (علام)..

وبخفّة منقطعة النظير سلبه مسدسه المدسوس في الجراب.. مسدس الجريمة!

ووجد (علام) ـ الحانق ـ ذراعًا كريهة الرائحة تطوّق جيدَه بثبات كذراع الإخطبوط، ومن ثم التصقت فوهة سلاحه في تجويف أذنه!

عضّ نواجذه هامسًا بحشرجة مغتاظة:

ـ «لا.. تتهور!».

لم يُعلق (راهب).. وانتظر حتى غزا العملاء الحجرة بمسدسات مشهورة، صوبوها اتجاهه وأحدهم يهتف بصرامة عاتية:

ـ «ألق بالسلاح!».

لم يفاجأ (راهب) حين قام (علام) بدهس قدمه مستخدمًا كعب

حذائه المعدني، لكنه لم يشعر بشيء، كأن الآلة أفقدته الإحساس بأطرافه وحتى مشاعره برُمَّتها!

حاول (علام) كذلك أن يرميه من وراء ظهره مستخدمًا حركة «جودو» دفاعية، لكن أطرافه غير الحساسة باتت متصلبة كذلك!

لاح توتر على بعض وجوه العملاء في الحجرة.. في حين واصل ذات العميل هتافه الصارم:

ـ «قلت: ألق بالسلاح.. حالًا!».

كشر (راهب)، فلاحت أسنانه بيضاء متناقضة مع مظهره الخارجي النتن، وسال لعابه على ياقة (علام)!

ـ «تنبه! القميص لا زال جديدًا!».

أطلق (راهب) قهقهة قصيرة كأنما سمع دعابة، فارتبك العملاء لذلك، في حين همس (علام) بسحنة مكفهرة مخاطبًا زملاءه:

ـ «أرى أن تتركونا حالًا، فبإمكاننا إيجاد حل ما لهذا الموقف!».

هتف أحدهم مستنكرًا:

ـ «مستحيل!».

ـ «بل هو أمر بغاية اليسر! نفذوا الأوامر حالًا! لا تتلكئوا!».

لاح تردد في ملامح الجميع، لكنهم نفذوا في نهاية المطاف، فغادروا الغرفة دون أن يخفض أحدهم سلاحه، حتى أغلق الباب مجددًا..

لم يُبدِ (علام) اكتراثًا وهو يخرج من جيبه علبة سجائر لوح بها أمام بصر (راهب).. متسائلًا:

ـ سيجارة؟ لا؟ أحسبها آخر سيجارة ستتمكن من الحصول عليها فلا تُضِع الفرصة يا صاح!

لكن (راهب) عاود الضغط بطريقة مباغتة على عنق (علام)، ما دفعه إلى إفلات العلبة لتسقط أرضًا، لكنه نجح في انتزاع سيجارة أثناء ذلك!

قال بنبرة مختنقة مستخرجًا قداحته من جيبه:

ـ «بإمكانك إمساكي هكذا طيلة اليوم، لكنني لن أظل واقفًا بهذه الطريقة مشتمًّا رائحة عفنك حتى تتخذ قرارك بصدد خطوتك التالية!».

وأشعل سيجارته، في حين أخذ (راهب) يهمهم وبسمته تروح وتجيء، ذهنه باضطراب، وقد شعر أنه يبحث محمومًا عن الخطوة الفعلية التالية!

المهم ألا يكون كل هذا وهما كذلك!

نفث (علام) دخان سيجارته بصعوبة حتى ارتخت ذراع (راهب) حول عنقه بعض الشيء، فقال بشيء من ظفر:

ـ «أنت مخبول حقيقي! لا أعلم ماهية خطتك بالضبط لكنني أؤكد لك أنها فاشلة، لقد اخترت أسوأ رهينة، فأنا لا أنتمي لعملاء أمن الدولة بصورة رسمية.. صحيح أنني عميل، لكنني من نوع خاص للغاية، عميل يتمتع بمدارك متسعة!».

قهقه (راهب) مجددًا بنبرة تبدت مريرة، وتفكر في (علام) البارمان الملحد والمنحوس الذي يفكر بشتى القواعد.. شرط أن تكون مذكورة في الكتاب!

في حين أردف (علام) الذي نفث مزيدًا من الدخان متمتمًا بلهجة جذلة:

ـ «شعرت باستنكارك! لا تقلق بشأن الميكروفون والكاميرا بالمناسبة، فهما معطلان، كما أنني أعتمد على ذراعك في إخفاء فمي، كي لا يتمكن أولئك الذين يراقبوننا عبر الواجهة الزجاجية من قراءة ما تتفوه به شفتاي! لكن إذا أردت مزيدًا من الطمأنينة فبإمكاننا الاستدارة صوب الجدار، وبذلك..».

نفذ (راهب) ذلك بأسلوبه الباغت المستفز، فما إن اصطدم بصره بالجدار حتى همس من بين أسنانه:

ـ «كما عهدتك.. تمكر كالشيطان مستخدمًا الاستراتيجيات، حسب قواعد الكتاب طبعًا.. أيها المنحوس!».

شعر (علام) برعدة تسري عبر جذور عنقه..

ـ «ماذا.. قلت؟!».

ـ «أخمن كذلك أنك لا زلت تائهًا.. فلم تجد ـ لليوم ـ سبيلك للإيمان الحقيقي.. بشيء.. أي شيء!».

ـ «بم تهرف بحق الـ..».

ـ «اصمت! اصمت وأنصت.. أنصت فحسب! بِمَ تؤمن بالضبط؟ ها؟».

ـ «بم أؤمن؟!».

ـ «لا تحاول.. لا تحاول تشغيل الآلة!».

ـ «ماذا؟».

ـ لا تحاول تشغيل الآلة! لا تحاول تشغيلها!».

ـ «عن أي..».

ـ «وإذا حصل وحاولت فالعبارة الصحيحة هي..».

قاطعه (علام) بقوله ذي النبرة الباردة:

ـ «لستَ أبلهَ تمامًا كما يبدو مظهرك! تمكنك من بلوغ تلك الطائرة رغم سورها الأمني المحكم يدل على ذلك..».

ـ «قلت أصغ إليّ جيدًا!».

ـ «أنا مُصْغٍ لكل حرف تنطق به يا صديقي.. تأكد من ذلك!».

ـ «لا.. لستَ كذلك، ولن تكونه!».

واعتصر (راهب) عنقه دافعًا إياه لبصق سيجارته، وهو يهمس في أذنه:

ـ «يبدو أنك لن تحاول الإصغاء، سيؤسفني قتلك كثيرًا لإعجابي الشديد بك، لكنني مضطر.. سامحني فهذا لصالح عالمك!».

وأعقب قوله بالضغط على زناد المسدس!

* * *

كلِك.. كلِك.. كلِك!

التفت (راجح) إلى (راهب) مكشرًا، ورفع قبضته هاتفًا بغضب:

ـ «أيها الـ..!!».

ثم أطلقها في وجهه، لكنه بوغت بالأخير يلويها له ثم يحاول تطويق عنقه بذراعه مجددًا وكأنما يسعى هذه المرة إلى تحطيمها، لكن (راجح)

تمكن من الإفلات منه.. في ذات اللحظة التي اقتحم بها عدد من العملاء الغرفة، وباشروا كمحترفين يتقنون التصرف السريع في المواقف العصيبة بإطلاق وابل من النيران..

تهاوىٰ (راهب) مضرَّجًا في الدماء، في حين تناول (راجح) سلاحه ليتفحصه بدهشة وحيرة لم ينجح في إزالتها تمامًا عن سحنته..

كيف لم يعمل مسدسه؟ أهي غلطة تكنيكية؟

أم تراه الحظ؟ أخدمه الحظ الحسن أخيرًا؟

استغرق تفكيره نصف دقيقة، قبيل إعادته السلاح إلىٰ جرابه مهمومًا وهو يلتفت صوب جثة (راهب) دانيًا منه ببطء كي يتأمله بتساؤل..

* * *

راقبه (راهب) كذلك بصمت المستسلم..

وقبل استسلامه كذلك لملاك الموت، أشاح ببصره عن (علام).. ليقع علىٰ شبح تلك الطفلة ذات الثمانية أعوام، واقفة في زاوية الحجرة كالتمثال..

خيل له أنها تتلاشىٰ أخيرًا!!

الملجأ

رواية

وائل رداد

ثلاثة عملاء سريين وجدوا أنفسهم في مهمة غامضة، مصطحبين معهم سجينا خطرًا في ملجأ سري، لينتزعوا منه معلومة واحدة لا يدرون ما هي.
لكن مع هجوم الذئاب والأشباح؛ وجدوا أنفسهم محاصرين داخل الملجأ، واكتشفوا أن المهمة السرية تتعلق بهم لا بسجينهم، وأن عليهم أن يواجهوا شكوكهم ومعتقداتهم وأشباح ماضيهم، ليتمكنوا من النجاة.. وهنا بدأت تتكشف لهم الحقائق.

وائل رداد، روائي ومترجم ورسام أردني من أصل فلسطيني، مولود ومقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة، درس العلوم الاقتصادية في جامعة القدس، وصدرت روايته الأولى "موت سريري" سنة ٢٠٠٧، تلتها روايات "سأعطيك الحلوى شرط أن تموت"، "جنازة الملائكة"، "ملاك جهنمي"، "مندوب الشيطان"، "الزيبق"، وثلاثية "المصعد رقم ٧"، كما قام بترجمة رواية "سجين الجحيم" لكلايف باركر.



غلاف: عبد الرحمن الصواف


للنشر والتوزيع